

الإعجاز البياني

في تحولات النظم القرآني



تأليف الدكتور

عبدالله بن علي الهجري

أستاذ البيان القرآني بكلية الشريعة . جامعة قطر

الإعجاز البياني

في تحولات النظم القرآني

القرآن الكريم، كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، فكلما أمعن المتدبرون النظر فيه، وأنعموا الفكر؛ وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعاني لا ساحل له، فمعانيه متجددة حيّة، تمتدّ بامتداد الزمان والمكان، فهو معجزة بيانية خالدة؛ لذلك انصرفت إليه جهود علماء الإعجاز والبيان؛ للكشف عن دقائق إعجازه في أساليبه، وبلاغته بيانه.

وقد تناولت في هذا الكتاب ظاهرةً من ظواهر التعبير القرآني، التي تبرز إعجازه البياني، في دقة اختيار الألفاظ والتراكيب، وهي ظاهرة التحول الحاصل في التركيب القرآني، بإعادة عنصر من عناصر بنائه على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهي من أبرز الظواهر البلاغية في البيان القرآني.

فهذه التحولات تثير الدهشة البيانية للتأمل في هذا البيان الحكيم؛ لخروجها عن المتوقع من أطراد السياق على نمط واحد من المطابقة والمشاكلة؛ وذلك يستوقف المتدبرين النظر في أسرارها البيانية، وأبعادها المعرفية؛ لدقة هذا البيان الإلهي المعجز الحكيم، وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة؛ لأنها تبرز وجهًا من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

تَدَبَّرُ
الهيئة العالمية
لتدبر القرآن الكريم



22762 Doha, Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com



مكتبة الأسرة العربية
خدمات أفضل للمعرفة الأصيلة

طباعة ونشر وتوزيع
إصدارات مختارة للأسرة العربية

UFUK nesriyat®
BASIN - YAYIN - DAĞITIM



الإعجاز البياني
في تحولات النظم القرآني

**ELICAAZ
ELBEYANI**

fi tahavullat elnuzum elkuraani

Abdullah Ali Alhatari

I. BASKI: İSTANBUL
2024- 1445



الهيئة العالمية
لتدبر القرآن الكريم

الإعجاز البياني

في تحولات النظم القرآني



تأليف الدكتور

عبدالله بن علي الهندي

أستاذ البيان القرآني بكلية الشريعة . جامعة قطر

الإختصار البياني

في تحولات النظم القرآني

تأليف الدكتور

عبدالله علي الهندي

القياس: 17x24 سم

عدد الصفحات: 344 ص

ISBN: 978-625-6451-81-0

الطبعة الأولى

2024- 1445

جميع الحقوق محفوظة



الهيئة العالمية

لتدبر القرآن الكريم

22762 Doha, Qatar

+974 44181826

tadabborq@gmail.com

مكتبة الأسرة العربية

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 8109 - +90 555 028 1155

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان، وأنزل كتابه للهداية والبيان، وأصلي وأسلم على خير رسله، وأنبيائه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومن سار على درب خطاهم واهتدى بهديهم، إلى يوم الدين.

وبعد.

فالقرآن الكريم، كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وكلما أمعن المتأملون النظر فيه والفكر، وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعاني لا ساحل له، فمعانيه متجددة حيّة، تتجدد بتجدد الزمان والمكان.

ومع كونه معجزة بيانية خالدة، هو -مع ذلك- معجزة تشريعية ربانية، لذلك انصرفت إليه جهود علماء اللغة والبيان؛ لمعرفة أساليبه، وبلاغة بيانه، فهو كتاب العربية الأول والبيان الخالد.

وقد تناولت في هذا الكتاب ظاهرة من ظواهر التعبير القرآني، التي تبرز إعجازه البياني في دقة اختيار الألفاظ والتراكيب في السياق القرآني، وهي ظاهرة التحول الحاصل في التركيب النحوي بإعادة عنصر من عناصر بنائه على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهذه الظاهرة هي من أبرز الظواهر البلاغية في البيان القرآني. إذ نجد أن التعبير القرآني كثيراً ما يغير في استعمال الأفعال، كأن يرد السياق ابتداءً بالفعل الماضي، ثم يتحول عنه إلى المضارع أو الأمر في السياق نفسه، وكذلك العكس بأن يرد الفعل في السياق مضارعاً، ثم يتحول عنه إلى الماضي وهكذا.

فمن نماذج ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف، ١٧٠]؛ إذ نجد التعبير القرآني قد تحول عن الفعل المضارع (يمسكون) إلى الماضي (أقاموا)، وقد كان المتوقع لدى المتلقي اطراد السياق على سبيل المطابقة في الأفعال فيكون (يمسكون ... وقيمون).

وكذلك ما نجده من مغايرة بين الاسم والفعل في نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام، ٩٥].

أهمية الموضوع ودواعي دراسته:

هذه التحولات في السياق القرآني، تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمط واحد من المطابقة والمشاكل، مما يدعو ذلك المتلقي البحث عن مثيراتها السياقية، وأبعادها الدلالية.

لذلك قامت هذه الدراسة لمحاولة الوقوف على صور هذا التحول وأبعاده الدلالية في التعبير القرآني، فهذا التحول ظاهرة نحوية بلاغية، تبرز وجهاً من وجوه الإعجاز البياني في القرآن، وتدلل على ما وهب المولى عزَّوجلَّ هذه اللغة، لغة التنزيل من إمكانيات عديدة، وقدرات فائقة في التصرف في التعبير، والتعدد في الدلالات.

وتحاول هذه الدراسة أيضاً ربط التركيب بالمعنى، فالتركيب لا يوجد دون دلالة مقصودة منه، والدلالة لا تفهم بمعزل عن التركيب، وتسهم أيضاً في تأكيد مقولة الجرجاني في أن القرآن معجز بنظمه، وأن النظم ما هو إلا توخي معاني النحو^(١).

(١) - انظر: دلائل الإعجاز، ٨١.

وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول، على النحو الآتي:
التمهيد: وفيه عرضت لمفهوم التحول في السياق القرآني وقيمه البلاغية ونماذج
لصوره وأشكاله.

والفصل الأول، تناولت فيه التحول في الأفعال، وصوره محلاً نماذج من هذه
الصور، وذلك في المبحث الأول فيه، ثم عرضت للتحول في الأسماء وضمته
المبحث الثاني، وعرضت أخيراً لصور التحول عن الاسم إلى الفعل وعكسه وذلك
في المبحث الثالث.

والفصل الثاني، تناولت فيه التحول في حروف المعاني، وتنوع صورته كسابقه في
الأفعال، وعرضت فيه لصور التحول من حرف إلى آخر، وضمته المبحث الأول،
ثم عرضت في المبحث الثاني للتحول عن ذكر الحرف إلى حذفه والعكس.

وفي الفصل الثالث، تناولت فيه التحول الحاصل في بنية التركيب، من تحول عن
ذكر الفاعل إلى حذفه، أو ذكر المفعول به إلى حذفه كذلك، والتحول في الجمل من
اسمية إلى فعلية وعكسه، والتحول في التعريف والتنكير، والتحول في العدد،
والتقديم والتأخير، ثم تناولت التحول في النسق الإعرابي بذكر صور التحول
المختلفة فيه، عارضاً في ذلك آراء علماء النحو واللغة والبلاغة والمفسرين في تحليل
أوجه المغايرة في الإعراب.

وقد كان المقصد من تناول هذا التحولات الأسلوبية في القرآن الكريم هو
التحليل والتعليل لصورها وأنماطها، لا الوقوف عند ظاهر التركيب، وهذا جهدٌ لا

أزعم فيه أنني قد استوفيت كل جزئيات هذا الموضوع في القرآن الكريم، فالنص
القرآني أكبر من أن يحيط به دارس، لكنني أفدت منه ما يحقق لي هدف هذه الدراسة.
وختاماً، فهذا جهد متواضع حاولت فيه إبراز مظهرٍ من مظاهر بلاغة هذا القرآن
العظيم، ولغته لغة التنزيل، فإن أصبت في ذلك فله الحمد والمنة، وإن أخطأت
فحسبي أن لي أجر المجتهد المخطئ.

وأسأله **عَزَّوَجَلَّ** أن يكتب لي أجر هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم، وما
توفيقني إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.



التمهيد

المقصود بالتحويلات السياقية التي تحصل للتركيب النحوية هي المخالفة في الأفعال والأدوات والجمل والنسق الإعرابي، وما لذلك من دلالات بلاغية، مما يصب في ما سماه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني بمعاني النحو^(١)، وعدّه المزية في معرفة إعجاز القرآن، فالقرآن مُعْجَزٌ بنظمه، وذلك من خلال توخّي معاني النحو في تراكيبه وجمله وأسلوبه، وهذا الأمر يدعو إلى دراسة للنحو لا تنفك عن دلالة السياق ومعناه، وتكشف الدراسة من خلاله علاقة المعنى في توجيه الأسلوب وجمالياته، وذلك بدراسة التراكيب النحوية ضمن سياقاتها النصية، بما يسمى (نحو النص)، لا نحو القاعدة المنفصلة عن النص وسياقها النصي، وهذه الدراسة تربط النحو بالمعنى، وتوظف النحو في تحليل النص وفهم معانيه.

فالنحو في بداياته الأولى عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) كان نحواً يهتم بسياقات النص، فالتركيب النحوية تدرس في سياقاتها النصية، فيتذوق بها جمال النص وبلاغته، وقد أشار إلى ذلك الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) بقوله: "فسيويوه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن

(١) - انظر: دلائل الإعجاز، ٨١، يقول الجرجاني: "واعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهْجَت فلا تزيع عنها، وتعرف الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها".

الفاعل مرفوع وأن المفعول منصوب، ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان، ووجه تصرفات الألفاظ والمعاني^(١).

وقد تناول بعض الباحثين المعاصرين ارتباط النحو بالمعنى عند سيبويه في أطروحة جامعية بعنوان "الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب"^(٢)، وتناول ذلك أيضاً عبدالقادر حسين في أطروحته^(٣) "أثر النحاة في البحث البلاغي".

والمقصود بالنحو في بحثنا هذا هو النحو التفسيري لا النحو التعليمي، أي: "النحو بوصفه البنية العميقة التي تعطي الجملة معناها، والنحو كما قدمه علماءنا الأوائل علم نصي؛ لأنه يتعامل مع التراكيب، ولا يمكن فهم تركيب ما إلا من خلال بنيته النحوية"^(٤).

واخترت أن تكون هذه الدراسة نحوية بلاغية تتناول أعظم النصوص اللغوية وأرقاها وهو القرآن الكريم، فالباحث "كلما كان قريباً من النصوص اللغوية متعاملاً معها تجلت له غاية النحو الحقيقية، ولذلك لا محيد عن العودة إلى النصوص، فإن العمل من خلالها يفتح آفاقاً كثيرة مفيدة"^(٥).

(١) - الموافقات، الإمام الشاطبي، ٥ / ٥٤.

(٢) - الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب، أحمد سعد محمد، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٩.

(٣) - أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨.

(٤) - منهج في التحليل النصي، محمد حماسة عبد اللطيف، ١١٤.

(٥) - النحو والدلالة، ٣٤٠.

وليس غاية النحو معرفة الخطأ والصواب في ضبط الكلمة فحسب، وإنما غايته الحقيقية هي تحليل النصوص ومعرفة أسرار تراكيبها من خلال فهم تعالق مفردات التراكيب بعضها ببعض والفروق بينها، فهو إبداع ولا بد من تفجير طاقته المبدعة في إضاءة النص وتفسيره، فقد استعمل المفسرون والبلاغيون قواعد النحو وسيلة لفهم دلالات التراكيب في القرآن المعجز، ولم يقفوا بع عند حدود الصواب اللغوي فحسب، فالنحو إبداع وتذوق لأسرار العربية واساليبها البيانية من خلال تدبر النص البياني الإلهي المعجز، وهو القرآن الكريم.

ولم تكن الغاية من نشوء النحو العربي معالجة فشو اللحن والخوف من تطرقه إلى عربية القرآن فحسب، وإن كان هذا الأمر يأتي ضمناً، وإنما الأهم من ذلك كله هي الرغبة القوية في معرفة أسرار التركيب القرآني، والوصول إلى فهم دقائق معانيه، ومعرفة أسرار إعجازه.

وقد حاد النحو عن غايته الأولى على أيدي المتأخرين من النحاة إذ جعلوا الغاية منه تمييز صحيح الكلام من فاسده، ومعرفة إعراب أواخر الكلم، "وحصر النحو في دائرة الإعراب والبناء الضيقة المغلقة لا يتسع لكشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته"^(١).

(١) - النحو والدلالة ٢٧.

القيمة البلاغية للتحويل السياقي:

يُعد التحويل "تفنناً في الكلام وتصرفاً فيه يكسب النص قيمة جمالية، وينبه إلى أسرار بلاغية كثيرة"^(١). وهو من فنون التواصل بين المبدع والمتلقي؛ لأنه يبرز "إمكانات المبدع في استعمال الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة"^(٢)؛ "لإيصال رسالته إلى المتلقي بكل ما فيها من قيم جمالية، فيتحوّل الأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد؛ ليحقق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيلها التركيب العادي"^(٣).

وهو يقطع رتبة النص بما يضيفه من تحولات في التراكيب تثير دهشة المتلقي وتلفت انتباهه، وذلك بكسر أفق التوقعات لدى المتلقي من خلال حركة التراكيب في موضعها "وتحوّلها تحوراً غير مألوف يبرز دلالةً فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي"^(٤). وخروج السياق عن "هيكل هذه التوقعات هو الذي يسمح بقياس مدى قيمته الأدبية"^(٥).

ويسهم في تفاعل المعاني وتوالد الدلالات، "فالنصوص الإبداعية نصوص مفتوحة قابلة لمستويات متعددة في القراءة"^(٦).

(١) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٥٦.

(٢) - جدلية الأفراد والتركيب، محمد عبد المطلب، ١٨٨.

(٣) - تحولات البنية في البلاغة، ٢٩٣.

(٤) - جدلية الأفراد والتركيب، محمد عبد المطلب، ١٨٨.

(٥) - مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، ١٥١.

(٦) - النص الأدبي بين القارئ والمبدع، غسان السيد، ١٦٣.

والنص القرآني تتعدد قراءاته وفهم دلالاته، وقد وصفه الله **عَزَّوَجَلَّ** بقوله:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص، ٢٩].

فهو مبارك في معانيه ومضامينه، لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ويقتضي تدبره عدم الوقوف عند ظاهر عباراته فقط، بل ينبغي تجاوز ذلك بإعمال النظر الدقيق والفهم العميق في فهم ما وراء عباراته ونصوصه من دلالات وإيحاءات، وذلك يحتاج إلى إعمال طاقات التأويل فيه من ذوي الأفهام والألباب.

والعربية بها اشتملت عليه من أساليب بيانية وصور بلاغية وسيلة لتدبر القرآن الكريم وفهمه.

والتحول من الأساليب المهمة في ذلك؛ لأنه يشد انتباه المتلقي فيدخله في دائرة التدبر والتفكير وإعمال النظر في فهم دلالات النص القرآني وأساره.

وإذا كانت القيم البلاغية للتحويلات التركيبية في الأسلوب تبدو في كلام البشر من الشعراء والأدباء فيتذوقها النقاد والبلغاء، فإن هذه القيم "أروع ما تكون في كلام خالقهم **عَزَّوَجَلَّ** ولكن الأذهان تتفاوت في إدراكها والوصول إلى أغراضها، فقد تقترب منها وقد تصل إلى بعضها" (١).

والتحول وإن مثل قيمة بلاغية في فهم النصوص وتذوقها، فلا يعني مطلقاً أن مجيء الكلام على ظاهره خلواً من هذا الأسلوب، يخلو من مدلول بلاغي، فلكل مدلوله البلاغي في سياقه الخاص به، لا سيما السياق القرآني المعجز، "بل قد يكون

(١) - النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٤٨.

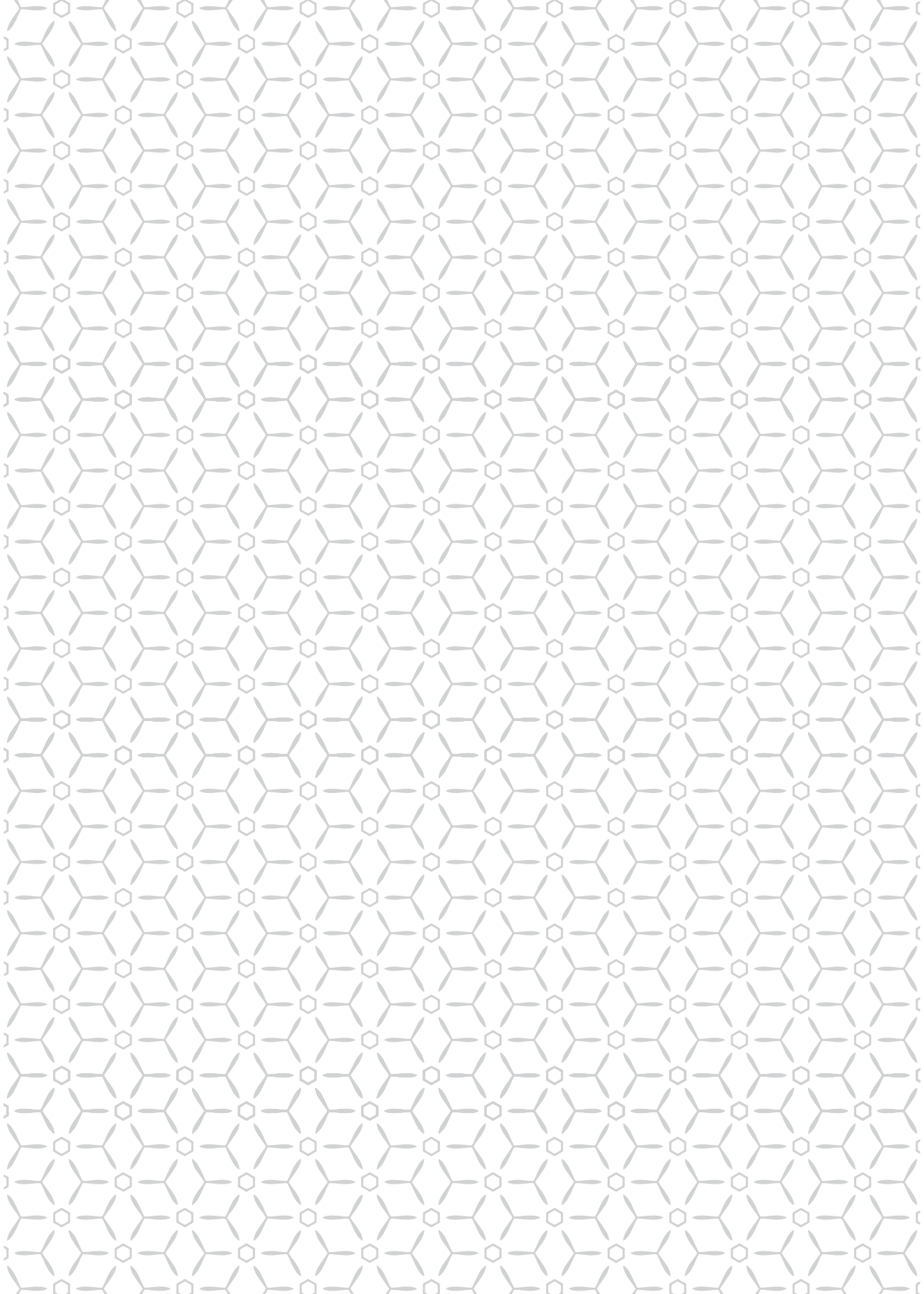
جريان الكلام على ظاهره أبلغ وأدل على مقصوده من غيره، فليست البلاغة دوماً في الخروج عن المعهود اللغوي"^(١).



(١) - التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ١٨٨.

الفصل الأول

التحول في الأفعال والأسماء



تمهيد

نجد التعبير القرآني كثيراً ما يغير بين الأفعال والأسماء، فيخالف بين الأفعال نفسها في السياق الواحد، ويتمثل ذلك في التحول في أزمنة الفعل، كأن يتحول عن الماضي إلى المضارع أو العكس، أو عن المضارع إلى الأمر، وغيرها من صور التحول المختلفة لهذا النوع.

وكذلك يرد التحول في الأسماء بالمخالفة بين الضمائر، كأن ينتقل من الخطاب إلى الغيبة أو العكس، أو من التكلم إلى الغيبة، وغير ذلك، وكذلك التحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر والتحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالمخالفة بينها، كالتحول عن (ما) إلى (من) أو العكس، وكذلك التحول بين الأسماء والأفعال معاً، كأن يتحول عن الاسم إلى الفعل في السياق نفسه، نحو التحول من اسم الفاعل إلى الفعل أو العكس، أو التحول إلى اسم المفعول أو المصدر، وغيرها من صور التحول المختلفة المتعددة.

وهو ما سنعرض له بالتفصيل في هذا الفصل، محللين بعض النماذج لكل نوع من أنواع هذا التحول، لمعرفة أبعاده البلاغية التدبرية، متناولين ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التحول في الأفعال.

المبحث الثاني: التحول في الأسماء.

المبحث الثالث: التحول من الاسم إلى الفعل أو العكس.

المبحث الأول

التحول في الأفعال

قسم النحاة الفعل ثلاثة أقسام هي: "ماضي وهو ما دل على الزمن الماضي، ومضارع وهو ما دل على زمن الحاضر أو المستقبل، وجعلوا القسم الثالث وهو الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل" (١).

وفي تقسيمهم هذا انطلقوا من أن الأزمان ثلاثة: ماضي وحاضر ومستقبل، يقول سيبويه (ت ١٨٠هـ): "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع" (٢).

"فالنحاة قسموا الفعل على أساس تقسيم الزمن الفلسفي، وهو الماضي والحاضر والمستقبل، وخصوا كل زمن بصيغة معينة، هو معناها في حالة الأفراد والتساوق على السواء" (٣).

وقد انتقد بعض الباحثين المعاصرين النحاة؛ لتركيزهم على الزمن في صيغة الفعل، وإهمال السياق الذي وردت فيه، فيرى فاضل الساقى (٤): "أنه كان على النحاة أن يدركوا أن الأفعال مجرد صيغ وألفاظ تدل على زمن ما، هو جزء من معنى

(١) - أقسام الكلام العربي، فاضل الساقى، ٢٢٩.

(٢) - الكتاب، ١/ ١٢.

(٣) - أقسام الكلام العربي، ٢٣١.

(٤) - السابق، ٢٣٢.

الصيغة لا على زمن معين، وأن السياق أو الظروف القولية بقرائنها اللفظية والحالية هي وحدها التي تعين الدلالة الزمنية وترشحها لزمن بعينه".

وأرى أن دلالة السياق على الزمن النحوي لا تنفصل عن دلالة المفردة للصيغة الصرفية، فهما متعلقتان، وأن الصيغة الصرفية لا تخلو من دلالة زمنية، غير أن السياق يضيف دلالة إضافية للدلالة الصرفية المفردة يحددها السياق نفسه، فيُجمع بين الدالتين، ولا تلغي إحدى الدالتين الأخرى، أو تفرغها من محتواها.

فمن ذلك مثلاً: الفعل "أتى" في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١]. يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق، في زمن مضى وانقضى، إلا أن وروده في السياق "يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها، وهي دلالة الاستقبال؛ لأن القرينة اللفظية "فلا تستعجلوه" في السياق النحوي التركيبي تشير إشارة واضحة جلية إلى أنه لما يقع بعد. ومع كونه فعلاً ماضياً في الصيغة الصرفية، فإننا لا نفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله: "سيأتي أمر الله". ومع ذلك لا نقف عند حدود الدلالة الصرفية اللفظية لنقول: بأنه فعل ماضٍ قد وقع وحصل؛ فالقرينة السياقية تمنع ذلك وهي قوله: "فلا تستعجلوه"، وإنما نجمع بين الدالتين الصرفية والنحوية، الإفرادية والتركيبية، لنقول: إن المراد "هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال

متضمنة معنى الماضي وموظفة له في الوقت نفسه، فكأن مقصود الآية أن تقول: سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل^(١).

ونلاحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني.

وقد توقف علماءنا قديماً عند هذا النوع من التحول وعدّوه ضرباً من البلاغة، يقول ابن الأثير (ت ٦٣٦هـ): "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية، اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها، وفتّش عن دفائنّها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقّها فهماً وأعمّضها طريقاً"^(٢).

(١) - الإعجاز الصرفي، ٥٢-٥٣.

(٢) - المثل السائر، ١٩٣/٢-١٩٤.

ونحن في تناولنا لهذا التحول في صيغ الأفعال، لا نتناولها من الناحية الصرفية، وإنما نتناولها من حيث دلالة الزمن النحوي الذي وردت فيه في السياق.

إذ تناول هذه الصيغ مفردة خارج السياق اللغوي يعد تناولاً صرفياً، وتناولها في السياق الواردة فيه من حيث الدلالة الزمنية يعد تناولاً نحوياً سياقياً، كما سبقت الإشارة إليه.

والتحول في الأفعال يتمثل في ست صور هي على النحو الآتي:

الصورة الأولى: التحول عن الفعل الماضي إلى المضارع:

مجيء المضارع بعد الماضي في هذا الضرب من التحول يكون على نوعين^(١): نوع يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث قد مضى وانقضى، ونوع آخر يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال.

أما النوع الأول: فمجيء المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى، وقد قرر علماء البلاغة أن المضارع في الحالة هذه يقصد به استحضار الصورة للحدث الماضي، وكأنه أمر مشاهد بارز للعيان، يقول ابن الأثير^(٢): "واعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي". وهذا ما أطلق عليه

(١) - انظر: المثل السائر، ٢/ ١٩٤.

(٢) - السابق، ٢/ ١٩٤.

الزَمْخْشَرِي (ت ٥٣٨هـ) مصطلح "حكاية الحال". يقول الزَمْخْشَرِي عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ [فاطر، ٩]. فإن قلت لم جاء "فُثِيرُ" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية^(١).

فالسّياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، إذ يقتضي السّياق بموجب المطابقة الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، يقول السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٢): "وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضي أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لا شرط اتحاد الزمان في الفعلين المتعاطفين".

فمجيء الفعل المضارع في الحالة هذه خارجاً عن النسق العام للسّياق؛ يؤدي إلى توليد دالّتين بارزتين في السّياق، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو الاستقبال، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده، فالدلالة السياقية تقتضي مضيه، والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدالّتين ليقال: إنه الماضي الحاضر.

(١) - الكشف، ٣/ ٣٠١.

(٢) - همع الهوامع، ١/ ٢٣.

وعد السكاكي (٦٢٦هـ) هذا النوع من التحول أصلاً بلاغياً ثابتاً إذا اقتضى السياق اللجوء إليه، فقال^(١): "وإنه -أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع- طريق للبلغاء لا يتحولون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه".

ويرد هذا النوع من التحول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعد من روائع البيان فيه، إذ عمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان، من ذلك قوله تعالى مخاطباً اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة، ٨٧].

ففي هذا السياق حصل تحول عن الفعل الماضي "كذبتُم" إلى الفعل المضارع "تقتلون" وكان مقتضى السياق بموجب المطابقة الزمنية بين الأفعال أن يكون على النحو "فريقاً كذبتُم وفريقاً قتلتم".

لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث في الزمن الماضي، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم، لكن السياق تحول عن الماضي إلى المضارع؛ لأن قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب^(٢).

(١) - مفتاح العلوم، ٢٤٧.

(٢) - انظر: الكشف، ١/ ٢٩٥.

وسياق هذه الآية يشابهه سياق آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة، ٩١].

إذ جاء الفعل المضارع "تقتلون" الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان "قبل" الدال على الماضي، مما يجعل دلالة الفعل المضارع دالة على الزمن الماضي، فالفعل لا يدل على زمن الحدوث، وإنما يدل على زمن الإخبار، فللفعل الماضي زمانان؛ زمن حدوث ووقوع، وزمن إخبار عنه، وهو ما أشار إليه الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) بقوله^(١): "والفعل الماضي ما تقضى وأتى عليه زمانان، لا أقل من ذلك، زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه".

ونجد أن السياق القرآني قد نسب جريمة القتل إلى الأحفاد عندما خاطبهم فقال: "فلم تقتلون أنبياء الله من قبل"، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد، وذلك من بلاغة السياق القرآني، إذ أفاد الفعل "تقتلون" الاستمرارية للحدث، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل والإجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد.

(١) - الإيضاح في علل النحو، أبي القاسم الزجاجي، ٨٧.

وفي ذلك تنبيه في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستئنان بسنة أسلافهم، أو الرضى عن أفاعيلهم، أو الانطواء على مثل مقاصدهم^(١).

وأضفى ظرف الزمن الماضي "قبل" على السياق دالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق اللغوي للفعل إلى الزمن الحقيقي للحدوث وهو الماضي، ودلالة أخرى توحى بأن قتل الأنبياء قد كان في الزمن الماضي في حق من سلف منهم، أما هذا النبي فلا يمكنون منه، فالله يعصمه من الناس، يقول دراز^(٢): "ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاء لقلب النبي العربي الكريم وباباً من الأطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله "من قبل" فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس".

"فإذا أخذنا بدلالة الماضي للظرف "قبل" كانت دلالة الفعل "تقتلون" تفيد استحضار الصورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحى دلالة "قبل" من استحالة حصول الفعل وتحقيقه بالنسبة لهذا النبي، كانت دلالة الفعل "تقتلون" تفيد تجدد محاولة الفعل منهم والاستمرار، والجمع بينهما نوع من الانفتاح الدلالي للنص القرآني.

(١) - النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ١٥٤.

(٢) - السابق، ١٥٥.

ولكننا نجد سياقاً آخر في القرآن الكريم يرد فيه الإخبار بصيغة ضمير الغائب في الحديث عن بني إسرائيل، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة، ٧٠].

وهذا السياق تنسجم فيه الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عنمن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب "إليهم، جاءهم، أنفسهم" مع السياق الخارجي للزمن الماضي، وبناءً على ذلك فتصرف دلالة الفعل المضارع "يقتلون"، في الحالة هذه إلى استحضار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجده، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ^(١): "جيء "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجيب منها".

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول: إن دلالة الفعل "يقتلون" تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب، وفيه تيسر من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي ﷺ.

وهذا يعد من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد وُظِفَت القيمة الزمنية في صياغة الفعل؛ للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع.

(١) - الكشف، ١/ ٦٣٣.

وكما أن وظيفة استحضار الصورة في سياق الآيات السابقة كان لغرض تصوير فظاعة الحدث وقبحه، فكذلك نجد استحضار الصورة في سياق آخر يرد للفت الأنظار إلى موضع القدرة والاعتبار، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر، ٩]. فإنه إنما قال: "فتثير، مستقبلاً، وما قبله وما بعده ماضٍ؛ لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة"^(١).

ويتحول الماضي المنفي إلى المضارع المنفي فيفيد الفعل المضارع في هذه الحالة تأكيد النفي، وليس استحضار الصورة كما هو الحال مع المضارع المثبت، وهو ما ذهب إليه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) إذ قال ^(٢): "ومنه قولهم: لم يقم زيد، جاءوا فيه بلفظ المضارع وإن كان معناه المضي؛ وذلك أن المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي، ألا ترى أن أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة، ثم توجد فيما بعد، فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعد، أما الماضي فقد وقع وانتهى، فإذا نفي المضارع الذي هو الأصل فما ظنك بالماضي الذي هو الفرع". "وفي هذا النفي نوع من التوكيد، فالتعبير بالمضارع المنفي بدلاً من الماضي لا يفيد عند ابن جني استحضار الصورة، كما يفيد التعبير بالمضارع بصفة عامة، ولكنه يأتي لإرادة التوكيد"^(٣).

(١) - المثل السائر، ٢/ ١٩٥.

(٢) - الخصائص، ٣/ ١٠٥.

(٣) - أثر النحاة في البحث البلاغي، ٣٠٦.

وبناء على ما تقدم يمكننا فهم سر التحول في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦]. فالتوقع من سياق هذه الآية أن تكون على النحو الآتي: "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكن السياق القرآني تحول عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، والسبب في ذلك -والله أعلم- أن حالة التضرع هي مرتبة أعلى في الخضوع من الاستكانة نفسها، إذ التضرع ضرب من الإمعان في الابتغال واللجوء إلى الله تعالى، فنفي ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيد في نفي ما هو أعلى رتبة، فإذا انتفت الاستكانة منهم، فمن باب أولى ينتفي حصول أدنى تضرع منهم؛ لذا تحول السياق في النفي عن الماضي إلى المضارع؛ فنفي المضارع أشد تأكيداً من نفي الماضي، -كما سبق ذكره عند ابن جني- فوافق المقال مقتضى الحال.

ولعل ذلك ما قصده ابن عاشور بقوله^(١): "والتعبير بالمضارع في "يتضرعون" لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم". إذ يفهم من قوله: "تجدد الانتفاء" تكرار النفي واستمراره وذلك ضرب من التأكيد، وكأني بالسياق يقول: "ما تضرعوا، وما تضرعوا، وما تضرعوا..."، فقال: "وما يتضرعون"، وهو ما يفهم أيضاً من قول الألويسي^(٢): "وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفي، لا نفي الدوام".

(١)- التحرير والتنوير، ١٨/ ١٠١.

(٢)- روح المعاني، ١٨/ ٥٦.

ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكان المقصود -والله أعلم- وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب، وإنما جاء "وما يتضرعون" لنفي حصول أدنى شيء من التضرع أصلاً.

ولا منافاة فيما قرناه هنا وبين قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٤-٦٥]. فهناك فرق بين الجؤار والتضرع.

يقول الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)^(١): "فالتضرع يستعمل فيما إذا كان عن صميم القلب لا باللسان فقط، ولذا عبر عن استغاثتهم أولاً بالجؤار الذي هو من صوت الحيوان، فلا منافاة بينهما كما توهم".

وللتحول إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يوحي بها السياق القرآني الكريم، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب، وكثرة وقوع الفعل وتكراره، أو تجدد واستمراره، فمن دلالة التلطف في الخطاب قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ، ٢٥].

لقد كان من المتوقع لدى المتلقي أن يجري السياق على نمط واحد فيكون "قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما أجرمتم"، ولكن السياق القرآني تحول عن الظاهر والمتوقع تحوّلين، تحوّلًا معجميًا عن لفظة "أجرم" إلى لفظة "عمل"، وتحوّلًا نحويًا عن الماضي "أجرمنا" إلى المضارع "تعملون".

(١)- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، ٥٩٨/٦.

وعلى ذلك الألوسي فقال^(١): "وهذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو منها مؤمن بما يعبر به عن العظائم، وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك".

"وهذا أسلوب غاية في الكسب للخصم إلى جانب المتحدث، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس"^(٢).

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف، ٦-٧].

ففي هذه الآية نجد التحول عن الفعل الماضي "أرسلنا" إلى الفعل المضارع "يأتيهم"، وكان المتوقع بموجب المطابقة بين الأفعال أن يرد السياق على النحو التالي: "وكم أرسلنا ... وما أتاهم ... إلا استهزؤا به"؛ لأنه يخبر عن حدث مضى، وذلك بقريئة لفظية، وهي قوله "في الأولين"، ولكن التحول إلى الفعل المضارع "يأتيهم" في هذا السياق دل على الكثرة والتكرار، فكثرة مجيء الرسل قوبل بكثرة

(١)- روح المعاني، ٢٢/ ١٤١.

(٢)- التعبير القرآني والدلالة النفسية، ١٩٩، رسالة دكتوراه، مخطوطة عبد الله الجيوسي، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠١م.

الاستهزاء، والفعل الدال على ذلك "يستهزؤون" مسبوقاً بـ (كان) "وسبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر في الماضي، ووقوعه بصورة متكررة"^(١). قال الرازي^(٢): "والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء".

والفرق بين هذا النوع من التحول الدال على الكثرة والتكرار، والنوع الآخر الذي يليه الدال على الاستمرار، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع، وإن كانت متقاربة في الزمان، في حين أن الاستمرار يقتضي الاتصال.

ومن أمثلة مجيء هذا التحول للدلالة على الاستمرار، قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج، ٨].

لقد تحول السياق القرآني عن الفعل الماضي "نقموا" إلى المضارع "يؤمنوا" وكان المتوقع أن يرد السياق على النحو الآتي: "وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد؛ لأنه يخبر عن حدث مضى وانقضى، وهو ما حصل للفئة المؤمنة على أيدي أعدائهم، واللافت للنظر، هو مجيء الفعل المضارع "يؤمنوا" وليس "إلا أن آمنوا"، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة، ٥٩].

(١) - معاني النحو، ٣/ ٣١٩.

(٢) - تفسير الرازي، ٢٧/ ٦١٩.

فما السر في مجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق سورة البروج، والتحول عنه إلى المضارع "يؤمنوا" في السياق نفسه، في حين ورد العكس في سورة المائدة إذ جاء الفعل "تنقمون" مضارعاً وتحول عنه إلى الماضي "آمنا"؟!

والذي يظهر لي -والله أعلم- أن السياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له، فيكون كل سياق قد اختص بتركيب قصد إليه معنى، وهو من البلاغة بمكان؛ لأنه يقتضي موافقة الكلام لمقتضى الحال.

إن مجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق الآية السابقة من سورة البروج يشير إلى أن هذه النقمة مضت وانتهت بهلاك الذين فُتِنُوا من المؤمنين، فليس فيها تجدد واستمرار، ودل التحول إلى صيغة المضارع "إلا أن يؤمنوا" على أن أعداءهم نقموا منهم استمرارهم على الإيثار وثباتهم عليه^(١). في حين دل سياق الآية من سورة المائدة على أن نقمة أهل الكتاب متجددة مستمرة ضد المسلمين لا تنقطع عنهم بحال، بدلالة الفعل المضارع "تنقمون"، ودل التحول إلى الفعل الماضي "آمنا" أن إيمان المسلمين حاصل متحقق، فهو في حكم الماضي في تحققه وحصوله، فلا مطمع لأعدائهم في ارتدادهم عنه. ويبرز الانفتاح الدلالي للنص القرآني في هذا السياق، ليضيف دلالة أخرى للفعل الماضي مفادها، أن إيمان المسلمين ليس حادثاً، وإنما هو امتداد لقافلة الإيمان التي مضت في تاريخ البشرية.

وما سبق ذكره من الآيات القرآنية هي نماذج للنوع الأول الذي يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى.

(١) - انظر: غرائب القرآن ورجائب الفرقان، ٦/ ٤٧٧.

وأما النوع الثاني: فيرد فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال. ويقرر البلاغيون أن مجيء المضارع للدلالة على الحال والاستقبال يفيد التجدد والحدوث، وأن هذا الحدث مستمر الوجود ولم يمض، يقول ابن الأثير^(١): "وعطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل، والآخر غير بلاغي: وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض".

ويُفهم من كلام ابن الأثير أن هذا النوع من التحول ليس ضرباً من ضروب البلاغة، وما ذهب إليه ليس بصواب، إذ البلاغة هي موافقة المقال لمقتضى الحال، وقد جاء هذا التحول ليوافق مقتضى الحال الذي سيق من أجله، كما سنوضحه لاحقاً في هذا البحث، وقد استعمل في النصوص الأدبية الراقية لا سيما القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلا لمنحى بلاغي، إذ لا يقع ما ليس بليغاً في كلام الله **عَزَّوَجَلَّ**، وقد اعترض محمد أبو موسى على ابن الأثير لإخراجه هذا النوع من التحول من البلاغة فقال^(٢): "ولست أدري لماذا كان هذا القسم غير بلاغي؟ أليست البلاغة نظراً فيما تنطوي عليه خصائص الألفاظ وأحوالها لإبراز معانيها وبيان لطائفها ومطابقتها لبيان الكلام؟ وأليس هذا داخلاً في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال؟"

(١) - المثل السائر، ٢/ ١٩٤.

(٢) - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ٥٤٧.

بل إن ابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها، مما يوحى بالتضارب لديه^(١).

ويشير هذا النوع من التحول في السياق القرآني إلى دلالات مختلفة منها:

- الدلالة على التجدد والاستمرار للحدث.

- الدلالة على إطالة مشهد الحدث.

- التركيز على نتيجة الحدث.

فمن السياقات التي يدل هذا التحول فيها على التجدد والاستمرار قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد، ٢٨].

إذ تحول إلى المضارع (تطمئن) لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره؛ وأنه لا يتخلله شك ولا تردد^(٢)، ولو جرى السياق على نمط واحد فكان "واطمأنت قلوبهم" لما أفاد معنى التجدد والاستمرار الذي نجده في زمن المضارع الذي أضفى دلالة الزمن المفتوح في الماضي والحاضر والمستقبل، فقلوبهم قد اطمأنت بذكر الله منذ الزمن الماضي، وما تزال تطمئن في الحال والمستقبل، في حين ورد ذكر الإيمان بصيغة الماضي "آمَنُوا" لإفادة معنى الحصول والتحقق، فهو ثابت متحقق كتحقق الماضي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ هُمُ عُقَبَى الدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٢].

(١)- انظر: المثل السائر، ٢/ ١٩٧-١٩٨.

(٢)- التحرير والتنوير، ١٣/ ١٣٨.

فقد تحول عن الماضي الصلة "صبروا" وما عطف عليه إلى المضارع "يدرؤون"، وذلك "لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه، لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات"^(١).

ومن السياقات التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على إطالة مشهد الحدث لما في ذلك من التخويف والتهديد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج، ٣١].

إذ حصل في هذا السياق تحول عن الفعل الماضي خَرَّ إلى المضارع "فتخطفه" أو "تهوي"، ولم يأت السياق على نمط واحد فيكون "خَرَّ من السماء فتخطفته الطير أو هوت به الريح"، وذلك أن الفعل الماضي يشير في هذا السياق إلى تحقق حصول الخور من المشرك لا محالة، حاله حال الماضي في تحقيقه، فقال: "خَرَّ من السماء"، وفيه دلالة على سرعة حصول الخور والسقوط دون تماسك أو انتظام، كما يوحي به جرس اللفظة "خَرَّ" وقصرها وخفتها، وتكرار صوت الراء فيها إشارة إلى تكرار السقوط والهوي والتقلب في الهواء، وما أضفاه التفخيم في الخاء والراء من تفخيم لمشهد الهوي نفسه "فالملاحظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ

(١) - التحرير والتنوير، ١٣/ ١٢٩.

بـ "الفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء"^(١). "ثم تحول إلى المضارع "فتخطفه" و"تهوي" لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به"^(٢).

فكان التحول إلى المضارع لاستحضار المشهد وإطالته، وأمعن في إطالة مشهد الهوي أيضاً مجيء الحرف "في" الذي أفاد هنا الإمعان في تصوير التسفل والسقوط، وكأن المكان السحيق قد أصبح ظرفاً ووعاءً له لا ينتهي فيه إلى قرار. ولو قال: "إلى مكان سحيق" لأفاد انتهاء الهوي به إلى منطقة معينة، وذلك يوحي بالتهديد الشديد والإيعاد لمن كان هذا حاله.

ولو جرى السياق على النمط نفسه من المضي لمضى السياق كله على عجلة دون أن يتمكن المتلقي من إمعان النظر والفكر في مشهد الخطف والهوي.

ومثله قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد، ٢٠].

لقد تحول السياق عن الماضي "أعجب" إلى المضارع "يهيج" و"يكون"، ولو جرى السياق على نمط واحد لجاء: "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم هاج ثم كان حطاماً"، لكن التحول عن الماضي إلى المضارع في هذا الموضع جاء لمنحى دلالي مقصود، فالسياق القرآني تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع، بالإخبار عنها بالزمن الماضي، وكأنها لحظة

(١) - في ظلال القرآن، ٤ / ٢٤٢١.

(٢) - المثل السائر، ٢ / ١٩٧.

مضت دون تريث أو إمهال، تلاها على الفور مشهد الفناء والزوال، مخبراً عنه بالزمن الحاضر، حتى يظل مشهد الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان، ولا ينافي ذلك مجيء حرف العطف "ثم"، فهو هنا يفيد التراخي الرتبي لا الزمني^(١).

إذ يوحي المشهد بالتدرج من لحظة السرور والفرح بهذا النبات، إلى مرحلة شديدة على النفس متمثلة في هيجان الزرع وذبوله، تليها مرحلة أشد من سابقتها وهي مرحلة الاصفرار والاحتضار^(٢).

ويرد هذا التحول للتركيز على نتيجة الحدث نفسها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج، ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَأَيُّمَسُكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج، ٦٥]، ففي الآيتين السابقتين نجد أنه قد تحول عن الماضي "أنزل" و"سخر" إلى المضارع "يمسك" "فتصبح" واختيرت صيغة الماضي في "سخر لكم ما في الأرض" و"أنزل من السماء"، وذلك لأن "الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها"^(٣).

فمحل التأمل في الآية الأولى ليس فعل التسخير نفسه وإنما مظاهر هذا الفعل وآثاره، ومن أهمها إمساك السماء بغير عمد، ومجيء التحول إلى المضارع (فتصبح) في

(١) - انظر: رأي الزخشري في (ثم) التي تفيد التراخي الرتبي في الكشف، ٤ / ١٥٤.

(٢) - انظر: التحرير والتنوير، ٢٧ / ٤٠٥.

(٣) - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٩٧.

الآية الثانية "لِثَبَّتَ المشهد عند نقطة مهمة، ينبغي للمتلقي أن يقف عندها ويستحضرها دائماً أمام عينيه"^(١). وفيه دلالة على "بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم يمض"^(٢). ومنظر الخضرة في الأرض يشيع البهجة في النفس ويطمئن النفوس على أرزاقها، لذا جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، فهو لطيف بعباده، خبير بما يصلح أحوالهم.

الصورة الثانية: التحول عن الفعل المضارع إلى الماضي:

ويرد هذا النوع من التحول في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وفي حين نجد بعض النحاة يميز عطف الماضي على المضارع أو العكس، نجد آخرين منهم يذهبون إلى تأويل الفعل الماضي في هذه الحالة بالمضارع لينسجم السياق لديهم، فمَنْ أجاز العطف مطلقاً الرضي في شرح الكافية بقوله^(٣): "ويعطف الماضي على المضارع وبالعكس، خلافاً لبعضهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف، ١٧٠]، ونحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ [الحج، ٢٥]".

وممن ذهب إلى التأويل السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٤)، إذ يشترط لصحة عطف الماضي على المضارع أو العكس، اتحادهما في التأويل، بأن يكون الماضي مستقبل المعنى

(١) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢١.

(٢) - المثل السائر، ١٩٨/٢.

(٣) - شرح الكافية، ٨٧/٣.

(٤) - انظر: همع الهوامع، ٢٧١/٥.

ليصح عطفه على المضارع، أو المضارع ماضي المعنى ليصح عطفه على الماضي، فيذهب إلى تأويل الماضي بالمضارع والعكس، وينقل عن السهيلي عدم جواز التعاطف "بين فعل واسم لا يشبهه، ولا فعلين اختلفا في الزمان" (١).

وذهب إلى التأويل أيضاً أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) والشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) وأبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ)، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف، ٤٧-٤٨]، أي؛ ونحشرهم ويعرضون" (٢).

ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤]، أي: فتظل" (٣).

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين -كما سبقت الإشارة إليه- إلى "أن وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبى واحد، يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن، ... ففي قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُورُوذُ﴾ [هود، ٩٨]، فالفعل "يقدم" مفرغ من دلالة على الزمن وكذا الفعل "أورد"، وإنما قصد بالأول استحضار صورة الحدث لا غير، وبالأخر تحقق حصول الحدث" (٤).

(١)- السابق، ٥/ ٢٧٢.

(٢)- انظر: البحر المحيط، ٦/ ١٣٤، وحاشية الشهاب، ٦/ ١٨٥.

(٣)- انظر: التبيان في إعراب القرآن، ٢/ ٩٩٣، والبحر المحيط، ٧/ ٥، وحاشية الشهاب، ٧/ ١٦٤.

(٤)- انظر: الزمن واللغة، ٧٢ بتصرف.

وأرى أنه لا داعي لتأويل الماضي بالمضارع أو العكس، فلو أراد المولى **عَزَّجَلَّ** أن يرد التعبير بالمضارع أو الماضي لجاء السياق السابق على نحو: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فتنظّل أعناقهم لها خاضعين"، ولجاء قوله مصوراً حال فرعون يوم القيامة على نحو "سيقدم قومه يوم القيامة فسيورداهم النار وبئس الورد المورد"، وإنما ورد التعبير القرآني على هذا النحو لدلالة مقصودة فلا داعي للتأويل، فالعطف بين الأفعال المختلفة في الأزمنة وإن لم يظهر بين هذه المتعاطفات تناسب لفظي بموجب الصنعة النحوية فإن بينها تناسب معنوي يقتضيه السياق، وهو مبدأ نهجه البلاغيون في بحثهم للوصل والفصل^(١).

وقد عني البلاغيون والمفسرون بالإبانة عن دلالات هذا التحول، فيذكر العلوي صاحب الطراز^(٢): "أن إثارة الماضي والعدول إليه يدل على مبالغة في الثابت والاستقرار".

ولا يسلم له بهذا العموم، وإنما السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، فقد يدل التحول إلى الماضي على الاستقرار كما قال، وقد يدل على غير ذلك من تحقق الفعل أو التقليل والانقطاع، وغير ذلك مما يدل عليه السياق ويقتضيه، فمن هذه الدلالات التي يقتضيها السياق:

- الدلالة على سرعة تحقق حصول الفعل وحدوثه.

(١)- انظر: موضوع الوصل والفصل في: بغية الإيضاح، ٨٥/٢، وشروح التلخيص،

٢/٣-٧٢، والتوجيه البلاغي للقراءات، ٢٤٨.

(٢)- الطراز، ١٤٠/٢.

- الدلالة على أن الفعل سابق للمضارع في التحقق والحصول.
- الدلالة على الاختصاص بوصف ثابت.
- إظهار الرغبة في حصول الفعل.
- إظهار الرغبة في انقطاع الفعل وتغييبه.

من السياقات القرآنية التي يدل التحول فيها إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحدوثه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل، ٨٧]. فقد تحول السياق القرآني عن الفعل المضارع "ينفخ" إلى الماضي "فزع" وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجري على نسق واحد فيكون "فيفزع" لأن الحدث لم يقع بعد، وإنما هو حديث عن المستقبل البعيد وهو يوم القيامة، فدل التحول إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحصوله مثل تحقق الماضي في حدوثه، وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل في الزمن الماضي^(١) وفيه مزيد من تأكيد لأمر البعث والنشور ودلالة على السرعة والدهشة والذهول، بدلالة مجيء حرف العطف (الفاء).

والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل هو أسلوب من البلاغة بمكان، يقول ابن الأثير^(٢): "والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛

(١) - انظر: الكشف، ٣/ ١٦١.

(٢) - المثل السائر، ٢/ ١٩٨.

لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها".

وأفاد الفعل المضارع "ينفخ" استحضار صورة الحدث من المستقبل البعيد وهو يوم القيامة حتى وكأنها ماثلة أمام الأنظار، فكما أفاد المضارع في سياقات سابقة استحضار صورة الحدث من الماضي السحيق، كذلك أفاد هنا استحضار الصورة من المستقبل البعيد، ويجمع الاستحضارين عنصر الزمن، وهناك فرق بينهما، فاستحضار الماضي استرجاع لزمن قد حدث بالفعل لإفادة تصويره في النفس، واستحضار المستقبل استباق للزمن كون الحدث لم يحصل لإفادة تحقق وقوعه.

ونجد -أيضاً- في هذا السياق أن الفعلين المضارع "ينفخ" والماضي "فزع" قد استعملوا للإخبار عن المستقبل، ولكن تختلف دلالتاهما، فدلالة المضارع في الإخبار عن المستقبل تفيد استحضار صورة الحدث، ودلالة الماضي تفيد تحقق حدوثه وحصوله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ﴾ [هود، ٩٦-٩٨].

لقد تحول السياق عن المضارع "يقدم" إلى الماضي "فأوردتهم"، ولو جرى على مقتضى الظاهر لكان على النحو: "سيقدم قومه يوم القيامة وسيوردتهم النار"؛ لأن الحديث عن زمن مستقبل وهو يوم القيامة، ومجيء التحول إلى الماضي (فأوردتهم) فيه دلالة على القطع والتأكيد بوقوع الحدث وحصوله، وصُدِّرَ الفعل بحرف (الفاء) ليدل على سرعة الورود؛ لما في ذلك من التهديد والتخويف.

وهذا النوع من التحول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها، تحمل طابع الدهشة والمفاجأة، ففزع من في السموات والأرض حدث مفاجئ مترتب على النفخ في الصور، وكذلك ورود فرعون وقومه النار يعقب مشهد قدومه لهم إلى ساحة الحشر بذلة وصغار^(١). ويرد غالباً في مشاهد البعث والقيامة والحشر؛ لذا أضفى عليها الأسلوب القرآني زمن الماضي في حدوثها لتأكيد تحققها وحصولها^(٢).

ويرد التحول إلى الماضي للدلالة على أنه سابق للمضارع في التحقق والحصول، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف، ٤٧].

فقد جيء بـ (حشرناهم) ماضياً بعد (نسير) "للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك"^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل، ٨٩]. جاءت هذه الآية في سياق ذكر بعث الأنبياء والرسل شهداء على قومهم، وخصص خاتم الرسل ﷺ بمزيد عناية وتكريم بأن

(١) - انظر: الزمن واللغة، ٧٢.

(٢) - انظر: من أساليب التعبير القرآني، طالب الزوبعي، ١٥٣.

(٣) - انظر: الكشف، ٤٨٧/٢.

جعله الله **عَزَّوَجَلَّ** شهيداً على هذه الأمم كلها، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين ^(١)، ويدل على هذه العناية أيضاً تحول الخطاب للرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بعد الإخبار عن البعث بالغيبة "وجئنا بك"، والتحول المعجمي عن كلمة البعث إلى المجيء، وفي "إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه - **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**" ^(٢). وفيه التحول الذي نحن بصددده عن الفعل المضارع "نبعث" إلى الماضي "جئنا"، وفي كل ذلك "إشعار بأفضليته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على سائر المرسلين، وأفضلية شهادته في هذا اليوم على شهاداتهم، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهداً قبل بعث هؤلاء الرسل في أمهم شهداء" ^(٣).

لقد أفاد التحول إلى الماضي في هذا السياق أن الفعل الماضي سابق للمضارع في تحقيقه وحصوله، فقلوه: "وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" أي: وجئنا بك شهيداً قبل أن نبعث في كل أمة شهيداً عليهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة، ٢]، فنجد التحول عن الفعل المضارع الواقع جواباً للشرط "يكونوا ويسطوا" إلى الماضي "وودّوا".

(١)- انظر: تفسير أبي السعود، ١٣٥/٥، وروح المعاني، ٢١٣/١٤.

(٢)- تفسير أبي السعود، ١٣٥/٥.

(٣)- أسلوب الالتفات، ص ١٠٠.

ويعلل الزمخشري هذا التحول فيقول^(١): "والماضي وإن كان يجري في جواب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً، وردّكم كفاراً أسبق المضار عندهم؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه".

وقد بين الزمخشري في هذا السياق نكتة التحول، من زاوية النظر إلى عنصر الزمن، وذلك من كون الماضي أسبق في الحصول من المضارع، ونجد بالمقابل السكاكي (ت ٦٢٦هـ) وأبا السعود (ت ٩٥١هـ) وغيرهما يفسرون هذا التحول من زاوية النظر إلى الحدث، فالماضي يدل على تحقق الحدث وحصوله لا محالة، يقول السكاكي^(٢): "وترك يود إلى لفظ الماضي؛ إذ لم تكن تحتل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم -أي يثقفوهم- أعداء لهم، وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم".

ويفيد حرف الشرط (إن) الداخل على الفعل المضارع "يثقفوكم" الشك في وقوع الحدث، فظفر الكفار بالمسلمين ليس مؤكداً فهو متوقف على مدى تمسكهم بدينهم قوة وضعفاً، وهذا يختلف من حال إلى حال، في حين أن ودادة أعدائهم كفرهم أمر محقق وحاصل في كل حال، سواء قبل الظفر بهم أم بعده، فليس متعلقاً بالشرط

(١)- الكشف، ٩٠/٤.

(٢)- مفتاح العلوم، ٢٤٠.

ومترتباً عليه، فدل التحول إلى الماضي على تحققه في الحدوث وحصوله سابقاً للشرط والجواب، ولو جاء مضارعاً لأوهم تعلقه بالشرط، فيكون وُدُّ أعدائهم كفرهم أمراً حاصلًا بعد الظفر بهم لا غير، يقول أبو السعود^(١): "وودّوا لو تكفرون" أي: تمنوا ارتدادكم، وصيغة الماضي للإيذان بتحقيق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً".

ونجد أن الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَاكُفُّوا أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة، ١]. جاء التعبير فيها عما قد يصدر من المسلمين من ودٍ للكفار بصيغة الفعل المضارع "تلقون إليهم بالمودة"، و"تسرون إليهم بالمودة" وذلك في سياق نهي المؤمنين عن فعل ذلك، في حين ورد التعبير عما يوده الكفار للمؤمنين من ارتداد عن دينهم بالفعل الماضي "وودّوا لو تكفرون" وفي ذلك "إبراز للمفارقة أو البون الشاسع بين ما قد يصدر من المسلمين من مولاة هؤلاء، وما يضمرة الكفار لهم من ضغينة وحسد"^(٢). وذلك أن دلالة المضارع تفيد التجدد، في حين أن الماضي "وودّوا لو تكفرون" أفاد التحقق والرسوخ - كما أوضحنا سابقاً - فكأن السياق القرآني يخاطب المسلمين قائلاً لهم: إنه مهما تجددت هذه المودة من قبلكم واستمرت هؤلاء الكفار سرّاً أو علانية، فإنها لن تغير ما استقر في قلوبهم ونفوسهم من كراهيتكم ورغبتهم في ارتدادكم عن دينكم الذي تنعمون به دونهم.

(١) - تفسير أبي السعود، ٢٣٦/٨.

(٢) - انظر: أسلوب الالتفات، ص ١٠٠.

الصورة الثالثة: التحول عن الماضي إلى الأمر:

ويمثل الفعل الماضي في هذه الحالة (جملة خبرية) في حين يمثل فعل الأمر جملة (إنشائية طلبية)، "والتحول عن الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي يهدف إلى تحقيق أغراض بلاغية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم) والوظيفة الإفهامية (المتلقي) كدلالة الرضا بالواقع الصياغي حتى كأنه مطلوب تحقيقه في الواقع بالفعل"^(١).

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

حصل التحول في هذا السياق عن الماضي إلى الأمر (وأقيموا) "ولو جاء السياق على أسلوب واحد، لقال: (أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم)"^(٢).

وندرج سر هذا التحول من ارتباط هذه الآية بما قبلها، إذ هي رد على مقولة الكفار التي ذكرها المولى عز وجل بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وجاء الحديث عن الأمر بالقسط بأسلوب خبري، وإن كان متضمناً معنى الإنشاء (أمر ربي بالقسط) إذ معنى ذلك (أقسطوا) ولكنه جاء بأسلوب خبري ولم يأتِ أمراً مباشراً.

(١) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ١٣٢.

(٢) - الطراز: ١٣٧/٢.

فلم يقل: "قل أقسطوا وأقيموا" وذلك للدلالة على أمرين:

الأول: أن فعل الماضي في (أمر ربي بالقسط) يدل على تحقق ذلك الأمر وحصوله، فهو "مبدأ موغل في القدم، به قام ميزان السماوات والأرض، ولذلك أسند الفعل الماضي إلى الذات العلية (ربي)، ليعمق الإحساس بالقدم والتمايم، لأن الأمر صدر عن الذات الأزلية"^(١).

والثاني: أن القسط هو ما أمر الله به وشرَّعه، سواء التزموا به أم لم يلتزموا، فلا يغير ذلك من أمره شيئاً، فهو أمر أزلي استقام عليه أمر الكون والحياة، ولو قال: "أقسطوا" لكان الأمر موجهاً إليهم على وجه الخصوص، ولم يفد تحققه في الزمن الماضي واستمراره في الحاضر والمستقبل، فالفعل (أمر) فعل سلب منه الزمن، فهو دال على الأمر بالقسط مطلقاً، ثم تحول إلى الأمر (وأقيموا) للدلالة على أنه ما دام أمر الله بالقسط أمراً أزلياً كوناً وشرعاً، فحقكم أن تنفعلوا لأمره الكوني، ومراده الشرعي، فتحققوا معنى القسط في حياتكم بإقامة وجوهكم للصلاة له عند كل مسجد.

ومن دلالات هذا التحول الدلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله. من ذلك قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

(١) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٤.

نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت في الزمن الماضي، بقرائن لفظية: (ولقد علمتم، اعتدوا، فجعلناهم، فقلنا، فجعلنا)، فالزمن المسيطر على السياق هو زمن الماضي، ولكن السياق تحول عن الفعل الماضي إلى الأمر بقوله: "كونوا قردة"؛ لأن في الأمر "كونوا" شداً للانتباه بالتحول الحاصل في السياق؛ مما جعل الأمر مركزاً على بؤرة الحدث الهامة وهي تحول ذواتهم إلى قردة خاسئين، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله مستمداً ذلك من قدرة الأمر **عَزَّجَلَّ** - القائل للأشياء: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [يس: ٨٢]، وكأن المولى **عَزَّجَلَّ** قد أمر الحدث نفسه أن يكون فكان، فإذا بذواتهم قد انفعلت لهذا الأمر الإلهي على وجه السرعة فانمحت معالم البشرية والإنسانية منهم ليصبحوا مسخاً حقيقياً حاصلًا فيهم، ففي الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحقيقه لا تكون في الماضي في ما لو كان السياق على نحو "فجعلناهم قردة خاسئين"؛ لأن الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم، وصدور الأمر منه على وجه السرعة والقوة والجبروت.

وهذا السياق سياق تحول وتغيير، فكما حصل تحول في أشكالهم وذواتهم رافق ذلك تحول في التعبير عن ذلك الحدث، فوافق تحول المبنى تحول في المعنى.

وقد يرد التحول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث، كما في قوله تعالى: **﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾** [البقرة: ٢٤٣].

ينجر السياق عن حدث مضى، وكان يقتضي أن يكون "فأماتهم الله ثم أحياهم"، ولكنه تحول عن الماضي إلى الأمر "موتوا"، للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة

وقوة شملت جميع المخاطبين فلم يتخلف عنه أحد، وأن الموت قد تلبسهم جميعاً في لحظة واحدة، ولو قال: "فأماتهم" لما كان في الماضي دلالة على ذلك، ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) (١): "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم"، فإن قلت: ما معنى قوله: فقال لهم موتوا قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون".

ثم مثل الفعل الماضي "فأحياهم" تحولاً عن الأمر إلى الماضي، لدلالة توحى بأن القدرة الإلهية هي التي أحييت كما أماتت، إذ ليس بمقدور الأموات أن يكونوا أهلاً للخطاب وتوجيه الأمر إليهم فيما لو قال ثم (أحيوا) وفيه إشارة إلى مطل الزمن مع التراخي الذي يوحى به الحرف (ثم) مع فعل الإحياء، حتى يشاهد بعضهم بعضاً لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعاً على النفس وأثراً.

ويرد التحول عن الماضي الذي يمثل جملة خبرية إلى فعل الأمر الذي يمثل جملة إنشائية بقصد التفريق بين مضمونهما، منه قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْآنِعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

حقق التحول عن الماضي (أُحِلَّتْ) الذي هو جملة خبرية إلى الأمر (فاجتنبوا الرجس...) الذي يمثل جملة إنشائية طلبية دالة التفريق بين الخبر والإنشاء، فالخبر بصيغة الماضي في قوله تعالى: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام" يشير إلى تحقق حصول

(١) - الكشف، ١/ ٣٧٧-٣٧٨.

الحِلِّ وتلبسهم به منذ زمن، وفي ذلك مزيد فضل عليهم وامتنان، ثم استثنى مما أحله من الأنعام ما يتلى عليهم فأتى بصيغة المضارع، وحقّه أن يأتي بالماضي لمطابقة السياق فيكون "إلا ما تلي عليكم". فأفاد المضارع هنا الاحتراز؛ أي: ما يتلى عليكم من المحرمات في هذه الآيات وما سيعقبها من محرمات لاحقة لا ما قد ذكر في آيات سابقة فحسب، ثم تحول عن الإخبار إلى الإنشاء والطلب فقال: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان"، وفي التحول عن الإخبار إلى الإنشاء، وهما أسلوبان مختلفان من أساليب العربية إشارة إلى اختلاف مضمونها مبنى ومعنى، فالحلال يختلف تماماً عن الحرام وبينهما بون شاسع، لذلك حسن مجي الأمر بالاجتناب ليكون هذا التحول في الأسلوب لافتاً للنظر إلى الاختلاف بينهما، وأن الرجس من الأوثان وقول الزور لا يدخلان في الحلال.

ولو جاء السياق على نسق واحد من الإخبار، فقال: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام وحرّم عليكم الرجس من الأوثان وقول الزور"، لما كان فيه من الدلالة المذكورة في المفارقة ما في هذا التعبير.

وازداد الانفتاح الدلالي بإيجاد العلاقة السببية بين الأسلوبين، فكأن السياق القرآني يشير أيضاً إلى أن امتثال أوامر الله **عَزَّوَجَلَّ** هي سبب في حفظ ما أحله الله، وسبب في بقاء نعمته على العبد، فبينهما علاقة سببية من وجه والمفارقة من وجه آخر.

الصورة الرابعة: التحول عن المضارع إلى الأمر:

ويقع التحول عن المضارع إلى الأمر؛ للدلالة على اختلاف الفعلين، نحو قوله تعالى حكاية عن هود **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وقومه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]. فأتى بالفعل المضارع ابتداء فقال: "أشهد الله" ثم تحول عنه إلى فعل الأمر عند مخاطبة قومه فقال: (واشهدوا)، ولم يقل: "وأشهدكم" فخالف في المطابقة بين الأفعال،

فقد تضمن هذا السياق تحوُّلاً عن صيغة المضارع (أشهد الله) إلى صيغة الأمر (واشهدوا)، وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، فإشهاد الله إشهاد صحيح وثابت عن اعتقاد ويقين، وإشهاد إياهم ليس إشهاداً حقيقياً وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي لإرادتهم^(١)، لذا أتى به بصيغة الأمر (واشهدوا) ليشير إلى الهوة الكبيرة بين الطرفين: طرف أمر وحقه أن يطاع وهو (هود) **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وطرف آخر مأمور حقير الشأن وهم قوم هود.

ففي الأمر (اشهدوا) دلالة واضحة على البراءة التامة بين الطرفين وعلى التحدي القوي من قبل نبي الله هود لقومه، فأبرز هذا التحول "مواقف الطرفين المتباعدين عن طريق ذكر صيغة المضارع التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته ثم التحول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني وبطلان موقفهم الدليل"^(٢).

(١) - انظر: الكشف، ٢/ ٢٧٦.

(٢) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٦.

ويرى ابن المنير أنه (ت ٦٨٩هـ)^(١): "يحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما تحول إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر".

وقد يتحول عن المضارع إلى الأمر للدلالة على أن الفعل المضارع يراد به الأمر، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أتى بالفعل المضارع المؤكد (ولنبلونكم) ثم تحول عنه إلى فعل الأمر (وبشر الصابرين)، ولم يقل: (ولنبشرون الصابرين) حتى يكون السياق مطرداً على نسق المضارع المؤكد على نحو: (ولنبلونكم... ولنبشرون).

ويرى الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) أن قوله: (وبشر الصابرين) معطوف على (ولنبلونكم) من قبيل عطف المضمون على المضمون، "أي: الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة، لكن لمن صبر منكم"^(٢).

وهذا العطف بين الإنشاء والخبر هو ما عرف عند الزمخشري بعطف القصة على القصة، فالزمخشري لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو

(١) - حاشية ابن المنير على الكشف، ٢/ ٢٧٦، وانظر: المثل السائر، ٢/ ١٩٣.

(٢) - انظر: روح المعاني، ٢/ ٢٣.

مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ، وإنما تطلب المناسبة بين المعاني" (١).

"فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلي المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبراً وإنشاء على مضمون كلي مثله" (٢).

والذي يظهر أن قوله تعالى: "ولنبلونكم" فيه معنى إنشائي، هو طلب الصبر منهم على البلاء؛ لأن الإخبار بذلك مآله طلب الصبر على ذلك البلاء، فيكون (بشر) معطوفاً على (لنبلونكم) لما فيه معنى الطلب، "ولكنه تحول عن أن يقال: فاصبروا وأبشروا إلى ما عليه النظم؛ ليكون الخبر المؤكد في (لنبلونكم) مفجراً للرغبة والعزم على الصبر ومقابلة البلاء به" (٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آهِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

ففي هذه الآية تحول عن الفعل المضارع (أرجمنك) إلى الأمر (واهجرني) ولم يقل: (ولأهجرنك).

(١) - انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ٥٣٣.

(٢) - مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، ١٦.

(٣) - السابق، ٢٠.

وقد علل الزمخشري وغيره أن فعل الأمر (اهجري) "معطوف على محذوف يدل عليه لأرجنك؛ أي: فاحذرنى واهجرني؛ لأن لأرجنك تهديد وتقريع" (١).

فالفعل (لأرجنك) فيه تهديد ووعد بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام مضمونه إنشاء، يراد به تحذيره من سب آلهتهم المزعومة، وكأنه يقول: إذا لم تنته فاحذرنى.

الصورة الخامسة: التحول عن الأمر إلى الماضي:

منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

في هذا السياق القرآني تحولان: تحول عن الماضي (جعلنا) إلى الأمر (اتخذوا)، ثم إلى الماضي (عهدنا)، ففعل الأمر (اتخذوا) مثل تحولاً عن الأصل السياقي وهو الفعل الماضي (جعلنا)، ثم أصبح يمثل أصلاً سياقياً جديداً للفعل الماضي (عهدنا) فمثل الفعل (عهدنا) تحولاً عن الأمر إلى الماضي.

والتحول عن الماضي (جعلنا) إلى فعل الأمر (اتخذوا) فيه شد لانتباه المتلقي للنص القرآني، وذلك "لتقوية" روابط الاتصال بينه وبين النص؛ لأن السياق القصصي المروي ليس غريباً عنه، وإنما يحتوي على أمور تهمه وتتصل به، يجب الحرص عليها وإحيائها، لتكون مسيرته موصولة بتراث سابقه" (٢).

(١)- انظر: الكشف، ٥١١/٢، والمحرم الوجيز، ٣٤/١١، ونظم الدرر، ٢٠٦/١٢، وتفسير أبي

السعود، ٢٦٨/٥، ومسالك العطف بين الإنشاء والخبر، ٣٨.

(٢)- تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٧.

ويرى الزمخشري^(١) أن هناك فعلاً ماضياً محذوفاً تقديره: "قلنا" قبل فعل الأمر (اتخذوا)، أي: وقلنا اتخذوا، وذلك لاطراد الأفعال الماضية في السياق، ولتختفي المخالفة في الأفعال، والحقيقة أن الحذف نفسه على -رأي الزمخشري- قد أظهر فعل الأمر بارزاً في السياق لدلالة مرادة ينبغي التوقف عندها وفهمها، وهي -كما ذكرنا- مقصود منها شد انتباه المتلقي للعمل بهذا التوجيه الإلهي من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ثم استمر السياق في السرد الحكائي للأحداث الماضية بعد ذلك.

ويحسن التنويه في هذا السياق إلى قراءة نافع وابن عامر بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) بفتح الخاء، وعلى هذه القراءة ينتفي التحول، إذ يصبح السياق كله سياق سرد ماضٍ، وتمثل كل قراءة وجهاً من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فورود القراءة بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) تفيد الإخبار عن الأمم السابقة من المؤمنين أنهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

ويرى ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)^(٢): "أن الله أمر بذلك المسلمين من هذه الأمة مبتدئاً ففعلوا ما أمروا به فأثنى بذلك عليهم وأخبر به، وأنزله في العرصة الثانية". فتكون القراءة بالإخبار عن وقوع الفعل قد تنزلت بعد قراءة الأمر به، وترتبت عليها، فجمع نسق الآية هذين المعنيين بقراءته، أي: قال لهم المولى عزَّجَلَّ: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى فاتخذوه مصلى.

(١)- انظر: الكشف، ١/ ٣١٠.

(٢)- الحجة في القراءات السبع، ٨٧.

الصورة السادسة: التحول عن فعل الأمر إلى المضارع:

قد يأتي فعل الأمر ابتداءً ثم يُتحوّل عنه إلى الفعل المضارع؛ فيكون في المضارع مزيد حث على تنفيذ هذا الأمر، وذلك من خلال استحضاره مشهد الحدث، نحو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٧١-٧٢].

أي: أن المتوقع في السياق اللغوي وفق مطابقة الأزمنة في الأفعال أن تكون على نحو: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة ونتقيه؛ لأنه هو الذي إليه نحشر).

وبذلك تطرد الأفعال على نسق واحد وهو زمن المضارع، إلا أن السياق في بنيته قد أبرز فعل الأمر (أقيموا، واتقوه) ليجسم معنى الفرض، والوجوب عند ذكر الصلاة والتقوى، ثم تحول إلى المضارع (تحشرون) ليفيد الاستحضار الدائم لمشهد الحشر المستقبلي بأهواله الجسام، وجعله متجدداً دائماً أمام عين المتلقي، لكي يقبل بهمة على تنفيذ الأوامر السابقة وهي الإسلام، وإقامة الصلاة، والتقوى^(١).

وقد يرد التحول عن الأمر إلى المضارع؛ للدلالة على أن الأمر في معنى الخبر لا الطلب، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٥-٧٦].

(١) - انظر: السابق، ٣٢٩، والفتوحات الإلهية، ٤٧/٢.

إذ جاء السياق القرآني بفعل الأمر (فليمدد) ثم تحول عنه إلى المضارع (ويزيد) ولو جاء السياق على نسق واحد لكان (فليمدد له الرحمن مداً ... ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) ويكون في الفعلين حينئذ معنى الدعاء (فليمدد ويزيد)، لكن السياق خالف بينهما؛ للدلالة على أن فعل الطلب (فليمدد) يراد به الخبر لا الإنشاء.

يقول الزمخشري^(١): "(ويزيد) معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّاً أو يمد له الرحمن ويزيد" وعندئذ يصبح السياق مطرداً تقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مداً.. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

فيكون الطلب قد وضع موضع الخبر، أي: جيء بالطلب والمراد به الخبر، وإنما تحول به عن أسلوب الخبر إلى الإنشاء الطلبي؛ مبالغة في تأكيد ذلك وحصوله وكأنه أمر واجب تحقيقه ووقوعه^(٢).

(١) - الكشف، ٥٢٢/٢، وانظر: تحولات البنية، ١٣٢

(٢) - انظر: الكشف، ٥٢١/٢.

المبحث الثاني: التحول في الأسماء

يبرز التحول في الأسماء جلياً في المخالفة بين الضمائر، والتحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لا العكس، إذ التحول عن الاسم إلى الضمير بعد ذكر الاسم سابقاً هو ما يقتضيه الاستعمال اللغوي، وكذلك يرد التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالمخالفة بينها، وهذا النوع من التحول وجدناه واضحاً في سياق التعبير القرآني، على النحو الآتي:

أولاً: التحول في الضمائر

المقصود بالتحول في الضمائر: "هو التحول عن ضمير أصلي إلى ضمير آخر يغيّره في الحضور أو الغيبة ويشترك وإياه في العودة إلى مفسر واحد" (١).

وعرف هذا النوع من التحول عند علماء البلاغة قديماً بالالتفات (٢)، وهذا الضرب من التحول، ناتج عن الانتقال في استعمال الضمائر من حضور إلى غيبة أو

(١)- انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٦٩، حوليات الجامعة التونسية، ع ٣٢، تونس، ١٩٩١.

(٢)- انظر: في ذلك: ما ذكره الدكتور محمد بركات أبو علي عن (الالتفات) في كتابيه: دراسات في البلاغة، ١٢٥-١٦٤، والبلاغة العربية في ضوء منهج المتكامل، ص ٧١-٧٦. فقد استقرأ مواطن الالتفات في كتب الإعجاز وعلوم القرآن خاصة (بديع القرآن) و(البرهان) و(الإتقان)، ووجد أن أغلب هذه الآيات ترتبط بالنفس الإنسانية وخلقاتها وتعالج بناء العقيدة الدينية والدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، ووضع الأسس العامة التي يقوم عليها المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، ... والآيات المدنية التي وردت لا تخرج عن هذه التسمية، التي اتصفت بها الآيات المكية، إذ تغلب عليها أن تكون قصيرة

تكلم، وهكذا، وقد تناول علماء اللغة والبلاغة قديماً هذه الظاهرة بالتحليل والتفسير، فيرى ابن جني أن التحول في الضمائر يحقق وظيفة بلاغية ينبغي الوقوف على مغزاها واستكناه السر الذي يدعوا المتكلم إلى المخالفة بينهما والخروج بها عن مقتضى الظاهر، وانتقد ابن جني الرأي القائل إن هذا التحول ضرب من الاتساع في العربية، فيقول^(١): "وليس ينبغي، أن يُقْتَصَرَ في ذكر علة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أن يفعلوه، وهو قولهم: إن فيه ضرباً من الاتساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ، هذا ينبغي أن يقال: إذا عَرِيَ الموضع من غرض معتمد، وسر على مثله تنعقد اليد".

وقد بسط مذهبه في توجيه هذه الظاهرة في كتابه المحتسب^(٢)، ولا شك أن وراء تحويل الخطاب والتحول في الضمائر مغزى أكثر وجاهة من علة التوسع في اللغة، ورأي ابن جني وجيه في ذلك، وعلى نهجه درج الزمخشري وابن الأثير ومن جاء بعدهم من علماء البلاغة واللغة، فهذا ابن الأثير يردد فحوى كلام ابن جني فيقول^(٣): "اعلم أن عامة المتتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب

ذات وقع معين في الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت، [البلاغة

العربية في ضوء منهج متكامل، ٧٦، ودراسات في البلاغة، ١٥٨].

(١) - المحتسب، ١/ ٢٤٠، ت: محمد عبد القادر عطا.

(٢) - انظر: السابق، ١/ ٢٣٩-٢٤١.

(٣) - المثل السائر، ٢/ ١٨١-١٨٣.

كلامها، وهذا القول عكاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله، ... إن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضتها، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها؛ ليقاس عليها غيرها، فإننا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه -وهو ضد الأول- قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود".

ولأهمية هذا التحول فقد أولاه المفسرون والبلاغيون جهداً من التأمل وإمعان النظر، فجاؤوا بدقائق المعاني في ذلك، ولطائف التأويل، وهو ما سنعرض لبعض تحليلاتهم في هذا المبحث.

ويُظهر تتبع هذا التحول في السياق القرآني، أن صورته تتفاوت نماذجها من حيث الكثرة والقلة^(١)، فبينما تكثر نماذج التحول عن الغيبة إلى الخطاب، والتحول عن الغيبة إلى التكلم، تقل بالمقابل نماذج التحول عن الخطاب إلى الغيبة وعن التكلم إلى الغيبة، وأما التحول عن التكلم إلى الخطاب وعكسه فنادر الوقوع. وهذا التفاوت

(١)- ورد التحول عن الغيبة إلى الخطاب (٤١) مرة، وعن الغيبة إلى التكلم (٩٣) مرة، وعن الخطاب إلى الغيبة (٣٨) مرة، ومن التكلم إلى الغيبة (١١) مرة، (من دون اعتبار الاسم الظاهر غيبة)، ومن الخطاب إلى التكلم (٣)، ومن التكلم إلى الخطاب مرة واحدة، (من دون الآيات المتشابهة).

ربما يهديننا إلى ملحظ أسلوبى يحكم هذه الظاهرة القرآنية على عمومها، وهو أن حديث الخطاب والتكلم فيه شد لانتباه المتلقي إلى تأمل المعاني التي تتعلق بها مواضع التحول، والتفكير في الأغراض التي تنعقد عليها ترغيباً أو ترهيباً في مقامات الوعد أو الوعيد^(١).

وهو يشكل ست صور على النحو الآتي:

١. التحول من التكلم إلى الخطاب.
٢. التحول من التكلم إلى الغيبة.
٣. التحول من الخطاب إلى التكلم.
٤. التحول من الخطاب إلى الغيبة.
٥. التحول من الغيبة إلى التكلم.
٦. التحول من الغيبة إلى الخطاب.

الصورة الأولى: التحول من التكلم إلى الخطاب:

هذه الصورة يندر تحققها في لغة الكلام، لأنه لا يتصور أن يكون الشخص الواحد إلا على نحو من أنحاء التجوز-متكلماً ومخاطباً، أو مرسلأ ومستقبلاً في آن واحد^(٢).

(١)- التوجيه البلاغي للقراءات، أحمد السعد، ٣٢٣.

(٢)- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٨.

لذلك لم يرد إلا موضع واحد لهذا التحول في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. فقد جاء بضمير المتكلم ابتداء فقال: "وما لي لا أعبد الذي فطرني"، ثم تحول عن ذلك إلى ضمير المخاطب، فقال: "وإليه ترجعون"، ومقتضى السياق في المشاكلة بين الضمائر أن يكون على نحو "وإليه أرجع".

وإنما ترك "وإليه أرجع" إلى "وإليه ترجعون" ليفيد التلطف في توجيه قومه، وإعلامهم توحد مصيره مع مصائرهم، وتنبيههم إلى أنه مثلهم في وجوب عبادة من إليه المرجع والمآل^(١).

الصورة الثانية: التحول من التكلم إلى الغيبة:

ويرد هذا النوع من التحول لدلالات عديدة، من ذلك دلالة التفريق بين ما هو محسوس ومشاهد وما ليس بمحسوس، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٣].

إذ جاء السياق في معظمه بضمير التكلم (جعلنا في ... الأرض فيها ... وجعلنا السماء ...) ثم تحول إلى الغيبة فقال: (وهو الذي خلق ...) وقد صاحب هذا

(١) - انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣١٦.

التحول في الضمير تحول معجمي تمثل في إثثار الفعل (خلق) على الفعل (جعل) فما العلاقة بين هذا التحول المعجمي والتحول عن ضمير التكلم إلى الغيبة؟

وللإجابة عن ذلك يجب أن نعرف الفرق الدلالي بين الفعلين (جعل) و(خلق). يرى الراغب الأصفهاني^(١): أن الفعل (خلق) يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سابق له ولا نظير، بينما الفعل (جعل) يراد به التصيير والنقل من حالة إلى حالة، وعليه فإن مرحلة الخلق سابقة لمرحلة الجعل، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

وهذان الفعلان (جعل) و(خلق) كثيراً ما يردان في سياق ذكر مشاهد الكون وآياته وإبراز قدرة الخالق عَزَّجَلَّ، وبتأمل هذه السياقات القرآنية نجد أن هذه المشاهد والآيات إذا وردت مع الفعل (جعل) فإن الجانب المحسوس، أو الشكل المائل فيها يكون هو محل التأمل والاعتبار، أما عند ورودها مع الفعل (خلق) فليس هذا الجانب المحسوس محل العبرة، بل ما وراء تكوينه من لطيف الحكمة وخفي التدبير^(٢).

فمع الفعل (جعل) كان لفت الأنظار إلى المشاهد المحسوسة في الكون من شموخ الجبال وسعة الطرق، وارتفاع السماء، أما مع الفعل (خلق) فلم تكن المشاهد المحسوسة هي محل التأمل في خلق الليل والنهار من نور أو ظلمة، وإنما كان التركيز

(١) - انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ٩٤، ١٥٧.

(٢) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٣٩.

على غير المحسوس والمشاهد من شأن القدرة العجيبة التي يتعاقب بها الليل والنهار، وهنا يظهر تناسب المعنوي في التحول المعجمي في الأفعال مع التحول في الضمائر. فسر التحول عن ضمير المتكلم في الفعل (جعلنا) إلى ضمير الغيبة في (خلق) هو "ملاءمة طريق التكلم (وهو قرين الحضور والملاحظة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، وملاءمة طريق الغيبة، (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة"^(١).

ومن دلالات هذا التحول التفريق بين الوعيد والإخبار المحض نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦-٥٧].

نجد أن المولى عز وجل قد تحول في الحديث في هذا السياق عن ضمير المتكلم (فأعذبهم) إلى ضمير الغيبة (فيوفيههم)، ومقتضى السياق في مطابقة الضمائر أن يكون (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيههم أجورهم)، وقد حاول أبو حيان تعليل ذلك فقال ^(٢): "وفي الآية قبلها قال: (فأعذبهم) أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وذلك ليطابق قوله (فأحكم بينكم) [آية: ٥٥] وفي هذه الآية قال: (فيوفيههم)، بالياء على قراءة حفص ورويس، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة".

(١) - السابق، ١٤١.

(٢) - البحر المحيط، ٢/ ٤٧٥.

وما ذهب إليه أبو حيان في تعليقه غير واضح، فهو لم يشرح المقصود بتنوع الفصاحة، ولم يذكر لنا الدلالة التي اقتضاها التحول هنا، والذي يظهر أن السياق لما كان فيه إشارة إلى شدة التخويف والتهديد للكفار ناسب ذلك حديث المولى عن نفسه بضمير المتكلم؛ إمعاناً في التنكيل بهم والتفرغ لهم، فهو لا يريد الإخبار عن عذابهم فحسب، إنما يريد مع الإخبار الوعيد والتهديد، ثم تحول في الحديث عن جزاء المؤمنين إلى الغيبة على سبيل الإخبار فحسب، وليخالف بين الجزاءين في المبني والمعنى.

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على التعظيم والإجلال، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٧-١٩] إذا أسند الفعل (نقذف) إلى ضمير المتكلم ثم تحول عنه إلى ضمير الغيبة (وله) ولم يقل (ولنا)، وذلك أن قذف الحق على الباطل يحتاج إلى قوة لدمغ الباطل وإزهاقه يناسبه الحضور في إسناد الفعل للدلالة على قوة الفعل، ثم كان التحول إلى ضمير الغيبة في ذكر ملكه للسموات والأرض، فقال: (وله من في السموات والأرض) لما في التغييب من معنى التعظيم والإجلال.

الصورة الثالثة: التحول من الخطاب إلى التكلم:

وهذا النوع من التحول نادر وقوعه في القرآن الكريم، وقد سبقت الإشارة إلى سبب ذلك، ومنه قوله تعالى على لسان نبيه شعيب عَلَيْهِ السَّلَام مخاطباً قومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وقوله تعالى على لسان نبيه صالح مخاطباً

قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ففي الآيتين تحول عن الخطاب في قوله: (استغفروا ربكم ثم توبوا)، وقوله: (فاستغفروه ثم توبوا إليه) إلى التكلم في قوله (إن ربي) ومقتضى المطابقة في الضمائر أن ترد في السياق على نسق واحد من الخطاب فيكون (إن ربكم رحيم ودود) و(إن ربكم قريب مجيب)، لكنه تحول عن ذلك إلى ضمير المتكلم (إن ربي رحيم ودود) و(إن ربي قريب مجيب)، وهذا التحول يشير إلى "عظمة ذي الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه سبحانه بتلك الصفات، ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل: (إن ربكم رحيم ودود)، و(إن ربكم قريب مجيب)" (١).

الصورة الرابعة: التحول من الخطاب إلى الغيبة:

يكون التحول عن الخطاب إلى الغيبة "لتحقيق مزية ما كان استئناف الخطاب في حالة الحضور، أي استمراره بضمير المخاطب ليحققها" (٢).

نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

(١) - علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، بسيوني، فيود، ٢٣٥ / ١.

(٢) - جهاليات الالتفات، عز الدين إسماعيل، ضمن "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، أبحاث ندوة نادي

جدة الأدبي، ١٩٨٨، ٨٩٧.

وَضُنُّوْا أَنَّهُمْ أَحْيَطَ بِهِمْ دَعْوَا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢].

إذ جاء الكلام في مستهل هذه الآية موجهاً إلى المخاطبين الحاضرين (حتى إذا كنتم في الفلك) ثم تحول عن الخطاب فجأة إلى الغيبة "لهم - فرحوا - جاءهم - وظنوا - أنهم - لهم - دعوا"، ولو اطرده نسق الخطاب لجاء على النحو الآتي: (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءكم الموج من كل مكان، وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتكم الله..)، لكن الخطاب لم يطرده على هذا النحو بل ما لبث أن تحول عن حالة الخطاب إلى حالة الغيبة، وقد يراد بالتحول إلى الغيبة في هذا السياق التغييب الحسي أو التغييب المعنوي، فأما التغييب الحسي فيظهر من أنهم عندما ركبوا الفلك وجرين بهم أصبحوا غائبين لا مخاطبين.

وأما التغييب المعنوي فيظهر من أنهم عند ركوبهم الفلك استحضروا الله وطلبوا معونته فاستحضرهم في الخطاب، فلما اطمأنوا إلى الريح الطيبة وجريان الفلك بهم؛ غيبوا الله من أنفسهم فغيبهم إذ لم يعودوا أهلاً للخطاب، وهو ما يتناغم مع دلالة الآية السابقة لهذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرِفٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلِّ إِلَيْنَا رَاغِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢-٩٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٢-٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣].

نجد إقبال الله عليهم بالخطاب عندما كانوا أمة واحدة، فلما تقطع الأمر بينهم وتشتت كيانهم واختلفوا، غابوا عن مشهد الحق، وغاب عنهم المنهج القويم، فانصرف الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ولم يعودوا أهلاً للخطاب فغيبهم^(١).

وقد حاول الرازي أن يستخلص لهذا النوع من التحول ومقابله -وهو التحول عن الغيبة إلى الخطاب- دلالة عامة تكاد تحكم في نظره حركة التعبير بهما إذ قرر "أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدل على مزيد التقرب والإكرام، وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة فإنه يدل على المقت والتباعد"^(٢).

وليس الأمر كما ذكر، لأن دلالة التحول عن الخطاب إلى الغيبة -كغيره من صور التحول- تختلف باختلاف سياقه ومقامه، ولا تقتصر فقط على ما حاول الرازي تقريره، بل إن الموضع الواحد قد تتنوع أغراضه وتتعدد مقاصده باختلاف نظر المتلقين إليه^(٣).

فكما أن التحول عن الخطاب إلى الغيبة قد يدل في سياقات معينة على المقت والتباعد -كما هو الحال في آيتي يونس والأنبياء وغيرهما، فإنه قد يدل في سياقات

(١)- انظر: علم المعاني دراسة بلاغية نقدية، بسيوني فيود، ٢٣٦/١.

(٢)- التفسير الكبير، ٧٢/١٧.

(٣)- انظر: التوجه البلاغي للقراءات، ٣٣١.

أخرى على دلالات جديدة يوحي بها السياق، من ذلك دلالته على الثناء والمدح، كما قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] "كأنه قال لملائكته وخواص خلقه فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون" (١).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿ [الزخرف: ٧٠-٧١].

فقد خاطبهم بقوله: (ادخلوا الجنة) وفي هذا الخطاب تشريف للمخاطبين وتكريم لهم، وفيه إعلام لهم ولغيرهم أن دخولهم الجنة كان بإذنه ومحض فضله ورحمته، ثم تحول عن الخطاب إلى الغيبة مخبراً عن عظيم جزائهم وثوابهم في الجنة، فقال: (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب).

وفي الإخبار إشعار بتلبسهم بالنعيم وتقلبهم فيه، فكانه حاصل وهو يخبر عنه، ولو استمر السياق على نسق الخطاب، فقال: (يطاف عليكم بصحاف من ذهب...) لأفاد ذلك أنهم لحظة الخطاب وُعدوا وبُشِّروا بالنعيم ولما يتلبسوا به بعد، ثم في التحول إلى الغيبة أيضاً إشعار بالتعظيم فكأن المولى عَزَّوَجَلَّ يذكر حالهم لغيرهم من ملائكته وسائر خلقه مبيناً ما هم فيه من النعيم على سبيل التفخيم والتعظيم، متضمناً ذلك الدعوة إلى التأسي بهم.

(١) - الكشف، ٣/ ٢٢٤.

وقد يرد ذلك؛ ليدل على العموم فيكون في الغيبة معنى العموم نحو قوله تعالى:
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *
هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

لقد توجه الخطاب بداية إلى المؤمنين الذين خاضوا مع النبي ﷺ غزوة
أحد؛ تسلية لنفوسهم مما حل بهم من جروح وقروح، ثم نبههم إلى أن ما حصل لهم
هو ضمن سنن الله في الكون، وهذه السنن في النصر والهزيمة ليست خاصة بهم وإنما
هي لعموم الناس، فمن أخذ بها حقق مقومات النصر، ومن تخلف عنها مني
بالهزيمة؛ لذا ناسب أن ينتقل السياق الكريم من خطاب المؤمنين إلى عموم الناس
أجمعين، ومن جملتهم المؤمنون، وذلك بأسلوب الغيبة ليندرج فيه كل إنسان ذي
عقل يتبين به سنن الله الثابتة في البشر وطرائقه المحكمة في الهزائم والظفر حين قال:
(هذا بيان للناس) (١).

ويرد هذا التحول للدلالة "على التشهير والنداء حتى كأن المتكلم بهذا الالتفات يخيل
أنه يحكي هذا الأمر الهام ويرويه لكل عاقل ليستنكره ويستقبحه" (٢) نحو قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠].

(١) - النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٥٢.

(٢) - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٣٧٢.

فقد جاء الخطاب موجهاً للناس (يا أيها الناس -كلوا- لا تتبعوا- إنه لكم- يأمركم- تقولوا)، ثم تحول عن الخطاب إلى الغيبة (وإذا قيل لهم). فقلوه (لهم) "الضمير للناس وتحول بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للداء على ضلالتهم؛ لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون" (١).

ويكثر هذا النوع من التحول في مخاطبة الله أعداء الإسلام "والتعبير يجري فيه الأصل على أسلوب الخطاب، إذ يخاطب الله أعداء الإسلام خطاباً مباشراً، فيه أحياناً تنبيه لفظاعة جرائمهم وإبطال لترهاتهم، ودعوة إلى التوبة والغفران، وفيه أحياناً أخرى توبيخ وتقريع وتهديد بسوء المصير، وفي كل هذه الحالات يكتسي الخطاب لهجة شديدة صريحة تتناسب والمقام، وفجأة تتحول المواجهة الشديدة إلى تحقير وإذلال وإهانة، وذلك بالإعراض عن مخاطبة الأعداء وبالحدّث عنهم بطريق الغيبة وإبعادهم عن مقام الحضور؛ إذ هم ليسوا بأهل للخطاب" (٢).

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٣-٦٥] فبدأ السياق القرآني بالخطاب على سبيل التهديد والوعيد للكفار وهم على شفير النار، ثم تحول إلى الإخبار عنهم بضمير الغيبة؛ إهانة لهم وتشهيراً بفضيحتهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وحكاية حالهم لغيرهم بقصد الاعتبار.

(١)- الكشف، ١/ ٣٢٨.

(٢)- انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهشري، ١٦٠.

الصورة الخامسة: التحول من الغيبة إلى التكلم:

جرى التحول من الغيبة إلى التكلم في سياقات مختلفة، منها بيانه تعالى لقدرته على الصنع البديع وتعداده لآيات فضله على عباده، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢].

لقد أخبر المولى عزَّجَلَّ عن نفسه في مطلع هذا السياق القرآني بضمير الغيبة، فقال: (ثم استوى)، فقال: (فقضاهن.. وأوحى) ثم تحول من الغيبة إلى ضمير المتكلم، فقال: (وزينا) وما دام السياق سياق إخبار عن قدرة الله عزَّجَلَّ في الخلق والإبداع، فَلَمْ غاير بين الضمائر في الحديث نفسه، فأخبر عن نفسه بضمير الغيبة في سياق ذكره خلق السماوات والأرض ثم تحول إلى ضمير التكلم عن نفسه عند ذكر تزيين السماء الدنيا بالنجوم؟

يرى ابن الأثير^(١): "أن الفائدة من ذلك أن طائفة من الناس غير المشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليس حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى هنا تحول به خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه".

(١) - المثل السائر، ٢/ ١٨٦.

وهذا التعليل لابن الأثير ناتج عن ملحظ اعتقادي، فناسب ذلك - في نظره - التحول إلى ضمير المتكلم؛ لأنه أكثر دلالة على التأكيد والإقناع من ضمير الغيبة.

ويرى باحث معاصر^(١) تعليلاً آخر لهذا التحول يلمس فيه دلالة معنوية تسري على كثير من سياقات القرآن المشابهة لهذا السياق القرآني، محاولاً بذلك تعليل التحول عن الغيبة إلى التكلم والعكس، فهو يرى - كما سبقت الإشارة في مبحث التحول عن التكلم إلى الغيبة - أن هذه المغايرة بين المتكلم والغيبة والعكس؛ تمثل المفارقة بين المحسوس وغير المحسوس، والمشاهد وغير المشاهد، فيرى أن الأفعال في هذا السياق القرآني كلها مسندة إلى الخالق عزَّ وجلَّ غير أن "الأفعال السابقة على فعل الزينة (استوى - قال - أوحى ...) هي أفعال غيبية حدثت في الأزل البعيد، ولا سبيل إلى الإقرار بنسبتها إليه سبحانه إلا صدور الإخبار عنها منه تبارك وتعالى - أما فعل الزينة فإنه بآثاره المشاهدة وعجائبه المرئية في صفحة السماء ماثل للحس، جلي للعيان لا يماري في نسبته إلى الخالق عزَّ وجلَّ إلا مكابر لجوج"^(٢).

فيكون هذا السياق القرآني قد استدل بالمحسوس المشاهد من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ على إثبات نسبة ما ليس محسوساً وغير مشاهد إلى الله عزَّ وجلَّ وذلك من قبيل قياس الغائب على الحاضر، والخفي المستور على المشاهد المحسوس.

وقد اطردها هذا التعليل في فهم سياقات قرآنية مشابهة لهذا السياق نحو قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

(١) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ١٤٣.

(٢) - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٣.

مَوْتَهَا كَذَلِكَ التَّشْوُرُ ﴿٩﴾ [فاطر: ٩]. فقد أسند فعل الإرسال إلى ضمير الغيبة، ثم تحول عن ذلك إلى ضمير المتكلم عند إسناد فعلي السوق والإحياء، وذكر الزمخشري أن سبب هذا التحول (١): "إنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه".

ويرى محمد أبو موسى أن سبب ذلك هو إحداث اليقظة "عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى؛ لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة؛ فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينتقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة ...، ثم يقول: "فالالتفات هنا يشير إلى أن الله سبحانه يسوق السحاب بذاته العلية، ويقسمه رحمة ورزقاً بيديه، ولا يدع لذلك لأحد من خلقه" (٢).

وما ذهب إليه الزمخشري وأبو موسى لا يعدو وأن يكون تعليلاً يحتاج إلى تعليل، فكما أن سوق السحب وإحياء الأرض مما اختص به الخالق عزَّجَلَّ في الخلق، فكذلك إرسال الرياح وإثارة السحب، فما الذي خص الفعلين الأخيرين في السياق دون الأول، وكما أن سوق السحب وإحياء الأرض ضرب من قسمة الأرزاق؛ فكذلك الحال في إثارة السحب، فلماذا هذا الاختصاص بالإسناد إلى ضمير المتكلم؟

لعل تعليل ذلك راجع -والله اعلم- إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن في هذه المغايرة بين الضمائر من الغيبة إلى التكلم؛ دلالة على التفريق بين ما هو محسوس وغير

(١) -الكشاف، ٣/ ٣٠٢.

(٢) -خصائص التراكيب، ١٩٩.

محسوس من الأحداث والظواهر، ففعل إرسال الرياح وإثارة السحب غير مشاهد ولا محسوس، وإنما المشاهد والمحسوس هو فعل سوق السحب وإحياء الأرض الموات مزدانة بالخررة والجمال^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩]، ففي الآية تحول عن ضمير الغيبة في (أرسل الرياح) إلى ضمير التكلم في (أنزلنا)؛ والسبب -والله اعلم- أن الجانب المحسوس في نعمة إنزال الماء هو محل التأمل والنظر، ويؤكد ذلك وصف الماء بكونه (طهوراً)، ومعلوم أن طهارة الماء هي صفة محسوسة فيه^(٢).

لكننا نجد آيات آخر ورد فيها فعل إنزال الماء مسنداً إلى ضمير الغيبة على غير ما تقرر في هذا السياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

ولعل ذلك راجع إلى كون الماء النازل من السماء منه ما هو مشاهد محسوس لحظة نزوله فناسبه إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم (أنزلنا) للدلالة على المشاهدة والحضور، ومنه ما تسرب في باطن الأرض، وسلكه الخالق فيها يتابع؛ فهو سبب خفي مستور

(١)- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٥.

(٢)- انظر: السابق، ١٤٦.

يعد الأرض بالخضرة والحياة، فناسبه إسناد الفعل فيه إلى ضمير الغيبة (أنزل)، وهذا يلمح إلى تنوع أغراض التحول وتعدد مقاصده باختلاف النظر إليه^(١).

ونجد أن السياق - في هذه الآيات - يشير إلى عظمة المولى **عَزَّجَلَّ** وقدرته في الإيجاد والخلق، فناسب ذلك مجيء التعبير بضمير المتكلم الجمع، الدال على التعظيم بعد التحول عن ضمير الغيبة، وسبق هذا التعبير في أكثر هذه الآيات في جمل فعلية ماضية، تدل على القدرة المطلقة نحو: "زينا-سقنا- أحيينا- أنزلنا- أخرجنا- أنشرنا- أنبتنا".

ويرد هذا التحول في مقام الوعد "بغرض الاهتمام بالمتلقين وزيادة الاعتناء بهم، وذلك بتشريفهم بالتكلم وما يصحبه من الدلالة على وفرة الحب وجزالة الجزاء"^(٢) نحو قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾** **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنسَى﴾** [آل عمران: ١٩٤-١٩٥].

فالتحول في هذه الآية عن ضمير الغيبة (فاستجاب لهم ربهم) إلى ضمير التكلم والخطاب في آن واحد "فيه إظهار لكمال الاعتقاد بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب، والمراد تأكيدها ببيان سببها، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء"^(٣).

(١)- انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٧.

(٢)- انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ٣٢٩.

(٣)- تفسير أبي السعود، ١/ ٦٣١-٦٣٢.

ويرد أيضا في سياق آخر وهو سياق الوعيد؛ ليلقي في نفوس متلقيه -علاوة على معنى التعظيم والتفخيم -إحساساً بالتهديد والترهيب، والتخويف من سوء العاقبة^(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠]. إذ تحول عن الغيبة في قوله (هو) إلى ضمير المتكلم في قوله (سنلقي) وهذا التحول "مشعر بعظم ما يلقي إذ أسند إلى المتكلم بنون العظمة"^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى للملائكة المنزلين في بدر مدداً للمؤمنين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

كان مقتضى سياق النظم في الآية من غير تحول أن يكون (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنه معهم ...)، ولكنه تحول عنه إلى أسلوب التكلم اعتناء بشأن المعية ومراعاة للمعنى الدقيق للوحي، إذ يقتضي معنى الوحي قرب الموحى من الموحى إليه، وشعور الموحى إليه بذلك القرب، وذلك يزيد الملائكة قوة إلى قوتهم، فقد كلمهم مولاهم وخالقهم، وخاطبهم خطاب المعنى بهم، وصرح بمعية النصر والتأييد لهم، وذلك كله يحقق الغاية من إنزالهم ويتممها^(٣).

(١) - انظر: التوجيه البلاغي للقراءات، ٣٣٠.

(٢) - انظر: البحر المحيط، ٧٧/٣.

(٣) - النظم القرآني في آيات الجهاد، ناصر الحنين، ١٦٣، (بتصرف).

وقال في هذا السياق (سألقي) بضمير المتكلم المفرد، خلافاً للسياق السابق في سورة آل عمران حيث قال: (سنلقي) بنون الجمع للتعظيم، والسر في ذلك -والله أعلم- أنه لو قال في هذا السياق (سنلقي) لتطرق الاحتمال إلى أن للملائكة المخاطبين يداً في ذلك، وأنهم مشاركون لله **عَزَّوَجَلَّ** في فعل الإلقاء بحكم توجيه خطاب المولى لهم بضرب الأعناق، والأمر ليس كذلك، فهم خلق من خلق الله لا يملكون من أمر ذلك السر الإلهي شيئاً، وإن كانوا طرفاً من أسبابه^(١).

الصورة السادسة: التحول من الغيبة إلى الخطاب:

"الانتقال من الغيبة إلى الخطاب هو ارتقاء بأسلوب الكلام إلى المباشرة والمصارحة؛ لإفادة التهديد أو العتاب أو التشريف"^(٢) والسياق هو الذي يحدد الدلالة المقصودة من ذلك.

فمن السياقات القرآنية التي أفاد التحول فيها إلى الخطاب دلالة التهديد والوعيد ما كان خطاباً للكافرين، نحو قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾** [مريم: ٨٨-٨٩]. "وإنما قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر، بعد قوله: (وقالوا)، وهو خطاب للغائب، لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه، وتنبية لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه، منكرأ عليهم، وموبخاً لهم"^(٣).

(١)- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٢٨٢.

(٢)- الالتفات في القرآن، الشاذلي، ١٦٢.

(٣)- المثل السائر، ٢/ ١٨٥.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]. لما أخبر عن شنيع أفعالهم عند البيت المحرم من صغير وتصفيق، ناسب الإخبار الحديث عنهم بضمير الغيبة على سبيل الإخبار والحكاية، ثم تحول إلى مخاطبتهم بالعذاب بقوله تعالى: (فذوقوا العذاب) لما في ذلك من مواجهة المتلقين بالتوبيخ والتقريع والدلالة على شدة غضب الله عليهم، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ونلاحظ أن ورود هذا النوع من التحول في سياق التهديد والتقريع قد جاء مدعماً بالأسلوب الإنشائي تارة وبالجمل الخبرية المؤكدة تارة أخرى. فالمثال السابق من سورة مريم جاء التحول فيه إلى الخطاب جملة خبرية مؤكدة ب (لقد)، وفي الموضعين الآخرين ورد التحول إلى الخطاب في أسلوب إنشائي، تمثل في أحدهما بالأمر في قوله (فذوقوا)، وفي الآخر بالاستفهام (هل تجزون)، وناسب مجيء الإنشاء غالباً في التحول إلى الخطاب؛ لكون الإنشاء طلباً، والطلب يقتضي الحضور.

وكما أفاد التحول إلى الخطاب في هذه المواضع التهديد والتوبيخ فإنه بالمقابل قد يدل في مواضع أخرى على الشريف والتكريم وذلك في سياق خطاب المولى عز وجل للمؤمنين، منه قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

إذ بدأ السياق الحديث عنهم بضمير الغيبة واصفاً النعيم الذي هم فيه، والإخبار بالوصف يناسبه الغيبة، والسياق يوحي بالتفخيم والتعظيم لما هم فيه من النعيم، ثم

تحول من الغيبة إلى خطابهم قائلاً: "إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً" لما في الخطاب من التشريف والتكريم؛ ولأن النعيم نوعان: مادي حسي، ومعنوي نفسي، ولا يكتمل النعيم الحسي إلا باتصاله بالنعيم المعنوي، فكان من كمال تلذذهم بالنعيم تشريفهم بالخطاب من المنعم الكريم.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَبَلَّغَ الْآيَاتِ نَدَاوَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ففي قوله: (ويتخذ منكم شهداء) تحول إلى الخطاب للدلالة على تخصيص المؤمنين بالشهادة وتشريفهم بها.

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على استحضر المخاطب وكمال القرب منه، ويكون هذا في خصوصية خطاب الله عز وجل، وهو ما يظهر بوضوح في سورة الفاتحة التي خاض جمهور المفسرين والبلاغيين في تعليل سر التحول فيها عن الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

إذا جرى السياق في معظمه على الغيبة قال: (رب العالمين، الرحمن الرحيم..)، فذكر الاسم الظاهر وهو من قبل الغيبة^(١)، ثم تحول من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (إياك نعبد)، وقد تعددت الآراء في الحديث عن سبب هذا التحول، والذي تراح له النفس ويتذوقه الحس أن في التغيب نوعاً من التعظيم والإجلال - كما سبق ذكره - فكان الحديث عن المولى عز وجل بالغيبة أنه (رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم

(١) - انظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ٤٦٢/١، والبحر المحيط، ٢٤/١.

الدين) وكلها صفات كمال تستوجب التعظيم له ثم التحول إلى الخطاب عند ذكر العبودية فقال: (إياك نعبد) وذلك لاستحضار كمال قرب المولى **عَزَّجَلَّ** من عبده، حتى كأن العبد يرى مولاه ويخاطبه، وتلك أعلى مراتب العبودية وهي الإحسان.

وقد يتحول من الغيبة إلى الخطاب لدلالات أخرى غير ما ذكر يتسع لها السياق القرآني بحسب المقام والحال، فمن تلك الدلالات دلالة التلطف في الخطاب ورفع الحرج كما في قوله تعالى: **﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾** [آل عمران: ٢٨]. يقول السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)^(١): وفي قوله: "(إلا أن تتقوا) التفات من غيبة إلى خطاب، ولو جرى على سنن الكلام الأول لجاء بالكلام غيبة، وأبدوا للالتفات هنا معنى حسناً، وذلك أن مولاة الكفار لما كانت مستقبحة لم يواجه عباده بخطاب النهي، بل جاء به في كلام أسند الفعل المنهي عنه لغيب، ولما كانت المجاملة في الظاهر والمحاسنة جائزة لعذر وهو اتقاء شرهم حسن الإقبال إليهم وخطابهم برفع الحرج عنهم في ذلك".

ومن تلك الدلالات أيضاً الدلالة على اللوم والعتاب. نحو قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾** [عبس: ١-٣]. وقد أبعد الزمخشري النجعة في تعليقه هذا التحول إذ قال^(٢): "وفي الإخبار عما فرط منه ثم

(١) - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ١٠٩/٣.

(٢) - الكشف ٢١٨/٤.

الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كما يشكو إلى الناس جانباً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة".

وما كان ينبغي للزنجشري أن يقول هذا الكلام في حق رسول الله ﷺ إذ شبهه بالجاني الذي يخاطب بجنايته على سبيل زيادة الإنكار عليه والتوبيخ، وإنما السياق سياق معاتبة ولطف، فانظر كيف غيب نبيه ﷺ عندما وصف عبوسه وتولييه، فقال: (عبس وتولى) فلم يواجهه بقوله: (عبست وتوليت) تحننا بقلب نبيه من أن يخاطب بذلك الوصف، وإنما أخبر عما وقع فحسب، ثم التفت إليه بالخطاب فقصد بذلك المصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق، فقال له: (وما يدريك لعله يزكى) ولو استمر السياق على الغيبة فقال: (وما يدريه لعله يزكى) لأوهم ذلك التغييب المستمر اللوم الشديد لنبيه ﷺ، فتحنن في تغييبه وتلطف في خطابه.

ثانياً: التحول من الضمير إلى الاسم الظاهر:

يمثل مجيء الضمير الوارد في السياق أصلاً سياقياً يقتضي مبدأ المشكلة والمطابقة أن يطرد السياق عليه، لكن المتلقي يفاجأ أحياناً بالتحول المباشر من الضمير إلى الاسم الظاهر، الذي يحل محل الضمير في عودته على مفسر واحد، فما السر الدلالي في إحلال الاسم محل الضمير مع أن الأصل في مجيء الضمير أن يحل محل الاسم؛ لكون الضمائر تمثل اختصاراً وإيجازاً في التعبير^(١) يستغنى بذكرها عن إعادة ذكر الاسم؟

(١) - انظر: الضمائر في اللغة العربية، محمد عبد الله جبر، ص ١٠٣.

ولمعرفة سبب هذا التحول في سياقاته المختلفة ينبغي أن ندرك أولاً الفرق الدلالي بين الاسم والضمير، وهو أن الاسم والضمير كليهما يحمل دلالة إشارية على الشيء الذي يشار إليه، فهما يشتركان في هذا المفهوم العام، ويتميز الاسم على الضمير بأن إشاريته أكثر بروزاً من الضمير ووضوحاً منه، وذلك "لأن الاسم الظاهر له طبيعة دلالية خاصة ناتجة عن احتفاظه بانعكاسات دلالية من الشيء الذي يشير إليه"^(١).

"فإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه، هذه الإشارة تحضره في النفس، إلا أن قدراً كبيراً من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظاً به، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه؛ لأن الإشارة تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته الدلالية المختلفة جد الاختلاف، التي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف"^(٢)، وترد هذه الدلالات على النحو الآتي:

أ- إنزال الأمر المعنوي منزلة المحسوس في ظهوره وبروزه:

وتبرز هذه الدلالة حين يوضع اسم الإشارة موضع الضمير، لأن اسم الإشارة "بأصل وضعه اللغوي يشير إلى شيء محسوس خارجي، والضمير يعود إلى مرجع معنوي أو محسوس، وقد تعتمد الصياغة إلى إبراز دلالة التجسيم والتشخيص في الأشياء المعنوية لا عن طريق المجاز والتخييل، ولكن بواسطة التشكيل اللغوي، عن

(١)- تحولات البنية ٨٢.

(٢)- خصائص التراكيب ١٩٢-١٩٣.

طريق التبادل بين الضمير واسم الإشارة، واستغلال ثنائية الحضور والغياب في دلالة كل منهما" (١) وهذا وارد في البيان العربي، من ذلك قول عبد الله بن الدمينه (٢):

قَفِي قَبْلَ وَشِكِ الْبَيْنِ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ وَلَا تَحْرِمِينِي نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكَ
تَعَالَيْتِ كَيَ أَشْجَى وَمَا بِكَ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفَرْتَ بِذَلِكَ

"فكان مقتضى الظاهر أن يقول: قد ظفرت به؛ لأنه ليس بمحسوس، فتحول إلى (ذلك) إشارة إلى أن قتله قد ظهر ظهور المحسوس" (٣).

ومن ذلك في التنزيل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِنْ ظَنْنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنْنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].

فقد كان الأصل الإتيان بالضمير، فيكون في الآية الأولى (هي عقبي ...) وفي الآية الثانية (هو ظنكم الذي ظننتم ...) لكنه "عبر باسم الإشارة: (تلك) و(ذلكم) في موضع الضمير للدلالة على كمال النعيم وتام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور

(١) - تحولات البنية ٨٤.

(٢) - حاشية الدسوقي، شروح التلخيص ١/٤٥٦، وانظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ١/١٥٩، ورقم الشاهد (٢٧)، (ولم أجده في ديوان ابن الدمينه بتحقيق أحمد راتب النفاخ).

(٣) - شرح السعد على التلخيص ضمن شروح التلخيص ١/٤٥٦.

والبيان حتى صار مدركاً بالحواس، وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس^(١).

ب. الدلالة على العموم:

كما في قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دون عذر. ونجد أن التعبير القرآني قد تحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) وكان مقتضى السياق أن يكون (فإن الله لا يرضى عنهم) وذلك لأن الآية قد بدأت بالتعبير عن هؤلاء المنافقين بضمير الغيبة في قوله (يخلفون- لترضوا عنهم- فإن ترضوا عنهم...) وهو تحول يدل على أن عدم رضا الله عَزَّجَلَّ عن هؤلاء المنافقين ليس لذواتهم وأشخاصهم، فيكون خاصاً بهم، وإنما لكونهم فاسقين، فهو لا يرضى عن الفاسقين عموماً في أي زمان كانوا وفي أي مكان، فالحكم متعلق بالوصف لا بالذات، فبإمكان هذه الذوات أن تنخلع من هذا الوصف المشين فتدخل في رضوان الله - عَزَّجَلَّ - إذا رجعت إليه وتابت. ولو قال: (فإن الله لا يرضى عنهم) لكان قد أوصد باب التوبة أمامهم مطلقاً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. "فإنه لم يقل: (إننا لا نضيع أجرهم) وإنما تحول إلى الاسم الظاهر فأفاد فائدتين: إحداهما: أن هذا الصنف هو من المصلحين. والأخرى:

(١)- علم المعاني دراسة بلاغية، بسيوني فيود ١/ ٢٢٦.

أن الأجر لا يختص بهؤلاء الصنف من الناس، وإنما يشمل كل المصلحين فدخل فيه هؤلاء وغيرهم من المصلحين^(١).

فأفاد التحول من الضمير إلى الاسم الظاهر في هذا السياق العموم، ولو أتى بالضمير لكان الأجر مخصوصاً بهؤلاء دون غيرهم.

جـ. إبراز الوصف الذي يفصح عنه الاسم ولا يظهره الضمير:

منه قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادُواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجَبُواْ أَن جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٣-٤].

إذ أتى بالاسم الظاهر في قوله: (وقال الكافرون) ولم يقل: (وقالوا)؛ لما في الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف، فالذي دعاهم إلى تكذيب الرسول هو كفرهم وعنادهم، فقد بلغوا من الكفر مبلغاً كبيراً حتى قالوا هذا القول^(٢) ولو مضى السياق القرآني على نسقه فكان (وقالوا هذا ساحر كذاب...) لما كان في ذلك من وصفهم بالكفر والإنكار عليهم ما في الاسم الظاهر من الدلالة على ذلك.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

تحدث الآية على لسان الرسول ﷺ وهو يخاطب الناس: "إني رسول الله إليكم" ثم تحول إلى الاسم الظاهر عند دعوتهم إلى الإيمان فقال (فآمنوا بالله

(١) - الجملة العربية والمعنى ١٩٢.

(٢) - انظر: الكشف ٣/ ٣٦٠.

ورسوله) ولم يقل: "فآمنوا بالله وبى"؛ وذلك لدالتين: "إحدهما دفع التهمة عن نفسه بالعصية لها- فهو لا يدعوا الناس ليؤمنوا به لذاته وإنما لكونه رسولاً مبلغاً عن الله عزَّجَل - وثانيهما: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص"^(١).

د. رفع الحرج النفسي عن المخاطب بتغييبه بدلاً من مخاطبته:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٠].

بدأ السياق القرآني بالخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: (أحللنا لك) ثم تحول عن ذلك إلى الاسم الظاهر النبي، بقوله: (إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي) ثم تحول مرة أخرى عن الاسم الظاهر إلى الخطاب فقال: (خالصة لك). ولم يجر السياق على نمط واحد من الضمائر فيكون (إنما أحللنا لك أزواجك... وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها خالصة لك...)?

(١)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٣١٧.

والذي يبدو لي أن التحول إلى الاسم الظاهر في هذا السياق فيه دلالة نفسية، وهي رفع الحرج عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ لأن هذه الخصوصية فيها حرج لنفس الرسول أن يكون هذا خاصاً له دون المسلمين، بل هي أشد من خصوصيته بما زاد عن الأربع زوجات، لأنه زواج بمقابل وهو المهر خلافاً لزواج الهبة الذي هو دون مقابل، فالتحرج منه أشد، لذا ترفق المولى **عَزَّجَلَّ** إذ لم يخاطبه بهذا الحكم مباشرة، فغيبه في الخطاب إذ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة فقال: (وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) فجعل اختصاصه بهذا الأمر بمقتضى مقام النبوة فهو مقام له خصوصيته فلا يكون في صدره أدنى حرج من ذلك ^(١). وأكد بذلك بقوله: (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ).

هـ - الدلالة على التفخيم والتعظيم:

وذلك في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾** [النساء: ٦٤].

وجه المولى - **عَزَّجَلَّ** - الخطاب لرسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فقال: "جَأُوكَ" ثم تحول عن ذلك إلى الاسم الظاهر فقال: "وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ" ولم يقل: "واستغفرت لهم"، فتحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر "تفخيماً بشأن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهها على شفاعته من اسمه الرسول من الله بـمكان" ^(٢).

(١) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٣٧.

(٢) - الكشف، ١/ ٥٣٨.

و- الحث على فعل المأمور:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢].

نجد التحول عن ضمير المتكلم (إنا أعطيناك) إلى الاسم الظاهر (فصل لربك) ولم يقل (فصل لنا) وذلك "لأن في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به؛ فمن يرييك يستحق العبادة، وفيه إزالة الاحتمال أيضاً، لأن قوله: "إنا أعطيناك الكوثر" ليس صريحاً في إفادة الإعطاء من الله، وأيضاً كلمة (إنا) تحتل الجمع كما تحتل الواحد المعظم نفسه، فلما التفت بقوله: (فصل لربك) زال هذان الاحتمالان" (١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. فقال: "ظن المؤمنون"، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم... "مطابقة لسابقه في قوله: "سمعتموه" وذلك "ليصرح بلفظ الإيذان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن" (٢).

ويرى ابن المنير أيضاً أن "السر في هذا التعبير هو تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك" (٣).

ز- الدلالة على القوة والمهابة:

(١)- حاشية الدسوقي على شرح السعد، ضمن شروح التلخيص، ١/ ٤٦٨.

(٢)- الكشف، ٥٣/ ٣.

(٣)- حاشية الكشف، ٥٣/ ٣.

ويبرز ذلك في التحول عن الضمير إلى الاسم الظاهر الذي هو لفظ الجلالة (الله) تارة و(الرب) تارة أخرى. "والتحول عن الضمير إلى الاسم الصريح (الله) راجع إلى ما في اسمه تعالى من قوة الدلالة، وفي إظهاره بعد الضمير إلقاء للروعة والمهابة في القلوب، باعتباره المعبود الخلق بالعبادة"^(١).

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فلم يقل: (ولنعلم الذين آمنوا) حتى يتفق مع قوله (نداولها) "فتحول عن ضمير العظمة إلى أسلوب الغيبة بإظهار اسمه الكريم الأعظم، وإسناد العلم إليه وحده في هذا المقام؛ تربية للمهابة في قلوب عباده وإماعةً إلى أن الذي داول الأيام هو العظيم الواحد لحكمة يريدتها"^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. فالمتوقع أن يرد السياق: "لا تقنطوا من رحمتي" لكنه تحول إلى الاسم الظاهر "إبرازاً للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة"^(٣).

ومما ورد فيه التحول إلى الاسم الظاهر (الرب) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣-٦].

(١) - الالتفات في القرآن، الهيشري، ١٦٤.

(٢) - النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٥٧.

(٣) - علم المعاني، دراسة بلاغية، ٢٣٤.

إذ تحول من ضمير المتكلم في قوله: "إنا أنزلناه ... إنا كنا ... من عندنا" إلى الاسم الظاهر في قوله: (رحمة من ربك) "والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على الربوبين"^(١).

وقد استعمل هذا اللفظ في التحول من ضمير المتكلم إلى الغيبة مضافاً إلى ضمير الخطاب العائد على الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** "تعظيماً لشأنه إذ هو مربوب لله، أي مملوك له فهو في رعايته"^(٢). نحو قوله تعالى: **﴿وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾** **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾** [الحجر: ٢٣-٢٥].

"فالانتقال من تعبيره تعالى بضمير المتكلم إلى الاسم الصريح هو ضرب من التحول اعتمده القرآن لقوة الدلالة المستفادة من اسميه تعالى: الله-الرب"^(٣).

ثالثاً: التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة:

يرد اسم الإشارة ويقصد به "تميز المسند إليه أكمل تميز؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالتها يفيد تحديد المراد منه تحديداً ظاهراً وتمييزه تمييزاً تاماً، لذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع متميزاً تمام التميز، وذلك عندما يكون معنياً بالحكم الذي يريد إضافته إليه ويرغب في إبرازه وزيادة تأكيده"^(٤).

(١)- الكشف، ٥٠١/٣.

(٢)- الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٦٤.

(٣)- السابق، ١٦٥.

(٤)- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، ١٠٧/١.

ولسنا معنيين في هذا المبحث بتتبع دلالات اسم الإشارة، في السياقات القرآنية بقدر ما نحن معنيون بتفسير ظاهرة التحول في استعمال هذه الأسماء، لمعرفة سر المخالفة بينها في السياق نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣١-٣٢].

فقد أشارت النسوة إلى يوسف باسم الإشارة القريب (هذا) في قولهن: "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم" في حين عدلت امرأة العزيز عن اسم الإشارة القريب إلى الإشارة بالبعد (ذلك) في قولها: (فذلكن الذي لمتني فيه)، ولم تقل: (فهذا الذي لمتني فيه). فتطابق إشارتها إشارة النسوة في الصيغة والأداء، وقد تناول البلاغيون دلالة اسم الإشارة بالبعد في قول امرأة العزيز في هذا السياق، ولكنهم تناولوه تناولاً مفرداً دون الإشارة إلى دلالتها مقترناً مع اسم الإشارة قبله، فلم يسيروا إلى دلالة التحول في هذا السياق.

ويظهر لنا سبب هذا التحول من معرفة الفرق الدلالي بين الإشارتين، فإشارة النسوة إلى يوسف إشارة قرب، توحى بالقرب والوضوح "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك"، فكانت إشارتهن إلى ما ظهر لهن من حسن يوسف وجماله، وكانت إشارة امرأة العزيز إلى ما هو أبعد من ذلك من حسن خلقه ونبل سيرته، فكانت أكثر تعظيماً له منهن وإكباراً.

ونجد الإشارية في هذين الاسمين تحمل دلالة التفضيل، كما نفاضل بين أكبر وكبير، فإذا كان (هذا) اسم إشارة جاء في سياق التعظيم والإكبار (أكبرنه.. قطعن.. قلن.. ما هذا.. إن هذا) وكأن إشارتهن تعني: هو كبير، فإن دلالة اسم الإشارة

ذلكن) أفادت التفضيل على التفضيل، وكأن امرأة العزيز تقول: هو أكبر مما تصورتن، وأكبر مما ظهر لكن من جمال مظهره، وهو جمال مخبره وجوهره.

فجاءت الإشارة الواردة من امرأة العزيز إليه أدق دلالة، وأعمق نظراً، إذ قالت: (فذلكن) على سبيل التعظيم والإكبار ليوسف. ودلت المخالفة بين الإشارتين (هذا-فذلكن) على التكامل في صفة الكمال لدى يوسف من ائتلاف حسن الجوهر وجمال المظهر، وسمو الخلقة والخلق.

ويبرز التحول في الأسماء الموصولة في المخالفة بينها في الاستعمال. من ذلك التحول عن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

لم يجر السياق على نمط واحد فيكون (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب الذي يبيتون).

ولكي ندرك سر هذا التحول يجب أن ندرك أولاً الفرق الدلالي في الاستعمال بين (الذي) و(ما)^(١).

ويفرق ابن القيم (ت ٧٥١هـ) بينهما فيرى أن الفرق بينهما: "أن (ما) اسم مبهم في غاية الإبهام حتى إنها تقع على كل شيء، وتقع على ما ليس بشيء، ألا تراك تقول:

(١) - ذكر فاضل السامرائي فروقاً عديدة بين (الذي) و(ما)، انظر: معاني النحو، ١/ ١٣٧-١٣٨.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُن...، وتفارق (الذي) أيضاً في امتناعها عن التثنية والجمع؛ وذلك أيضاً لفرط إبهامها^(١).

فأرجع ابن القيم الفرق الأساس بين (ما) و(الذي) إلى قضية الإبهام، ومع أن (ما) و(الذي) يشتركان في الإبهام وذلك لأن الأسماء الموصولة كلها من المبهات إلا أنها تتفاوت في الإبهام، فـ (ما) أشد إبهاماً من (الذي) بل هي في غاية الإبهام كما ذكر ابن القيم.

ويقول في تحليل (ما) تحليلاً صوتياً مدلاً بذلك على فرط إبهامها "فهي لا تخلو من الإبهام أبداً، ولذلك كان في لفظها ألف آخرة؛ لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم مشكلة لاتساع معناها في الأجناس؛ فإذا أوقعوها على نوع بعينه وخصوا به من يعقل وقصروها عليه، أبدلوا الألف نوناً ساكنة فذهب امتداد الصوت، فصار قصر اللفظ موازناً لقصر المعنى"^(٢).

ويفهم من تحليله هذا أن بناء (ما) يوافق استعمالها المتسع، فإن مدة الألف المتسعة في آخرها، تشاكل الاتساع في معناها، وأمّا (من) فهي مقيدة بالسكون، لذا كان استعمالها مقيداً بالعقلاء^(٣). وأن (من) أصلها (ما) وهو الذي أيدته الدراسات الحديثة فيرى برجشتراسر^(٤): "أن (من) و(ما) أصلهما واحد يعني: "ما" وألحقت بها النون، وهي

(١) - بدائع الفوائد، ١ / ١٣١.

(٢) - بدائع الفوائد، ١ / ١٣١.

(٣) - انظر: معاني النحو، ١ / ١٣١.

(٤) - التطور النحوي، ٨٦.

من العناصر الإشارية أيضاً، وإن لم توجد في اللغة العربية بين أسماء الإشارة، فتدل (ما) على الأشخاص إذا وقعت مع هذا الحرف اللاحق، وعلى الأشياء إذا وقعت بدونه".

وتتفاوت الأسماء الموصولة (الذي) و(من) و(ما) في التعريف، "فأعرف هذه الأسماء ما كان مختصاً ثم ما كان مشتركاً، ف (الذي) أخص من (ما) و(من) فإنه مختص بالمفرد والمذكر، وكُل من (ما) و(من) اسم موصول مشترك في المفرد والمثنى والجمع والتذكير والتأنيث. ومعنى (أخص) أي أنه أكثر تحديداً ووضوحاً من ذينك، فهو على هذا أعرف منهما، لتحديد معناه ووضوحه" (١).

ثم يليه في الاختصاص (من) فهو أخص من (ما) كما أشار ابن القيم، وبناءً على ذلك يمكننا أن ندرك سبب التحول في الآية السابقة التي نحن بصدددها وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]. إذ قال ابتداءً "غير الذي" ثم تحول عن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) فقال: (والله يكتب ما يبيتون). وذلك "لأن أن أحد الموضعين أعرف من الآخر فالذي يقوله أعرف مما يبيتون؛ لأن الأول معلوم عند المخاطب متفق عليه، بخلاف ما يبيتون فإنه مجهول عنده، إذ هو لا يدري ماذا يبيتون، فجاء للأخص المعلوم بـ (الذي) والآخر بـ (ما)" (٢).

(١) - معاني النحو، ١/ ١٣٨.

(٢) - معاني النحو، ١/ ١٣٩.

ويرد التحول على العكس مما سبق فيتحول عن (الذي) إلى (ما) كما في قوله تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣].

فأتى بـ (ما) في قوله: "ما وصى به نوحاً"، ثم تحول إلى (الذي)، فقال: "والذي أوحينا إليك"، ولم يقل: (وما أوحينا إليك) مع أن كليهما اسم موصول، ثم عاد فقال: "وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى".

والسبب أن (الذي) أخص وأعرف من (ما)؛ لأن (ما) مشترك يشترك فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع، والعاقل وغير العاقل، فجاء بـ (الذي) في الأعراف؛ لأننا نعرف شريعتنا، وعرفنا حدودها ودقائقها، فجاء بالأعراف، بينما لا نعرف على وجه التحديد والتفصيل ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى لا سيما أن كتبهم قد حُرِّفَتْ^(١).

(١) - من حديث للدكتور فاضل السامرائي في حلقة تلفزيونية من الشارقة.

المبحث الثالث

التحول من الاسم إلى الفعل وبالعكس

نجد في التعبير القرآني كثرة مجيء التحول من الاسم إلى الفعل والعكس، ويقتضي حسن المشاكلة والمطابقة في السياق اللغوي أن يعطف الفعل على الفعل والاسم على الاسم، والتحول بالمخالفة بين الاسم والفعل له بعد دلالي يدرك من معرفة الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، وقد تقرر عند علماء اللغة والبلاغة أن "الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر"^(١).

وسبب ذلك أن الفعل مقيد بالزمن، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بزمن الحال أو الاستقبال في الغالب، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة، فهو أشمل وأعم وأثبت^(٢).

وهذا ما قرره شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) بقوله^(٣): "فموضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث

(١) - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٦٦/٤.

(٢) - انظر: معاني الأنبية في العربية، فاضل السامرائي، ٩.

(٣) - دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق شاكر، ١٧٤.

منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمرو قصير"، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجههما وتشبههما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تعترض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويُزجّيه، وإن شئت أن تُحسَّ الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمل هذا البيت:

لا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا لكن يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: لكن يمر عليها وهو ينطلق، لم يحسن.

وقد استشهد الجرجاني على هذه القاعدة بقول الشاعر النضر بن جُوَيَّة^(١):

قَالَتْ طَرِيفَةُ مَا تَبْقَى دَرَاهِمُنَا وَمَا بَنَّا سَرَفَ فِيهَا وَلَا خَرَقُ
إِنَّا إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا دَرَاهِمُنَا ظَلَّتْ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرَاتِ تَسْتَبِقُ
لا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا^(٢) لكن يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ

لقد مدح الشاعر قومه بالكرم والعطاء وأن صرتهم لا تألف الدرهم، فلا يستقر فيها، وإنما يمر عليها منطلقاً في وجوه الخير والإنفاق، وهذا المقام يلائمه مجيء

(١) - انظر: معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، ٣٠/٢.

(٢) - هكذا "خرقتنا" في دلائل الإعجاز، تحقيق شاكر، ١٧٤، والمذكور في معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وفي شروح التلخيص، "صُرتنا"، انظر: شروح التلخيص، ٣٠/٢.

الاسم "منطلق"؛ لأنه يفيد أن "انطلاق الدراهم من الصُرَّة أمر ثابت دائم لا يتجدد، وأن الدراهم ليس لها استقرار ما في الصُرَّة" ^(١).

"ولو أتى به فعلاً فقال: "وهو ينطلق" لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمنًا ما" ^(٢). فكان مجيء الاسم أبلغ في الدلالة على المدح والثناء.

وهذا الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، يهديننا إلى معرفة سر التحول عن الاسم إلى الفعل أو العكس في السياق القرآني، فهو تحول يقتضيه سياق الحال ويكشف عن دلالات بلاغية مقصودة، لا كما ذهب إليه بعض النحاة من تأويل الفعل بمعنى الاسم أو العكس؛ حتى يصح عطف أحدهما على الآخر.

يقول الرضي (ت ٦٨٦هـ) في شرح الكافية: "ومنها أنه يُعطف الفعل على الاسم والعكس، إذا كان في الاسم معنى الفعل، قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

على قراءة عاصم، أي: فلق الإصباح، وكذا قوله تعالى: ﴿صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. أي: يصففن ويقبضن.

قال الشاعر ^(١):

(١) - حاشية الدسوقي، ضمن شروح التلخيص، ٣٠ / ٢.

(٢) - علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية، ١٦٦ / ١.

"بَاتَ يُعْشِيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ يَقْصِدُ فِي أَسْوُقِهَا وَجَائِرٍ

أي: ويجور" (٢).

وتأويل الاسم بمعنى الفعل ليصح العطف بينهما تكلف واضح دعا إليه الاهتمام بالشكل على حساب المضمون والدلالة، ولو كان الأمر كما ذكر لما كان للمخالفة بين الاسم والفعل في هذا السياق معنى يذكر.

وفحوى هذا القول إنه يسوي في الدلالة بين ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: "صافات ويقبضن" وما هو مفترض وقوعه وهو "يصففن ويقبضن" والحكيم لا يغير في كلامه وأسلوبه إلا لدلالة مقصودة، فهو قول لا يقف على أسرار البيان ودقائق المعاني في التعبير لمعرفة الفروق بينها.

وقد أشرنا إلى أن الفرق الدلالي بين الاسم والفعل يرجع إلى ما ذكره البلاغيون من دلالة الاسم على الثبوت، والفعل على التجدد والحدوث، غير أن هذه الدلالة تظل دلالة عامة تتوالد منها دلالات فرعية خاصة، يحددها السياق الخاص الواردة فيه، فيكشف التحول لنا في الحالة هذه عن دلالات تبرز مظهراً من مظاهر الإعجاز القرآني، ويرد بكثرة في السياقات القرآنية في صور عدة على النحو الآتي:

(١) - الشاهد: رجز مجهول القائل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد الثلاثمائة في الخزانة، واستشهد به على أن: "جائر" معطوف على "يقصد" لكونه بمعنى الفعل، أي: يقصد ويجور، انظر: خزنة الأدب، ١٣٩/٥.

(٢) - شرح الكافية، الرضي، ٣/ ٨٦-٨٧، ت: عبد العال مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠١.

أولاً: التحول من اسم الفاعل إلى الفعل والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [المك: ١٩].

فقد ورد في هذه الآية اسم الفاعل "صافات"، وكان مقتضى السياق بموجب المشاكلة في التعبير أن يماثل بينهما فيكون "صافات وقابضات"، لكن السياق خرج عن المتوقع لدى المتلقي؛ فتحول من الاسم إلى الفعل؛ ليولد دلالة جديدة لا يفي بها الاسم لو استمر السياق على نسقه العام دون مخالفة التعبير، فقال: "صافات ويقبضن".

وهنا يوظف التعبير القرآني الفرق الدلالي بين الاسم والفعل أحسن توظيف؛ ليوافق به المقال مقتضى الحال، فيفصل التركيب المقالي في دلالاته الأسلوبية وفق واقع الطير الملموس والمشاهد في الحياة، وذلك أن: "الأصل في الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجاء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنها صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح"^(١).
فما هو أصل ثابت -وهو صف أجنحتها في الهواء- عبر عنه بالاسم للدلالة على الثبوت والاستمرار^(٢)، وما هو حادث طارئ غير مستمر -وهو قبضها أجنحتها- عبر عنه بالفعل لدلالته على الحدوث والتجدد.

(١)- الكشف، ١٣٨/٤.

(٢)- وحيشا ورد في القرآن ذكر الطيور ووصف بسط أجنحتها أي به اسماً، من ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١].

وهذه الدقة المحكمة في التعبير القرآني تجلي لنا قول المولى عزَّجَلَّ في وصف كتابه الكريم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦]. إذ جاء التعبير عن الموت بالاسم مؤكداً بلام التوكيد (ميتون)، في حين عبر عن البعث يوم القيامة بالفعل المضارع (تبعثون)، وكان مقتضى الظاهر أن يجيء العكس؛ لأن وقوع الموت أمر لا يحتاج إلى تأكيد، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وإنما وقع الشك لدى الكفار والمشركين في قضية البعث لا الموت، وسبب ذلك أنه "بولغ في تأكيد الموت؛ تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه، ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه؛ فكأنه أكد جملته ثلاث مرات^(١) لهذا المعنى؛ لأن الإنسان في الدنيا يسعى فيها غاية السعي حتى كأنه مخلص، ولم تؤكد جملة البعث إلا بـ (إن)؛ لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً..."^(٢).

وفيه دلالة أخرى، وهي أن "الموت هو سكون أو جمود تلائمه صيغة الثبوت، والبعث حركة وحياة تلائمها صيغة الحدوث والتجدد"^(٣). وفي مجيء المضارع في ذكر البعث "تبعثون" استحضار لمشهد البعث وكأنه ماثل للعيان، فهو أعمق أثراً في النفوس وأكد في الوقوع.

(١) - أي: بـ (إن) واللام، وإيراد الخبر بصيغة الاسم (ميتون) دون صيغة الفعل (تموتون).

(٢) - البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٨٨.

(٣) - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٨٠.

وكما ورد التحول في السياقين السابقين عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فإنه يرد أيضاً إلى الفعل الماضي؛ للدلالة على المفارقة بين ما هو أصل بخلقته وما هو طارئ في الخلق والإيجاد، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَالْقُلُوبُ الْإِصْبَاحُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

إذ عبر عن فلق الإصباح باسم الفاعل فقال: (فالقُ الإصباح) في حين تحول من الاسم إلى الفعل في التعبير عن الليل فقال: "وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا". ومجيء الاسم هنا يوحي بالقدرة العجيبة على فلق الإصباح، وإخراجه من بين ظلمات الكون الحالكة، في حين دل التحول إلى الفعل في (وجعل الليل سكناً) على أن الليل أصل في الخلقة والإيجاد قبل فلق الإصباح، وذلك لدلالة الفعل الماضي على حصول ذلك وتحقيقه في الزمن الماضي البعيد، والتقدير: وجعل الليل سكناً من قبل فلق الإصباح، "فالإصباح طارئ، وأما الليل فهو سكن دائم تنغمر فيه الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع جوانبها كأنه لباس للأرض"^(١)، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠].

وهذا ما كشف عنه العلم الحديث الآن، فقد "أفاد جميع رواد الفضاء منذ عام ١٩٦١، أنهم عندما اخترقوا الغلاف الجوي للأرض وجدوا أن القشرة الجوية الكروية المنيرة من هذا الخلاف والتي تواجه الشمس أثناء النهار لا يتعدى سمكها ٢٠٠ كيلو متراً فوق سطح الأرض، وبعد هذا الارتفاع تظلم السماء تماماً رغم وجود الشمس التي لا يتشتت ضوءها في الفضاء الكوني؛ لعدم وجود الذرات والجسيمات الكافية اللازمة لحدوث التشتت، كما تظهر النجوم مع قرص الشمس في

(١) - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي، ٢٠٣.

السماء الحالكة الظلام، "وتبدو الأرض قرصاً منيراً يسبح وسط ظلام حالك" (١). وهو ما أشار إليه القرآن أيضاً في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ أي: أن النهار ينسلخ من الليل الدائم في الفضاء كما ينسلخ جلد الشاة من جسدها، ولهذا فالليل هو الأصل بينما النهار طارئ (٢). فيكون هذا التحول قد كشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي (٣) في القرآن الكريم.

وقد يرد التحول على العكس مما سبق، إذ يتحول التعبير القرآني من الفعل المضارع إلى اسم الفاعل ليؤدي بذلك دلالات متعددة، منها الدلالة على المفارقة الحسية بين ما هو متجدد في خلقاته وما هو ثابت في طبعه، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥]. "فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج)، واستعمل الاسم مع الميت، فقال: (مخرج)؛ وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد؛ ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات، فقال: "ومخرج الميت من الحي" (٤).

(١) - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ٢٠٣.

(٢) - المصدر السابق، ٢٠٦.

(٣) - انظر هذه الحقيقة العلمية في الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ٢٠٢-٢٠٨، وأسرار الكون في

القرآن، داود سلمان السعدي، ١٣٧، والمنظار الهندسي للقرآن، خالد العبيدي، ٧٩٣

(٤) - التعبير القرآني، ٢٣.

وأما مجيء التعبير في سورة آل عمران بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فسياق آل عمران يتحدث عن التغير والتبدل والتجدد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

إذ نلاحظ أن السياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغير والحركة، أما السياق في سورة الأنعام فليس في التبديل والتغيير^(١)، وإنما هو في الدلالة على قدرة الله وتفضله على الخلق قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤَفَّكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

ويرد هذا التحول أيضاً للدلالة على المفارقة بين ما هو موقوت ودائم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، "فقد جاء في صدر الآية بالفعل: "ليعذبهم" وجاء بعده الاسم "معذبهم"، وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب، بخلاف بقاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، فإنه -أي: العذاب- موقوت ببقائه بينهم، فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية"^(٢).

(١)- انظر: التعبير القرآني، ٢٣.

(٢)- السابق، ٢٦.

ومن اللافت للنظر أنه عبر عن استغفارهم بالفعل "يستغفرون" ولم يقل: (وهم مستغفرون) ليشير بذلك إلى سعة رحمته **عَزَّجَلَّ** لأنه منع عنهم العذاب منعاً باتاً يقيناً بأي استغفار يحدث منهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، في حين أنه لا يهلكهم إلا بتحقيق حصول الظلم وثبوته وصفاً مستقراً فيهم، فقال **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. فقال: (ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) للدلالة التي ذكرناها^(١).

وقد يدل هذا النوع من التحول أيضاً على حقيقة علمية تبرز جانباً من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ [الفصل: ٦١]. إذ استعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا) ثم تحول عنه إلى الاسم مع النهار، فقال: (مبصراً)، ولم يجر السياق على نسق واحد فيكون (والنهار لتبصروا فيه).

وعلى الزمخشري ذلك فقال^(٢): "لأنه لو قيل: "لتبصروا فيه" فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: "ليل ساج وساكن لا ربح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز".

ومراد الزمخشري هنا أن العلة من التحول إلى الاسم (مبصراً) هو إضفاء نوع من الجمال الفني بمجيء المجاز العقلي، ولو قال: "لتبصروا فيه"، فإن هذه الناحية

(١) - انظر: السابق، ٢٦.

(٢) - الكشف، ٤٣٤/٣.

الجمالية تذهب لتصبح دالة على الحقيقة، وأن مجيء الفعل مع وصف الليل (لتسكنوا فيه) هو على الحقيقة، فيكون قد جمع بين الحقيقة والمجاز في تعبير واحد، ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية^(١).

وليس الأمر كذلك، فالمزية الفنية ليست مقصورة على المجاز فحسب، بل قد تكون الحقيقة أحياناً أبغ من المجاز، والسياق هو الذي يحدد ذلك، والذي يظهر أن المولى عزَّجَلَّ قال: "لتسكنوا فيه" ولم يقل مثلاً: "ساكناً"؛ لأنه يريد أن يمتن على عباده بنعمته وفضله بأن جعلهم هم الساكنون فيه، لا أن الليل نفسه ساكناً، لذلك جاء بقوله (لكم) في قوله: "الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه". ثم قال: "والنهار مبصراً" فأسند الإبصار للنهار؛ للمحين دلالتين هما:

الأول: ملمح معنوي، يراد به بيان أن النهار نفسه مبصر، يبصر أعمالنا، ويكون شاهداً علينا بالخير والشر، وخص النهار بالإشهاد على الأعمال؛ لكونه محلاً لحركة المكلفين، لذلك يقول المولى عزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

والثاني: ملمح حسي يكشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إذ كان المعتقد قديماً لدى علماء الإبصار "أن الإبصار يحدث نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على الجسم فتتم رؤيته"^(٢). وقد ثبت علمياً خطأ هذا

(١) - انظر: التعبير القرآني، ٢٧.

(٢) - موسوعة الإشارات العلمية في القرآن والسنة، عبد الباسط الجمل، ٨٦.

الاعتقاد بعد تقدم الدراسات التشرحية للعين، وأثبتت هذه الدراسات أن حدوث الإبصار يكون "نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على الجسم، ثم ينعكس ليسقط على العين مرة أخرى، وعملية الانعكاس تتم للون واحد "طول موجي واحد" من ألوان الطيف السبعة المكونة لشعاع الشمس المرئي، ومن ثم فوجود شعاع الشمس أساسي لحدوث عملية الإبصار، فلا يمكن حدوث الإبصار في الظلام لعدم وجود الأطوال الموجية للأشعة المرئية، التي يمكن للأجسام امتصاص بعضها وعكس الآخر؛ لترى به عند سقوطه على شبكية العين" (١).

لذا "فالتعبير بكون النهار مبصراً في قوله تعالى: "والنهار مبصراً" إنما المراد به الأشعة المرئية المضئية للنهار، والتعبير باسم الفاعل "مبصر" يفيد بأن النهار هو مصدر تلك الأشعة" (٢).

ثانياً: التحول من الفعل إلى اسم المفعول:

منه قوله تعالى عن نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨-١٩].

لقد عبر المولى عزَّوجلَّ عن حال الجبال في التسبيح بالفعل المضارع "يسبحن"، وتحول من ذلك إلى الاسم في ذكر الطير، فقال: "والطير محشورة"، ولم يجر السياق

(١) - المصدر السابق، ٨٦.

(٢) - المصدر السابق، ٨٧.

على نسق واحد فيكون (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ... والطير يحشرن)، فيسوي بينهما في الفعلية.

يرى الزمخشري أنه اختير الفعل (يسبحن) على (مسبحات) للدلالة على "حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح" (١)، ثم تحول في وصف الطير إلى الاسم، فقال: "والطير محشورة" وذلك أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً، ولو قيل: "وسخرنا الطير يحشرن، على أن الطير يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله عزَّجَلَّ لكان خلفاً؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة" (٢).

فيكون هذا التحول دالاً على المغايرة بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه "فالتسبيح يقع من المخلوقات شيئاً فشيئاً، أما الحشر فيقع من الله جملة واحدة بأمر واحد، إذ يقول للشيء كن فيكون، وكذلك يدل على اجتماع الطير لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ في وقت واحد ساعة تسبيحه، لا أنها تحضر في أوان التسبيح شيئاً فشيئاً، بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه" (٣)، ولو قال: "والطير يحشرن"، لدل ذلك على حدوث الحشر شيئاً بعد شيء واستغراقه فترة من الزمن.

(١) - الكشف، ٣/ ٣٦٤.

(٢) - المصدر السابق، ٣/ ٣٦٥.

(٣) - الإعجاز الصرفي، ١٧٥.

ويضفي هذا التحول أيضاً دلالة أخرى إذ يبرز خصوصية النعمة التي أنعم الله بها على داود **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، إذ جعل الجبال تسبح معه والطير محشورة له، ومن شأن الجبال التسبيح الدائم لكونها تندرج ضمن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

لكن المولى **عَزَّوَجَلَّ** أراد أن يبرز نعمته على داود بتسبيح الجبال معه على وجه الخصوص، فأتى بالفعل المضارع (يسبحن) مع الجبال للدلالة على "أن التسبيح المقصود من الجبال ليس ذلك التسبيح الدائم، بل هو تسبيح خاص بنبي الله داود يتجدد بتجدد تسييحه" (١).

ويؤيد ذلك دلالة المعية في الظرف (معه) المقدم على الفعل في قوله (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن)، كذلك "من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل ومن ثم فإن التعبير بصيغة الاسم (محشورة) يفيد أن الطير حين تحشر إلى داود لتتجاوب مع تسييحه، تفارق طباعها وتثبت في مكانها خاشعة لا تكاد تريم" (٢).

ثالثاً: التحول من المصدر إلى الفعل:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فقد جاء بالحال مصدراً في قوله "بطراً ورياء الناس" ثم تحول من المصدر إلى الفعل فقال: "ويصدون عن سبيل الله"، ولم يقل: "وصادين عن سبيل الله"، فيأتي

(١) - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٠٨.

(٢) - المصدر السابق، ١٠٨.

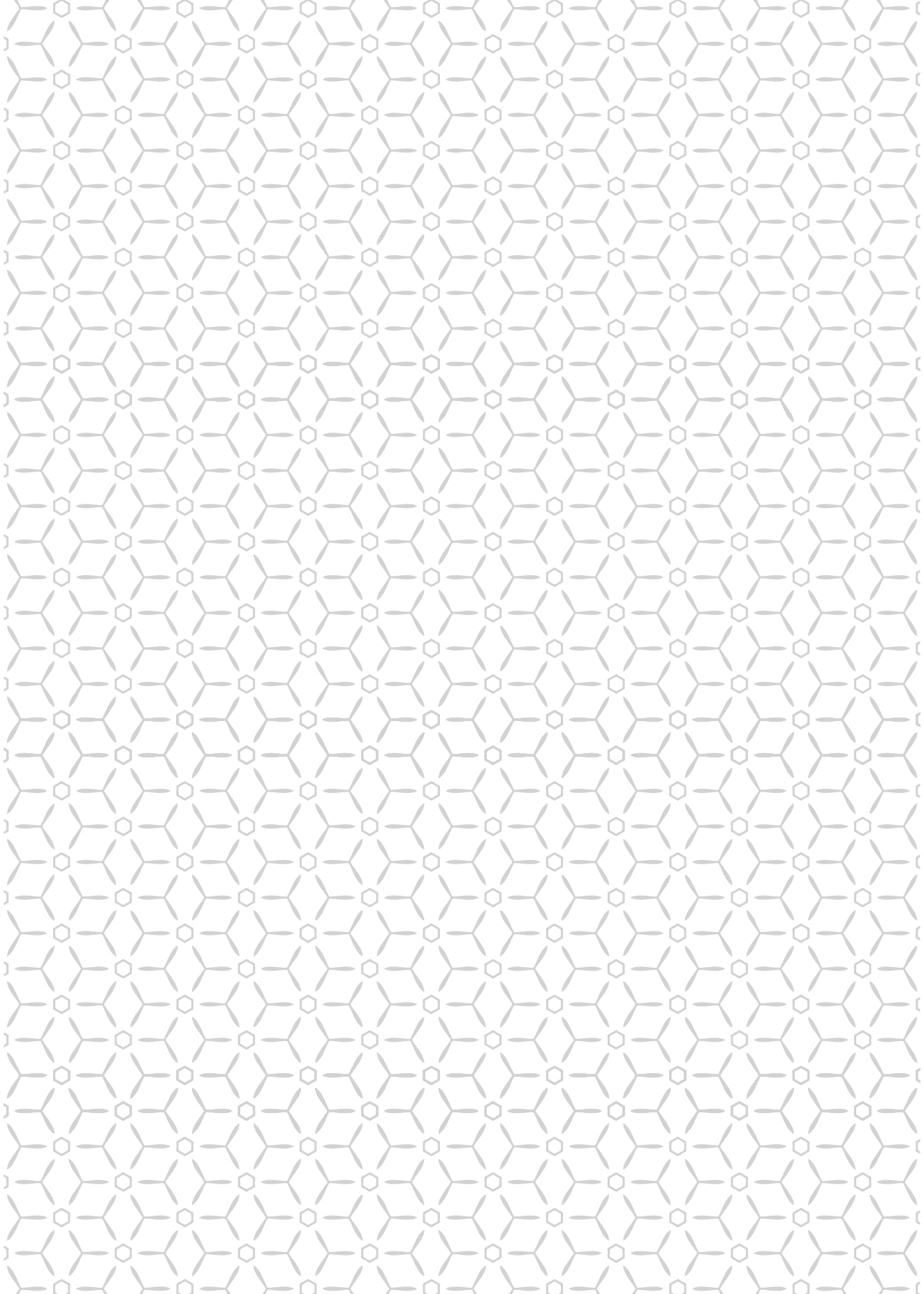
بالأحوال كلها على نسق واحد من الأسماء، وإنما خالف بينها لدلالة مقصودة، وذلك أن هذه الآية نزلت في جيش قريش الذين خرجوا بزعامة أبي جهل لمقاتلة الرسول ﷺ في بدر، فأشار هذا السياق إلى "أن أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على البطر والرياء، فذكر بلفظ الاسم تنبيهاً على أصالتهما فيهما، وأما الصد فإنما حصل في زمان ظهور الرسول ﷺ بالنبوة فذكر بلفظ الفعل الدال على التجدد"^(١).

ويرد في سياق آخر لدلالة شرعية، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاْمَتَّحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فنجد في هذا السياق أنه أتى بالمصدر عند ذكر المؤمنات، فقال: "لا هنَّ حِلٌّ لهم" ثم تحول عنه البيان إلى الفعل عند ذكر أزواجهن من الكفار فقال: "ولا هم يحلون لهن". ويبدو أن سر استعمال المصدر للإخبار عن المؤمنات بقوله: "لا هنَّ حِلٌّ لهم" هو الدلالة على أن المؤمنات منذ مفارقتهن لحالة الكفر، ودخولهن في الإسلام، أصبحن محرمات حرمة تأبىد على أزواجهن الكفار الذين ما زالوا على كفرهم؛ لذا ناسب المجيء بالاسم "حلٌّ" الدال على الثبوت والاستمرار، إشارة إلى ثبوت الحرمة واستمرارها، وأما في حق أزواجهن فقد تحول إلى الفعل، فقال: "ولا هم يحلون لهن" لدلالة الفعل المضارع على الحال والاستقبال، إشارة إلى أنهم لا يحلون لهن حالة كفرهم، فهو تحريم موقوف يزول بزوال كفرهم ودخولهم في الإسلام.

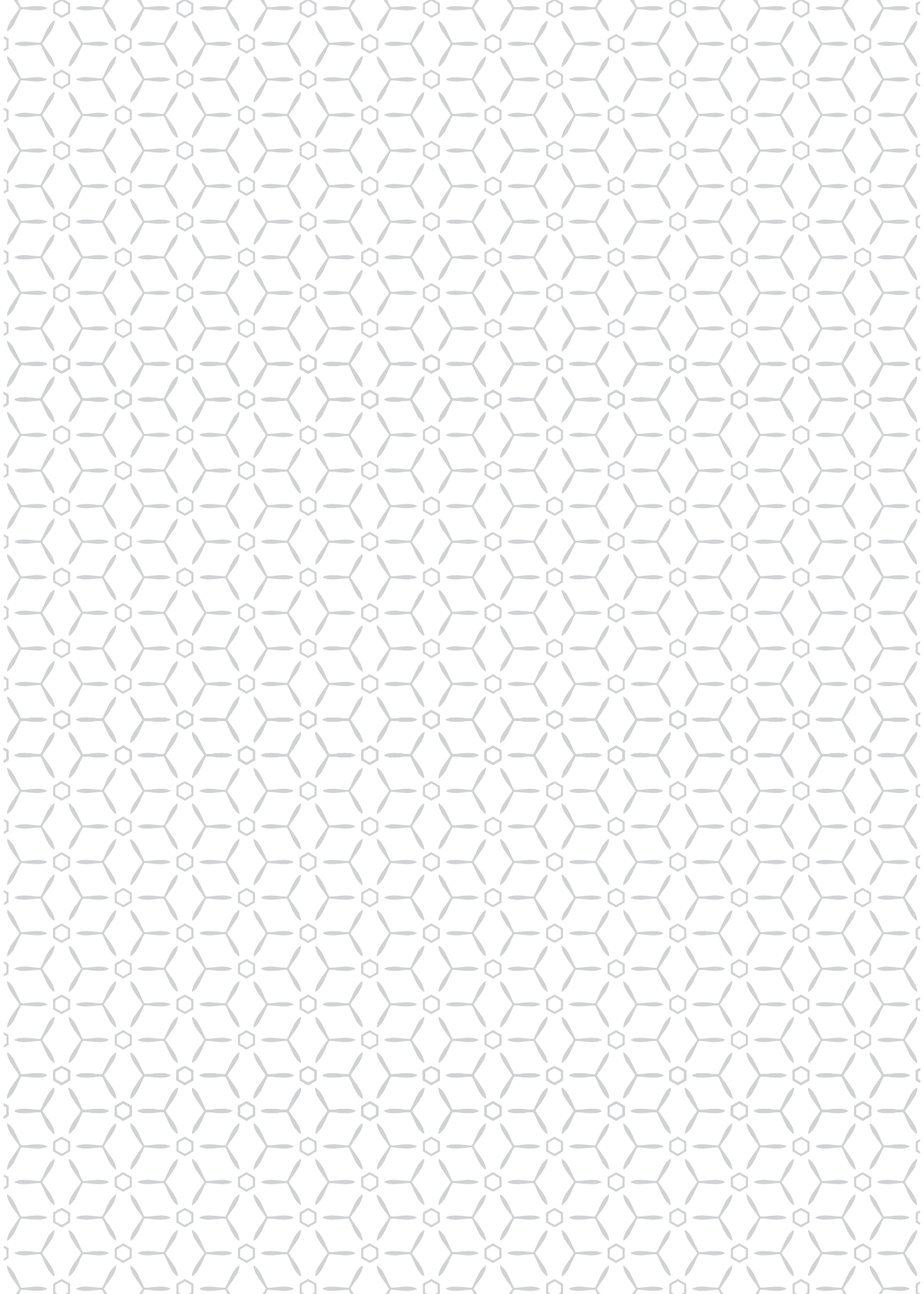
(١) - غرائب القرآن، ٣/ ٤٠٥.

وفيه دلالة على أن المسلم لا يرجى رجوعه أو ارتداده عن دينه، وأما الكافر فرجوعه عن كفره ودخوله في الإسلام أمر يرجى حصوله منه في الغالب؛ لأن ما هو عليه باطل، فكان حاله في تغير وتجدد، فناسب ذلك مجيء الفعل الدال على التجدد والحدوث والتغير في حق أزواجهن الكفار.



الفصل الثاني

التحول في حروف المعاني



تمهيد

لحروف المعاني دور هام في إبراز مقاصد الكلام وأغراضه إذ "تتوقف دلالات النظم وأسراره على إدراك مرامي الحروف"^(١)، يقول الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) كاشفاً عن أهمية الحروف^(٢): "فإنه لما كانت مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنياً أكثرها على معاني حروفه، صُرفت الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلتها، وتيسر الوقوف على جملتها فقد كثر دورها، وبعد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعان إلا لمن يعانيها"

ولها دور هام في الكشف عن دقائق المعاني في التركيب وتعالق الكلام بعضه ببعض، وتتوالد الدلالات المختلفة باختلاف الحرف الداخل في تراكيب الكلام، فمثلاً: الفعل (رغب) يتعدى بـ (إلى) و(في) و(عن) و(الباء) "ومع كل حرف يتعدى به تتجدد له دلالة غير دلالته مع الحرف الآخر"^(٣).

"فإذا قيل: رغب فيه وإليه، يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ وإذا قيل رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٠]^(٤).

(١) - من أسرار حروف الجر، محمد الأمين الخضري، ٧.

(٢) - الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، ١٩.

(٣) - من أسرار حروف الجر، ٧.

(٤) - مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ١٩٨.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، يفسر بعض المفسرين الرغبة هنا بما يفيد الظن والبخل.

يقول ابن عاشور^(١): "والباء للملابسة، نزل الظن بالأنفس والحذر من هلاكها منزلة التلبس بها، في شدة التمكن".

ومثله الفعل (سمع) تختلف دلالات التراكيب الواقع فيه هذا الفعل بتعدد واختلاف الحرف المتعلق به، يقول الخطابي^(٢): "فإذا قلت: سمعت منه كلاماً، أردت سماعه من فيه، وإذا قلت: سمعت عنه علماً، كان ذلك عن بلاغ"، وإذا تعدى بـ (إلى) أفاد حسن الإصغاء، يقول الزمخشري^(٣): "فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث وسمعت حديثه وإلى حديثه؟ ثم يقول: المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بـ (إلى) يفيد الإصغاء مع الإدراك".

ومما سبق ذكره ندرك أن لكل حرف دلالة الخاصة التي يضيفها على التركيب الداخل فيه، فتتغير الدلالة بتغير الحرف، وهذا يدعونا إلى تتبع الفروق الدلالية الدقيقة بين معاني الحروف، ورفض القول بتناوبها لا سيما في كتاب الله عز وجل؛ لأن القرآن الكريم قد استعمل كل حرف لدلالة مقصودة وبدقة تكشف عن روعة الإعجاز والبيان فيه.

(١) - التحرير والتنوير، ٥٦/١١، (بتصرف)، وانظر: القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ٦٣.

(٢) - بيان إعجاز القرآن، ٣٢.

(٣) - الكشف، ٣/٣٣٦.

وقد انتقد الزمخشري الذين أهملوا النظر في تتبع هذه الفروق في الكتاب العزيز، فقال^(١): "فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى، أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأن قولك يجري إلى أجل مسمى، معناه يبلغه ويتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى، تريد: يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى".

وقد نبه الزجاج (٣١١هـ) أيضاً فيما نقله الألويسي عنه إلى خطأ القول بأن حروف المعاني ينوب بعضها عن بعض، فقال^(٢): "لا يجوز أن يقال: إن بعض الحروف من حروف المعاني بمعنى الآخر، لكن الحرفين قد يتقاربان في الفائدة، فيظن ضعيف العلم باللغة أن معناهما واحد، وليس بذلك".

وذكر ابن الأنباري^(٣) أن "الأصل في كل حرف أن لا يدل إلا على ما وضع له، ولا يدل على معنى حرف آخر".

وما يعنينا في بحثنا هذا هو الوقوف على بعض مظاهر هذه الدقائق في المعاني^(٤) التي تضيفها الحروف على التراكيب من خلال المخالفة بينها في السياق نفسه.

(١) - السابق، ٣/ ٢٣٧.

(٢) - روح المعاني، ٣/ ١٧٥.

(٣) - الإنصاف في مسائل الخلاف، ٢/ ٤٧٨.

(٤) - انظر: في حروف المعاني ودلالاتها المختلفة كلاً من الكتب التالية: القرآن الكريم وتفاعل المعاني، دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى، محمد داود، ولطائف المنان في دعوى الزيادة في

وهو ما سنعرض له في المبحثين الآتيين:
المبحث الأول: التحول من حرف إلى آخر.
المبحث الثاني: التحول في حذف الحرف وذكره.

القرآن، فضل عباس. وتناوب حروف الجر في القرآن، محمد عواد، ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، وحروف القرآن، عبد الفتاح لاشين، وزيادة الحروف بين التأييد والمنع، هيفاء فدا، وحروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، دياب عطا، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، محمود سعد.

المبحث الأول

التحول عن حرف إلى آخر

اللافت للنظر في التعبير القرآني دقته في تناول حروف المعاني والمغايرة بينها، إذ نجده يستعمل الحرف لدلالة مقصودة في السياق ثم يتحول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه، مما يدعو ذلك إلى التدبر وإعمال الفهم لإدراك ما وراء هذا التحول من مقاصد ودلالات.

ويصعب في هذا المبحث تناول كل مواطن هذا التحول لكثرتة وسعته، وتكفي الإشارة إلى بعض صورته ونماذجه وفق التقسيم الآتي:

أولاً: التحول في حروف الجر:

يبرز هذا التحول من خلال المغايرة في حروف الجر في السياق القرآني وذلك بمجيء بعض الأفعال متعدياً بحرف ثم التحول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه، وكذلك المغايرة لهذه الحروف في تعالقها بالأسماء في السياق نفسه.

وهذه المخالفة في تعالق الأسماء والأفعال بالحروف في السياق توحى بدلالات تهمس بها هذه الحروف حيناً وتفصح عنها حيناً آخر، وهي من الدقائق الداعية لإعمال الفكر والفهم العميق في تتبعها ومعرفة سر التحول فيها.

فمن تلك المواطن لهذا النوع من التحول:

١. التحول عن (على) إلى (في):

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فقد ذكر مع الهدى حرف الجر (على)، فقال: (لعلى هدى). ثم تحول عنه إلى (في) مع الضلال فقال: (أو في ضلال)، ولو جرى السياق على نسق واحد لكان (لعلى هدى أو على ضلال مبين).

وقد وقف الزمخشري على سر هذا التحول، فقال^(١): "لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه".

يقول ابن القيم^(٢) في سياق تفسيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]: "في أداة 'على' سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: 'أولئك على هدى من ربهم'، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والله عزَّ وجلَّ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو الحق والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع، فإن قلت: فما الفائدة في ذكر 'على' في ذلك أيضاً، وكيف يكون المؤمن

(١) - الكشف، ٣/ ٢٨٩.

(٢) - التفسير القيم، ابن القيم، جمعة محمد أويس الندوي، ت: محمد حامد الفقي، ١٥-١٦.

مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟ قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة "على" ما يدل على علوه وثبوتة واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة "في" الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٍ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، وتأمل قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين".

ويضاف إلى هذا دلالة السياق وما يفيد من العلو في (على هدى)، فعلو المكانة والمقام يستوجب علو الإرادة، ونفاذها واستعلائها على نوازع التسفل والسقوط، بإقبالهم على الهدى بمحض اختيارهم، ويفيد انفساح الرؤية أمام أبصارهم فيدركون ما حولهم بوضوح دون حجب أو حواجز، وذلك على النقيض من دلالة التسفل والظرفية في قوله: "أو في ضلال مبين"، إذ يستتبع ذلك دلالات سلب الإرادة، وتقييد الحركة، وانعدام وضوح الرؤية، وفقدان حرية الفكر، وذلك يؤدي إلى تمزق النفس وتخطيها.

٢. التحول عن (في) إلى (على):

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

ونجد في هذا السياق القرآني تعدّي الفعل "أخذ" أولاً بحرف الجر (في)، في قوله: "أو يأخذهم في تقلبهم"، ثم التحول عنه إلى حرف الجر (على) في قوله: "أو يأخذهم على تخوف".

"لأن إثارة حرف الظرفية مع التقلب قصد به الإدلال على كمال القدرة الإلهية في الوصول بالانتقام إلى من يريد، مهما بدا للمأخوذ أنه في كمال القدرة والقوة، ذلك أن التقلب يعني حركة الحياة التي أقبل عليها مقترفوا السيئات مما يدل على أنهم في كامل صحتهم وقوتهم، وكمال سلطانهم وجبروتهم، وهم في هذه الحال لا يستطيعون أن يفوتوا الله ويعجزوه هرباً لذلك تناسب مجيء الفاصلة القرآنية بعدها قوله: "فما هم بمعجزين" (١).

وأما التحول إلى (على) في قوله: "أو يأخذهم على تخوف" فإن الاستعلاء فيها يدل على أن الله زادهم عذاباً فوق عذاب الخوف وآلامه، وهو بلاء كان قد وقع بهم من قبل وأصابهم بأمراض الذعر والقلق وافتقاد الأمن والطمأنينة، ثم جاء عقابه وأخذهم بما اقترفوه بلاء فوق البلاء، وعذاباً على عذاب" (٢).

فيكون معنى الظرفية في حرف الجر (في) قد دلّ على كمال قدرة الله في الأخذ والبطش، وأفاد معنى الاستعلاء في (على) الزيادة في التنكيل والعذاب، فكل حرف قد جاء في موضعه المناسب له، ولا يمكن أن يحل محله غيره.

(١) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٦٩.

(٢) - من أسرار حروف الجر، ٦٩.

وبهذا ندرك أن دلالة حروف الجر ليس في نفسها كما هو الحال في الأسماء والأفعال، وإنما تكتسب دلالتها من خلال تعالقها بنظم الكلام في السياق، ويظهر أثر السياق في تخصيص دلالة الحرف وتحديدده.

فمعنى الاستعلاء في حرف الجر (على) قد يفيد في سياق الخير العلو والتفضيل والتشريف كما هو الحال في قوله تعالى: "وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى"، وفي سياق الأخذ والعذاب كما هو الحال في قوله: "أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ" أفاد شدة العذاب وزيادته، وكذلك حرف الظرفية (في) في قوله: "أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ". أفاد معنى التسفل والسقوط؛ لأن السياق سياق ذم وتوبيخ لحالهم، وقد دلَّ على العكس من ذلك في قوله "أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ" إذ دلَّ على كمال القدرة في الأخذ والتعذيب؛ لأن السياق سياق إبراز قدرة وقوة.

٣. التحول عن (في) إلى (الباء):

من ذلك قوله تعالى على لسان الملائ من قوم نوح في خطاب نبيهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الأعراف: ٦٠-٦١].

فقد جاء حرف الجر (في) في كلام قوم نوح لنبيهم بقولهم: "إنا لنراك في ضلال مبين"، وهذا الحرف يفيد الظرفية، فكأن الضلال أصبح ظرفاً له، وهو مظروف فيه، يحيط به من كل مكان. فردَّ عليهم بقوله: "ليس بي ضلالة"، فتحولني جوابه لهم إلى (الباء)، فلم يوافق جوابه قولهم فيكون (لست في ضلال).

وفي هذا السياق نجد أن جواب نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، قد تضمن عدولين، عدولاً نحوياً متمثلاً في التحول عن حرف الجر (في) إلى (الباء)، وعدولاً صرفياً متمثلاً في التحول عن المصدر "ضلال" إلى اسم المرة "ضلالة"، وذلك أن اقتران جوابه بالباء فيه إمعان في نفي لصوق أدنى ضلالة به، فضلاً عن انغماسه في الضلال أصلاً، وهذا يؤكد مجيء اسم المرة "ضلالة".

لذا ناسب مجيء جوابه لهم بالباء عدولاً عن حرف الوعاء "مبالغة في نفي اقترابه من الضلال وتلبسه به" ^(١)، **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف: ٦١].

وهو ما يرد بكثرة في سياق خطاب الأنبياء لأقوامهم من ذلك قول قوم هود لنيهم: **﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾** [الأعراف: ٦٦]، وجاء ردُّه عليهم: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾** [الأعراف: ٦٧].

٤ . التحول عن (في) إلى (من):

ومنه قوله تعالى: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ... وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** [النساء: ٥-٨].

فقال: ابتداء "وارزقوهم فيها" فأتى بحرف الجر (في) ثم تحول عنه إلى حرف الجر (منه)، فقال: "فارزقوهم منه".

(١) - من أسرار حروف الجر، ٦٩.

وسر هذا أن الآية الأولى هي خطاب للأولياء في أموال اليتامى بدليل قوله: "وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم..."، ففي قوله: "فارزقوهم فيها" دعوة إلى استثمار أموال اليتامى وأن ينفق عليهم من أرباح المال لا من أصله، وهو ما أشار إليه الزمخشري بقوله^(١): "وارزقوهم فيها" واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى يكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فلا يأكلها الإنفاق".

وهذا المعنى ناشئ من تركيب الفعل (فارزقوهم) مع حرف الظرفية (في)، فجعل الأموال ظرفاً للرزق ومكاناً له، في حين تحولعن (في) إلى (من) بعد ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨]؛ لأن المدفوع لذوي القربى واليتامى والمساكين حال حضورهم القسمة هو من أصل مال التركة، فجاءت (من) التبعيضية للدلالة على إعطائهم من بعض الميراث على سبيل المواساة والإحسان.

٥. التحول عن (من) إلى (في):

من ذلك قوله تعالى: "وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ... وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ" [النحل: ٨٤-٨٩]. فعُدَى فعل (البعث) بـ (من) في قوله: "يوم نبعث من كل أمة"، ثم تحول عنه

(١)-الكشاف، ١/ ٥٠٠.

إلى (في) بقوله: "يوم نبعث في كل أمة" وهنا ينشأ السؤال الآتي: لماذا لم يطرد السياق فيكون: "يوم نبعث من كل أمة شهيداً، ... ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم ...؟" أشار السيوطي^(١) إلى أن (في) هنا بمعنى (من) فقوله: "في كل أمة"، أي: (من كل أمة)، ويكون قوله حينئذ: (من أنفسهم) "تكراراً له، ويرى الباحث أن القول بتناوب الحروف خروج عن تذوق البيان، ومعرفة إعجاز القرآن.

والذي يظهر -والله أعلم- أن هذا السياق القرآني يقرر الشهادة على مرحلتين: الأولى: مرحلة بعث الشهداء من أممهم، فمن كل أمة يخرج الله شهيداً منها، وهذه مرحلة بعث وإخراج فقط، ثم تأتي المرحلة الأخرى والأهم، وهي مرحلة إدلاء الشهادة، فيدلي كل شهيد على وجه الخصوص بشهادته على أمته، والشهداء هم الرسل والأنبياء، لذا كانت هذه المرحلة أشد من سابقتها على الشهداء والمشهود عليهم؛ لأنها إدلاء بالشهادة وتقرير بحكم، لذلك ناسب فيها التأكيد والإطناب في تفصيل جنس هؤلاء الشهداء فهم (في كل أمة)، فأفاد حرف الجر (في) الظرفية والمخالطة والانغماس، فكل شهيد من هؤلاء قد خبر قومه وعرفهم وخالطهم فهو منهم، وفيهم قد عاش ودرج، فكانت (في) أدل على هذا المعنى من غيرها.

وأمعن السياق القرآني في تأكيد الشهادة وأنها شهادة إدلاء بقوله أيضاً: "شهيداً عليهم"، وقوله أيضاً: "من أنفسهم"، في حين لم يذكر ذلك في الآية السابقة، إذ اكتفى بالقول: "ويوم نبعث من كل أمة شهيداً" فحسب.

(١) - انظر: الإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٦٧.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وكان يقتضي السياق أن يطرد على نسق واحد فيقول: "ومنه تسميون" لكنه تحول عن (من) إلى (في) لدلالة أوضحها ابن عاشور بقوله^(١): "والشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة، ويطلق على مطلق العشب والكأ تغليباً، وروعي هذا التغليب هنا؛ لأنه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز؛ لقلّة الكأ في أرضهم، فهم يرعون الشعاري والغابات، وفي حديث "صَالَّةُ الْإِبِلِ تَشْرَبُ الْمَاءَ وترعى الشجر حتى يأتيها ربها"^(٢)، ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف (في) الظرفية، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب".

وقد فهم ابن عاشور هذا المعنى الدقيق لحرف الجر (في) من معرفته بحياة بادية الحجاز التي تنزل فيها القرآن، فجاء المقال موافقاً تمام الموافقة لمقتضى الحال.

٦. التحول عن (من) إلى (عن):

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَلَمِن خَلْفِهِمْ وَاَعْنِ أَيْمَانِهِمْ وَاَعْنِ شِمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

(١) - التحرير والتنوير، ١٤ / ١١٤.

(٢) - رواه البخاري، ٥ / ٢٧٢٠، برقم (٤٩٨٦).

فنجذ في هذا السياق القرآني -وهو يذكر مقولة إبليس- أنه قد خالف في التعبير بين حرفي الجر (من) و(في)، فقال ابتداءً: "لَا تَيْنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ"، ثم تحول عن (من) إلى (عن) عند ذكر الأيمان والشكائل فقال: "وعن أيمانهم وعن شكائلهم" ولم يقل: "ومن أيمانهم ومن شكائلهم"، ولكي ندرك سر هذا التحول ينبغي معرفة دلالة (عن) وما يوحي به السياق الواردة فيه، وقد ذكر سيويوه أن قولهم: جلس عن يمينه تعني^(١): "جعله متراخياً عن بدنه وجعله في المكان الذي بهيال يمينه".

ولما كانت (من) تفيد معنى الابتداء و(عن) تفيد التجاوز، كان المعنى في قولهم: "أتاه من يمينه" "أن مبدأ الإتيان كان من هذه الجهة، وإذا قلت: أتاه عن يمينه، كأن معناه: أتاه منحرفاً عنها أو متجاوزاً لها"^(٢). وكل هذه المعاني واردة من خلال ما يضيفه الحرف من دلالة ضمن السياق الوارد فيه.

ومن التبع لنصوص القرآن الكريم نجد أن لفظتي الأيمان والشكائل قد جاءتا مقترنتين بحرف التجاوز (عن)، من ذلك قوله تعالى على لسان الضالين لمن أضلوهم:

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٢٨]. أي: "كنتم تأتوننا من جهة اليمين -الدالة على الخير- فتصدُّوننا عن الحق والخير"^(٣).

(١)- الكتاب، ٤/ ٢٢٧.

(٢)- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٣٢٢.

(٣)- انظر: الكشف ٣/ ٣٣٩.

فأفادت (عن) هنا معنى التجاوز عن الحق والصد عنه؛ "أي: عن الناحية التي كان منها الحق، فتصرفوننا عنها" (١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

دلّت (عن) على المجاوزة -أيضاً-، "لأن حركة الظلال في تفيؤها تنحرف عن الأيمان والشمائيل بحكم اتجاهات الرياح" (٢).

وفي آية الأعراف التي نحن بصدددها، نجد أن دلالة (عن) تفيد معنى المجاوزة والانحراف، يقول الزمخشري في ذلك (٣) "فإن قلت: كيف قيل: (من بين أيديهم ومن خلفهم) بحرف الابتداء، و(عن أيانهم وعن شمائلهم) بحرف المجاوزة؟ قلت: المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون عن يمينه وعلى يمينه، وعن شماله وعلى شماله؟ قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره".

(١) - المفردات، ٣٤٩.

(٢) - من أسرار حروف الجر ٣٢٣.

(٣) - الكشف ٧١ / ٢.

ولم يقف الزمخشري على سر التحول في التعبير وإنما وقف عند حدود صحة التركيب، وقد تعقبه أبو حيان محاولاً الكشف عن سر هذا التحول فقال^(١): "وهذا الكلام لا بأس به، وأقول: إنما خص بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان، لأنها أغلب ما يجيء العدو منهما فينال فرصته، وقدم بين الأيدي على الخلف؛ لأنها الجهة التي تدل على إقدام العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه، والخلف من جهة غدر ومخاتلة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرته وغفلته، وخص الأيمان والشمالك بالحرف الذي يدل على المجاوزة؛ لأنها ليست بأغلب ما يأتي منهما العدو، وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك".

وما ذهب إليه أبو حيان تعليل طريف، ونضيف إليه أن حركة الشيطان في وسوسته للناس تختلف باختلاف يقظتهم وإيمانهم، فاختلف بموجب ذلك جهات إقدامه عليهم، فالغافل المفرط في الغفلة يواجهه من أمامه فيستحوذ على منافذ تفكيره ووعيه، ثم يليه من كان دون ذلك في الغفلة فيتدسس له من خلفه، وأما المؤمن المتيقظ فحسبه أن يتجاوزَه عن يمينه وشماله متجافياً عنه على وجل غير ملتصق به فضلاً عن وجود ملكين عن اليمين والشمال يقتضي ذلك تجاوزهما.

فتكون المجاوزة بـ (عن) في هذا السياق ذات دلالة حسية واضحة، ويحتمل أن يراد بها المجاوزة المعنوية أيضاً، فيكون المراد تصوير محاولات الشيطان في إلقاء الوسوسة والإغواء، فمن تلك المحاولات ما هو ظاهر بَيِّنٌ يواجه به ضعاف النفوس

(١) - البحر المحيط ٤/ ٢٧٦.

الذين قد استسلموا للانقياد له، ومنها ما يحاول تليسه في صور خفية من الوسوسة متجاوزاً فيها الظهور إلى الخفاء، يتسلل بها على من تأبوا عليه، ورفضوا الانقياد له.

٧. التحول عن (من) إلى (الباء):

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦].

فالفعل (يشرب) تعدى بـ (من) في قوله: (يشربون من كأس) ثم تحول السياق إلى (الباء) فقال: "عيناً يشرب بها" ولم يقل: "عيناً يشرب منها"، وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن الباء بمعنى (من)^(١).

أي: عيناً يشرب منها، وأن ذلك من قبيل تناوب الحروف عند من قالوا به، وبعضهم ذهب إلى القول: بتضمين الفعل (يشرب) معنى الفعل (يروي).

يقول الزركشي^(٢): "وأما الأفعال فأن تضمن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعديه به ...، مثله قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. فضمن (يشرب) معنى (يروي)؛ لأنه لا يتعدى بالباء فلذلك دخلت الباء، وإلا فيشرب يتعدى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والرّي معاً، فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد".

(١) - انظر: المغني، ١٤٢.

(٢) - البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٨.

وإلى هذا ذهب الفراء فقال^(١): "وقوله **عَزَّجَلَّ**: (يشرب بها) و(يشربها) سواء في المعنى، وكأن يشرب بها: يروى بها".

ويرفض ابن القيم القول بتناوب الحروف ويستحسن القول بتضمين الفعل معنى فعل آخر، فيقول^(٢): "وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه، هذه طريقة إمام الصناعة -سيبويه- رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، وهذا نحو قوله تعالى: "عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ" فإنهم يضمنون "يشرب" معنى "يروي" فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين، أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بدیع اللغة ومحاسنها وكمالها، ومنه قوله في السحاب: "شربن بماء البحر حتى، روين ثم ترفعن وصعدن"^(٣)، وهذا أحسن من أن يقال: "يشرب منها" فإنه لا دلالة فيه على الرّي،

(١)- معاني القرآن ٣/ ٢١٥.

(٢)- بدائع الفوائد ٢/ ٢١.

(٣)- هكذا في الأصل، ولعل هذا القول هو بيت محرف لأبي ذؤيب الهذلي وصوابه هكذا:

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعْنَ مَتَى لَجَجَ خُضِرٌ هُكْنَ نَيْيَجُ

(ديوان الهذليين: ١/ ٥١). وللبيت رواية أخرى: (شرح أشعار الهذليين، ١/ ١٢٩):

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَصْعَدْنَ مَتَى لَجَجَ سُودٌ هُكْنَ نَيْيَجُ

وأن يقال: "يروي بها"؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: "يشرب بها" دل على الشرب بصريحه وعلى الرّي، بخلاف الباء، فتأمله".

ولا يسلم لابن القيم قوله: "إن عبارة (يشرب منها)" لا دلالة فيها على الري، لأن المولى عزّوجلّ قد وصف الأبرار بقوله: (إن الأبرار يشربون من كأس)، فعُدّي فعل (يشرب) بـ (من) وأيضاً أن الشرب في الجنان لا يكون بغرض الارتواء، فلا ظمأ فيها، فالمولى عزّوجلّ يقرر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]. وإنما الشرب فيها ضرب من النعيم المقيم.

والحقيقة أنه لا بد أن يكون لهذا التحول مغزى يتناسب مع سياقه الوارد فيه، والسياق هو سياق نعيم، فلا بد أن ننعّم الفكر في النعيم والمنعمين، ولعل ما ذهب إليه فاضل السامرائي هو أقرب إلى دلالة السياق، إذ يرى أن المخالفة في التعبير القرآني في هذا السياق راجعة إلى المفارقة بين الجزاءين، فجزاء الأبرار دون جزاء عباد الله، إذ الآية تتحدث عن صنفين من أهل الجنة، الصنف الأول الأبرار "والصنف الآخر هم الذين سباهم (عباد الله) وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم ... ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده، وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

من هذا يتبين أن مرتبة الذين سباهم (عباد الله) أعلى من الأبرار، وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين فقد وصف نعيم الأبرار بأنهم يشربون من كأس، وأن هذه الكأس ليست خالصة بل ممتزجة (كان مزاجها كافورا)، وأما الصنف الآخر وهم (عباد الله) فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها، بل يشربون خالصة من العين عينا يشرب بها عباد الله) وهي مرتبة أعلى^(١).

ونضيف إلى توجيه السامرائي أن (الباء) في قوله: "عينا يشرب بها" هي على أصلها من إفادتها معنى الإلصاق، وفي ذلك مزيد مبالغة في وصف النعيم الذي هم حالون فيه، فهم يشربون من عين يكاد أن يلاصق أفواههم ماؤها دون بذل أي عناء في الشرب، إذ لا يحتاجون أن يشربوا منها وإنما بها، وفي ذلك إمعان في نفي وجود أدنى عناء في التمتع بالنعيم في الجنة، على خلاف المعهود في متع الدنيا، لذا عندما وصف المولى عز وجل سرر الجنة قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ولم يقل: على سرر متجاورين، وذلك لينفي عنهم وجود أي عناء في أن يلتفت الأخ إلى أخيه ليراه.

وتفيد (الباء) أيضاً القرب من المكان والنزول به، نحو قولنا: نزلت بالعين^(٢)، وأفادت أيضاً أن الشرب من العين ليس هو الغاية في النعيم، وإنما (العين) وسيلة وأداة موصلة للنعيم، وإن شئت فقدّر محذوفاً، فقل: يشربون بها السعادة والنعيم الذي لا نظير له، فلذائذ الدنيا ومتعها غاية لذاتها، فالشرب فيها لذات الشرب حتى

(١) - التعبير القرآني، ٢١١، (بتصرف).

(٢) - انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٩.

يحصل الارتواء بعد ظمأ قد حل، والشرب في الجنة ليس مقصوداً لذات الارتواء والسلامة من عطب أو هلاك، وإنما هو نعيم يتوصل به إلى نعيم أكبر.

وكذلك أفادت (الباء) هنا التمييز بين نعيمين وصنفين من أهل النعيم كما أشار إليه السامرائي، فصنف يشرب خمر الجنة من كأس ممزوج بها الكافور الذي هو عين في الجنة، وتعرب (عيناً) في الحالة هذه بدلاً من (كافوراً)، وصنف فوق أولئك هم نازلون بالعين نفسها يشربون بها السعادة والخلود، والنعيم الذي لا يزول ولا يبيد، وهي ملاصقة لأفواههم فضلاً عن أبدانهم ملاصقة النعيم لصاحبه لا ينفك عنه بحال، ولا ينقص منها شيء بل هي في تفجير وتكاثر وازدياد.

ونحن في مألوف الاستعمال اللغوي نقول: شربت بالكأس من العين، فتكون الكأس هي الأداة المشروب بها، فتدخل (الباء) على الآلة والأداة، فالأبرار يشربون (من كأس)، وعباد الله (يشربون بالعين)، فكانت الكأس بمثابة العين للأبرار، والعين بمثابة الكأس لعباد الله، يشربون بها ما هو أكبر من العين وهو السعادة والسرور، والتلذذ بما لا يحيط به الوصف من النعيم.

٨. التحول عن (اللام) إلى (في):

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

تتحدث هذه الآية عن الأصناف الثمانية الذين تعطى لهم الزكاة، ولكن السياق خص الأصناف الأربعة الأول بـ (اللام) فقال: "للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم" ثم تحول عن (اللام) إلى حرف الجر (في) الدال على الظرفية، فقال: "وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل". "للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن (في) للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، وجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير (في) في قوله: "وفي سبيل الله"، فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين" (١).

ويرى أحمد بن المنير (٢): "أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وأن ما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائثاً بهم، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم. فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك (باللام) المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب

(١) - الكشف، ١٩٨/٢.

(٢) - انظر: حاشية الكشف ١٩٨/٢.

ديونهم تخلصاً لدمهم لاهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تشبيهاً على خصوصيته".

وكلا المعنيين اللذين ذهب إليهما الزمخشري وابن المنير يتسع لهما النص القرآني فيكون التحول إلى حرف (في) قد دل على داليتين بارزتين هما:

أولاً: الدلالة على أن الأصناف الأربعة الأخيرة أهم من الأصناف الأربعة الأولى، وأولى بأن توضع فيها الصدقة والزكاة، وذلك بدلالة حرف الجر (في) الدال على الظرفية والوعاء، وكأن هذه الأصناف الأربعة هي وعاء لهذه الزكوات وظرف لها ينبغي وضعها فيه.

وثانياً: دل حرف الجر (في) على أن الأصناف الأربعة الأولى يأخذون تلك الزكوات على سبيل التملك بدلالة حرف الجر (اللام)، بينما الأصناف الأخيرة تصرف في مصالحهم الزكوات ولا يملكونها - كما علل ذلك ابن المنير - بدلالة حرف الوعاء والظرفية (في)، وكأن التعبير القرآني يشير إلى أن تصرف فيهم وفي شؤونهم وما هو في مصلحتهم.

والمح دلالة ثلاثة يوحى بها السياق ويحتملها النص القرآني من خلال حرف الظرفية (في) وما يوحى به من الدلالة على التقصي والبحث عن الأحوج والأنسب في الأصناف الأربعة الأخيرة، لتوضع فيهم الزكاة، وذلك لاتساع دائرتها، وتفاوت أصنافها أهمية واحتياجاً، على خلاف الأول فأصنافهم معلومة بينة.

٩. التحول عن (اللام) إلى (على):

منه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

غاير التعبير القرآني بين الحرفين (اللام) و(على) في السياقين السابقين، وقد استدلل المفسرون من ذلك على أن (اللام) تأتي مع النفع و(على) تأتي مع ذكر الضّر، وذلك انطلاقاً من دلالة (اللام) على الاختصاص والملك والاستحقاق، ومن معنى العلو في (على) الدال على القهر والاستيلاء.

لذلك اقترنت الأعمال الصالحة والحسنات في سياق ذكرها في القرآن با (لام) واقترن بالمقابل لذلك حرف (على) بالسيئات والإثم؛ لأن لفظة (على) - كما يرى أبو حيان - فيها الدلالة على استعلاء الإثم على صاحبه، واستيلائه وقهره له^(١).

ويقول: ابن عطية^(٢): "وجاءت العبارة في الحسنات ب (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه، ويسرُّ بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات ب (عليها) من حيث هي أوزار، وأثقال ومتحولات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال وعلي دين".

١٠. التحول عن (إلى) إلى (على):

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩١-٩٣].

(١) - انظر: البحر المحيط ٣/ ٣٤٦.

(٢) - المحرر الوجيز ١/ ٣٩٣.

ف نجد الفعل (راغ) قد اقترن بحرف الغاية (إلى) ابتداء ثم تحول عنه إلى حرف الاستعلاء (على)، ويظهر لنا سبب هذا التحول من خلال فهم دلالة الفعل (راغ) الذي يقصد به الميل إلى الشيء في تسلل وخفاء، وأفاد الحرف (إلى) انتهاء الغاية، أي أن غاية ذهاب إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وتخفيه هو الوصول إلى أصنامهم.

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى نكتة التحول إلى (على) فقال^(١): "راغ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال، قال فراغ إلى أهله - فراغ عليهم ضرباً باليمين - أي: مال، وحقيقته طلب بضرب من الروغان، ونَبَّه بقوله: (على) على معنى الاستيلاء" فكانه استولى على تلك الأصنام وقهرها وغلبها وهي عاجزة ضعيفة أمامه". يقول محمد الخضري "فلما كان قوله: "فراغ إلى آلهتهم" يعبر عن قصد إبراهيم إلى أصنامهم، والسعي إليها خفية جيء بـ (إلى) معبرة عن انتهائه إليها، ومشيرة إلى جعل وصوله إليها غاية لا يلوي معها على شيء حتى يحقق ما عزم عليه، ثم حين أراد القرآن تصوير ما فعله إبراهيم بآلهتهم، وإغارته عليها جيء بـ (على)؛ لتدل بمعنى الاستعلاء فيها على تمكنه منها وقهره لها، وما لحقها من آثار التحطيم والتدمير".

فكان التحول إلى (على) في هذا السياق للدلالة على الاستيلاء والقهر والغلبة على تلك الأصنام في مقابلة العجز والضعف والاستسلام منها.

١١. التحول عن (إلى) إلى (اللام):

(١) - المفردات ٢٠٨.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥].

اللافت للنظر في هذا السياق تعدي فعل الهداية بحرف الجر (إلى) مع الشركاء، فقال: (هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) ثم تحول عنه إلى التعدي بـ (اللام) في نسبته إلى الله - عزَّ وجلَّ - فقال: "قل الله يهدي للحق"، ولم يقل: (قل الله يهدي إلى الحق) ليطرد السياق على نسق واحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذا من قبيل تداخل الحروف وتناوبها، يقول: البطليوسي (ت ٥٢١هـ) "معلقاً على هذه الآية"^(١): "جاز وقوع (اللام) موقع (إلى)، ووقوع (إلى) موقع (اللام)، لما بين معنييهما من التداخل والتضارع، ألا ترى أن (اللام) لا تخلو من أن تكون بمعنى الملك أو الاستحقاق أو التخصيص، أو العلة والسبب، و(إلى) للانتهاء والغاية، وكل مملوك فغايته أن يلحق بالكه، وكل مستحق فغايته أن يلحق بمستحقه، وكل مختص فغايته أن يلحق بمختصه، وكل معلول فغايته أن يلحق بعلته، فكلها يوجد فيها معنى (إلى) وموضوعها الذي وضعت له" وإلى هذا ذهب ابن منظور فقال^(٢): "يقال: هَدَيْتُ للحق وهَدَيْتُ إلى الحق بمعنى واحد".

(١) - الاقتضاب ٢/ ٢٨٧.

(٢) - لسان العرب مادة (هـ.د.ي).

ومع أن الزمخشري له حس بلاغي في تتبع الفروق الدلالية للحروف إلا أنه في هذا الموضوع سوى بينهما في الدلالة إذ عدّهما تنوعاً في اللغات فقال^(١): "هذه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين".

والحقيقة أن الفعل إذا عُدّي بحرف ثم عُدّي بحرف آخر، فلا بد أن يكون له مع كل حرف دلالة خاصة تختلف عن الأخرى.

يقول ابن القيم^(٢): "إن الفعل المعدّي بالحروف المتعدّدة، لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو رغبت عنه، ورغبت فيه، وعدلت إليه، وعدلت عنه، وملت إليه وملت عنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق، نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره".

وبناء على ذلك فالهداية تختلف في دلالتها باختلاف الحرف الداخل على فعلها، والقرآن قد ذكر نوعين من الهداية، الأولى هداية الإرشاد والبيان، ويتمثل ذلك في توضيح المنهج الحق والإرشاد إليه، وهذه هداية عامة. والهداية الأخرى هداية التوفيق والإلهام وهي أخص من الأولى وتترتب عليها، والمقصود بها إلهام الله

(١) - الكشف ٢/ ٢٣٦.

(٢) - بدائع الفوائد ٢/ ٢١.

النفوس وتوفيقه لها في سلوك طريق الهداية والاستقامة عليه. وهذا النوع من الهداية يختص به - الله **عَزَّوَجَلَّ** - لأنه هو وحده الذي يملك القلوب ويوجهها.

لذلك ففعل الهداية إذا عُدِّي بـ (إلى) "دَلَّ على الإرشاد وإيصال المهدي إلى الغاية المنشودة، وحين يعدى بـ (اللام) يدل على التوفيق وتبيئة القلب والنفوس للسعي من أجل هذه الغاية، انبثاقاً من معنى الاختصاص في اللام" (١).

ولهذا الفعل نظائر في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى على لسان أهل الجنة: **﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾** [الأعراف: ٤٣].

وقوله تعالى: **﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾** [النازعات: ١٩].

وقوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢].

ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) -وهو يتحدث عن فعل الهداية وتعديده (٢)- وقد تعدَّى بـ (إلى)، كقوله تعالى: **﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [النحل: ١٢١]، و: **﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾** [الصفات: ٢٣]، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]، وقد تعدَّى باللام، كقول أهل الجنة: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾** [الأعراف: ٤٣]؛ أي: وفقنا لهذا وجعلنا أهلاً".

(١)- من أسرار حروف الجر ٢٢٣، وانظر: بدائع الفوائد، ٢/ ٢١.

(٢)- تفسير القرآن العظيم ١/ ١٦٠.

ومن هنا ندرك سر التحول في آية يونس التي نحن بصدددها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] ففي ذلك آية من آيات الإعجاز والتحدي لهذه الآلهة المزعومة ولأصحابها، إذ تحدّاهم أن يوجد منها من يملك هداية البيان والإرشاد؛ للدلالة على طريق الحق، فضلاً أن يوجد منها هداية التوفيق والإلهام، فهذه هداية لا يملكها إلا -الله- عزَّجَلَّ -الذي لا يملك توجيه القلوب وتوفيقها إلا هو؛ لذا عدَّى فعل الهداية مع الشركاء بـ (إلى)، ومع المولى -عزَّجَلَّ- بـ (اللام) للدلالة على أنه المختص وحده بهذه الهداية، فيكون نفيه عن الشركاء هداية الإرشاد قد تضمن نفي هداية التوفيق عنهم قطعاً، ويكون إثباتها لله -عزَّجَلَّ- واختصاصه بها، يتضمن إثبات هداية الإرشاد له من باب أولى.

١٢. التحول عن (الباء) إلى (اللام):

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

ففي هذا السياق تعدَّى فعل الإيذان بحرف الجر (الباء) فقال: (يؤمن بالله) ثم تحول إلى تعديته باللام، فقال: (ويؤمن للمؤمنين)، وقد توقف كثير من المفسرين عند تعدّي فعل الإيذان بـ (الباء) وتعديه بـ (اللام)، فذهب بعضهم إلى أن التركيب (آمن بـ) يحمل المعنى نفسه في (آمن لـ). يقول أبو حيان^(١): "وقيل آمنت به، وآمنت له واحد". وذهب بعضهم إلى تضمين فعل الإيذان المعدّى باللام معنى الانقياد أو الاستجابة والإقرار،

(١) - البحر المحيط ٤ / ٣٦٥.

يقول ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى^(١) . أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ " (واللام في قوله: (لكم) لتضمنين "يؤمنوا" معنى يُقَرُّوا، وكأن فيه تلميحاً إلى أن إيمانهم بصدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاصل ولكنهم يكابرون ويحسدون".

ويذهب رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: "يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين"^(٢) أن نكتة تعدية الإيمان بالباء في الله تعالى، وباللام في المؤمنين أن الأول على الأصل آمن به، ضد كفر به، وصدق به ضد كذب به، وأما الثاني فقد ضمن معنى الميل، والائتمان والجنوح للمؤمنين".

وقد كان الزمخشري أقرب المفسرين إلى إدراك الفرق الدقيق بين الحرفين والوقوف على سبب هذا التحول إذ يقول^(٣): "فإن قلت: لم عُدِّي فعل الإيمان بـ (الباء) إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين بـ (اللام)؟".

قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فعُدِّي بـ (الباء)، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعُدِّي بـ (اللام)، ألا ترى إلى قوله – وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، ما أنباه عن الباء – ونحوه – ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]، و: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، و: ﴿قَالَ آمَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

(١) – التحرير والتنوير ١/ ٥٦٧.

(٢) – تفسير المنار ١٠/ ٥١٩.

(٣) – الكشف ٢/ ١٩٩.

ويعلل محمد الأمين الخضري هذا الرأي بقوله^(١): "ف (الباء) بها تدل عليه من الملابس والمصاحبة والإلصاق تخلع على فعل الإيمان وجود الأمن في ظلال من يؤمن به ويلتمس الحماية في صحبته، والطمأنينة في ملابسته، فيكون حريصاً على رضاه، عاملاً بها يأمره به، ولذلك فإن الإيمان لا يتعدى بـ (الباء) إلا في الإيمان بالله ورسله وكتبه، لما أن الإيمان بالرسول هو امتداد للإيمان بالله، وكذلك الإيمان بالكتب، لأن الكتب كلام الله، أما (اللام) فإن الفعل يكتسب معها معنى الاستجابة للمصدق فيما دعا إليه، والانحياز له في رأيه أو ما جاء به، انطلاقاً من طبيعة اللام الدالة على اختصاصه بهذه المزية".

وبناء على ما سبق تظهر حكمة تعدي فعل الإيمان بـ (الباء) في سياق ذكر الإيمان بالله والتصديق برسله وكتبه، ويتعدى بـ (اللام) في سياق ذكر تصديق البشر واستجابتهم لبعضهم.

وأما ما ورد في القرآن من مواطن ذكر فيها فعل الإيمان متعدياً بـ (الباء) وموضوع الإيمان فيها ليس فيه تصديق ويقين نحو قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجَبَتِ وَالطَّاعُوتِ﴾ [النساء: ٥١]. وقوله تعالى ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. "فهو في سياق التقريع لهم وتسفيه اعتقادهم وإظهار زيفه"^(٢).

(١) - من أسرار حروف الجر، ٢١١.

(٢) - القرآن الكريم وتفاعل المعاني ٢/ ٢١٧.

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠-٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٩].

فمجيء الفعل (آمن) متعدياً ب (الباء) في قوله (آمنتم به) لا يناقض ما تقرر من مجيء هذا التركيب (آمن ب) في سياق الإيذان بالله، لأن الضمير الهاء في (آمنتم به) يعود على (رب العالمين) بينما يعود في (آمنتم له) على موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ). وهو ما ذكره الخطيب الإسكافي ورجحه^(١).

ثانياً: التحول في حروف العطف:

لحروف العطف أهمية كبيرة في أداء وظيفة الربط في الجملة العربية، وتضفي هذه الحروف دلالات خاصة يكشف عنها السياق الواردة فيه، وقد قرر علماء اللغة أن لكل حرف دلالة عامة تختص به.

(١) - انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ١٧٦-١٧٧.

فقرروا أن حرف (الواو) يرد لمطلق الجمع. يقول سيبويه^(١): "قولك: مررتُ بعمرٍ وزيد. وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلى الأول وتجمعهما، وليس فيه دليل على أن أحدهما قبل الآخر".

يقول الرضي في شرح الكافية^(٢): "فقوله: (فالواو للجمع مطلقاً): معنى المطلق أنه يحتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكون حصل من عمرو أولاً، فهذه ثلاثة احتمالات عقلية، لا دليل في الواو على شيء منها، هذا مذهب جميع البصريين والكوفيين".

وذكروا أيضاً أن (الفاء) تفيد الترتيب والتعقيب يقول سيبويه^(٣) -في معرض التمييز بين (الواو) و(الفاء): "و(الفاء) وهي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت (الواو) غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض، وذلك قولك: مررتُ بعمرٍ وزيد فخالِدٍ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقرؤ^(٤) أحدهما بعد الآخر".

وأما (ثم) فقد ذكروا أنها تفيد الترتيب مع التراخي، يقول المرادي^(٥): "ثم حرف عطف يشرك في الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة؛ فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، أذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة".

(١) - الكتاب، ٢١٦/٤.

(٢) - شرح الكافية، ١٤٥/٦.

(٣) - الكتاب، ٢١٧/٤.

(٤) - يقرؤ: يتبع.

(٥) - الجنى الداني، ٤٢٦.

وقد علل السهيلي دلالة التراخي في (ثم) من دلالة اشتقاقها فقال^(١): "لا غرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن في الكلام، فهذه (ثم) حرف عطف، ولفظها كلفظ (الثم)، والثم هو رُم الشيء يعضه إلى بعض ... وأصله من ثَمَمْتُ البيت: إذا كانت فيه فَرْجٌ فَسُدَّ بالثَّام^(٢)."

وقال الشاعر:

وَأَمَّا الرِّيحُ فَقَدْ غَادَرَتْ رَوَاكِدَ وَاسْتَمْتَعَتْ بِالثَّامِ

والمعنى الذي في (ثم) العاطفة قريب من هذا، لأنه ضَمَّ الشيء إلى شيء بينهما مهلة، كما أن ثَمَّ البيت: "صَمَّ بين شيئين بينهما فرجة".

فامتازت (ثم) عن (الواو) بالترتيب والمهلة، وعن (الفاء) بالتراخي في الزمن. يقول سيبويه -مفرقاً بين هذه الأحرف الثلاثة^(٣): "فإذا قلت: مررتُ برجل راكب وذهب، استحقها؛ لا لأن الركوب قبل الذهاب، ومنه: مررتُ برجل راكب فذهب استحقها، إلا أنه يَبَيِّنُ أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلاً به، ومنه: مررتُ برجل راكب ثم ذهب، فَيَبَيِّنُ أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فَصَيَّرَهُ على حِدَةٍ".

(١) - نتائج الفكر، ١٢٤.

(٢) - الثَّام هو عشب، المعجم الوسيط، ١/ ١٠١.

(٣) - الكتاب، ١/ ٤٢٩.

والذي يهمننا في هذا الموضوع هو المخالفة والمغايرة الحاصلة بين حروف العطف في السياق القرآني، والدلالات التي تنتج عن هذا التحول، وسيكون تناولنا للعدول في حروف العطف مقتصرًا على أهمها وأكثرها وروداً في التعبير القرآني وهي (الواو) و(الفاء) و(ثم). وذلك لكثرة ورود التحول بين هذه الحروف، مما يدعو ذلك إلى التأمل في أسرارها وما يحققه من دلالات تكشف عن جوانب الإعجاز في هذا القرآن. ويتمثل التحول في هذه الحروف على النحو الآتي:

١ - التحول عن (الواو) إلى (الفاء) والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥].

فلقد تحول هذا السياق عن (الواو) في قوله: "والسابعات سبحاً" إلى (الفاء) في قوله: "فالسابقات سبقاً، فالمدبرات أمراً". ولو اطراد السياق على نمط واحد لكانت "والسابقات سبقاً والمدبرات أمراً".

ويمكننا فهم سر هذا التحول من تعليق الزمخشري على ذلك بقوله^(١): "أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تشطها أي: تخرجها من نشاط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمراً من أمور العباد".

(١) - الكشف، ٤/ ١١٢.

فالذي نفهمه من كلام الزمخشري أن الملائكة في اختصاصها ووظائفها على طوائف، فمنها طوائف تنزع الأرواح من الأجساد، وطوائف تخرجها، وأخرى تسبح في مضيها لتنفيذ ما أمرت به، وهذه الأخيرة وقف عندها القرآن بالوصف، فوصفها بأنها تسبح فتسبق فتدبر، فهي طائفة توصف بثلاث صفات متتابعة وهي السبح والسبق والتدبير، لذلك عطف بين صفاتها هذه بـ (الفاء)، وعطف بين ذوات هذه الطوائف المختلفة بـ (الواو).

فكانت (الواو) - في هذا السياق - لعطف الذوات و(الفاء) لعطف الصفات. فدل التحول عن (الواو) إلى (الفاء)، أن هذه الطائفة من الملائكة هي طائفة واحدة تتصف بصفات متعددة لا طوائف مختلفة، وإنما دلت (الفاء) هنا على تعاقب هذه الصفات وتتابعها.

وهو ما يرد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١-٥].

إذ جاء التحول عن (الفاء) في قوله تعالى: "فالعاصفات عصفاً" إلى (الواو) في قوله: "والناشرات نشرًا"؛ ليفرق بين طائفتين من الملائكة، فما قبل (الواو) يمثل طائفة مستقلة في الملائكة مهمتها الإرسال والعصف. وطائفة أخرى جاء ذكرها بعد (الواو) مهمتها النشر والفرق وإلقاء الذكر.

وهو ما أوضحه الزمخشري^(١) بقوله: "أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء".

ويزيد الألوسي الأمر إفصاحاً فيقول^(٢): "وعطف الناشرات على ما قبل (الواو) ظاهر للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد (الفاء) لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات".
فدل هذا على أن الصفات المعطوفة بـ (الفاء) تكون لموصوف واحد^(٣).

٢- التحول عن (الواو) إلى (ثم) والعكس

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

فقد جاء السياق على نحو: "وأزلفنا ... وأنجينا ... ثم أغرقنا"، فتحول عن (الواو) إلى (ثم).

(١)- الكشف: ٢٠٢/٤.

(٢)- روح المعاني، ١٦٩/٢٩.

(٣)- انظر: من أسرار حروف العطف، ٤٠.

فما دلالة (ثم) هنا، وهل هناك تراخٍ زمني بين إنجاء المولى **عَزَّجَلَّ** موسى ومن معه، وبين إغراق فرعون وقومه، ولماذا لم يقل: "وأغرقنا الآخرين"، كما هو الحال في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾** [البقرة: ٥٠]. فأتى بـ (الواو) في قوله تعالى: "وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ"؟

ويرى الباحث أن سياق المقام هو الذي يقتضي حرف عطف معين لدلالة معينة، فالسياق في سورة الشعراء سياق تدرج في النعم، فالنعمة الحاصلة من إغراق فرعون وجنده أعظم من سابقتها وهي إنجاء الفئة المؤمنة، فأفادت (ثم) التراخي الرتبي لا الزمني، وذلك أن سياق سورة الشعراء يذكر تكبر فرعون وإعراضه وظلمه، **﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾** [الشعراء: ٥٣-٥٨].

فالسّياق مركز على فرعون وجنده، فكانت الإشارة بـ (ثم) في الإغراق للدلالة على عظم هذه النعمة، وإبراز عظم القدرة في أخذ فرعون وجنده، بينما كان السياق في سورة البقرة، سياق تعديد نعم فحسب، فقال: "فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون"، كما أنه ليس لفرعون وجنده ظهور على مسرح الأحداث هناك كما هو الحال في سورة الشعراء، فأدى الاختلاف في المقال إلى اختلاف نظم الكلام تبعاً له.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى -مخاطباً المؤمنين: **﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَاصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾** [التوبة: ٢٥].

فقد تحول السياق عن (الواو) إلى (ثم) فقال: "ثم وليتم مدبرين"، ولم يقل: "وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ووليتهم مدبرين"؛ ليصور الحالة النفسية التي انتابت المسلمين في حين عند هزيمتهم، إذ صورت "ثم" شدة وطأة الزمن، واستطالته في ذلك الموقف العصيب الذي أصابتهم فيه الدهشة والحيرة والاضطراب "ثم وليتم مدبرين" ولو أتى (بالواو) لما أفاد تلك الدلالة^(١).

ومنه أيضاً في قوله تعالى على لسان نبيه نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

ونلاحظ في هذا السياق القرآني نبرة التحدي ظاهرة بارزة على لسان نبي الله نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، في مخاطبة قومه الذين أعرضوا عن دعوة الله **عَزَّجَلَّ** فدعاهم إلى أن يتحدوا هم وشركائهم ضده للفتك به، وأمهلهم بأن يتدبروا أمرهم علانية على الملأ لا غمة فيه، ثم أمهلهم أخرى في إعداد عددهم وعدتهم للفتك به والقضاء عليه. فإذا تسنى لهم ذلك فليقضوا عليه دون أي إنظار منهم له أو إمهال، فدل التحول إلى (الواو) على نفي وجود أدنى زمن للمهلة والإنظار، وفي ذلك إمعان في التحدي لهم وعدم المبالاة بهم، وعظم ثقته بالله **عَزَّجَلَّ** ولو اطرده السياق بـ (ثم) لما كان فيه من الدلالة على ذلك ما ذكر.

٣- التحول عن (الفاء) إلى (ثم) والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣-٥٥].

(١)- انظر: من أسرار حروف العطف، ١٦٤، والتحرير والتنوير، ١٠/ ١٥٧.

فعطف طلب الكيد بـ (الفاء) وعدم الإنظار بـ (ثم). وجاء على العكس من ذلك في تحدي الرسول ﷺ للمشركين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * أَهْمُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

فعطف طلب الكيد بـ (ثم) وعدم الإنظار بـ (الفاء).

والذي يبدو -والله اعلم- أن سياق سورة الأعراف فيه تسفيه لهذه الأصنام التي اتخذوها أنداداً من دون الله عز وجل، ثم ارتفعت نبرة التحدي في الخطاب، فوجه الله عز وجل الأمر لنبيه ﷺ أن يتحدى المشركين بأن يدعو هؤلاء الشركاء ويتضامنوا معهم في الكيد له "وأمهلهم من الزمن ما يتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد له، فعطف الأمر بالكيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة؛ إمعاناً في الاستهانة بالشركاء، وعدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بـ (الفاء) إغراقاً في التحدي والاستهانة حين لا يطلب لنفسه نفس المهلة للرد على كيدهم" (١).

فطلب معاجلتهم بالقضاء عليه، والإيقاع به، وفي ذلك من الاحتقار لهم والتهكم بهم ما فيه.

أما في سورة هود فقد ادعى قوم هود أن آلهتهم المزعومة قد مست هود بسوء وأنها تضر وتنفع، فعندئذ باشرهم بالتحدي السريع دون مهلة "لأنهم ما داموا يثبتون لآلهتهم

(١)- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، ٢٨٦-٢٨٧.

هذه القدرة على إنزال الضرب فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهاهم لحشد قواهم، فهم قد بدأو حربه بالفعل، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل (الفاء) على الأمر بالكيد لتدل على طلب المبادرة به^(١).

ثم تحول بعد ذلك إلى (ثم) ليعطي لهم ولاهتهم المزعومة مهلة طويلة من الزمن حتى يبلغوا في الكيد غايته. وقد أثبتت الياء في (فيكيدوني) "لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بـ (ثم)، فيتسق طول النطق في التعبير مع طول الزمن في الإمهال"^(٢).

وثم إنهم ذكروا أن آلهتهم اعترته بسوء، فكانت نبرة التحدي لديه أشد وأكد فتحدي الجميع بقوله: "فكيدوني جميعاً"، ثم أظهر نفسه في التحدي وذلك بإثبات الياء زيادة في التحدي لهم والظهور"^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدر: ١٨-٢٥].

فنجد هذا السياق القرآني العجيب قد مضى في اطراد في تكرار (ثم)، فقال: "ثم قتل.. ثم نظر.. ثم عبس.. ثم أدبر.. فقال"، ثم تحول عن (ثم) إلى (الفاء) فجأة في قوله بعد ذلك: (فقال) إن هذا إلا سحر يؤثر"، ولم يطرد السياق فيكون: "ثم قال إن هذا إلا سحر يؤثر).

(١) - المصدر السابق، ٢٨٧.

(٢) - نفسه، ٢٨٧.

(٣) - انظر: التعبير القرآني، ٨١.

وعندما نمعن النظر في هذا السياق نجد أن حرف التراخي (ثم) قد صور لنا أبلغ تصوير حالة الصراع النفسي الذي عاشه الوليد بن المغيرة الذي نزلت في شأنه هذه الآيات، وكيف أنه أجال التفكير في شأن القرآن وأعوزته الحيلة بعد مهلة من الزمن وتريث فلم يجد ما يعيب به القرآن، ثم بعد ذلك كله سارع إلى إلقاء كلمة مفتراة في وصف هذا القرآن العظيم بقوله: "إن هذا إلا سحر يؤثر". فدلّت (الفاء) في قوله: "فقال إن هذا.." على أن هذا القول قد صدر منه دون إعمال نظر أو فكر في المقول، فلم يقل ما قاله عن قناعة ويقين، وكأنها كلمة ألقاها على عجل وولى هارباً مدبراً من شدة الهزيمة النفسية التي حلت به^(١).

ولو اطرّد هذا السياق القرآني فكان "ثم قال إن هذا إلا سحر يؤثر". لدل على أن هذا القول قد قاله بعد إعمال فكر وتريث، ونظر واعتقاد ويقين، وليس الأمر كذلك. ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

فقد جاء التعبير - في هذا السياق - عن تولي فرعون وجمعه الجموع والحشود والأعوان، وكل ما يستطيعه من كيد بحرف العطف الفاء، فقال: "فتولى.. فجمع.."، ثم تحول في التعبير عن إتيان فرعون ومواجهته موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى حرف التراخي (ثم)، حيث قال: "ثم أتى". وكان مقتضى السياق أن يكون "فتولى فرعون فجمع كيده فأتى"، لا سيما أن جمع الناس وحشدهم والإعداد للمواجهة يحتاج إلى مهلة من الزمن، في حين أن الإتيان بعد ذلك هو أيسر وأسهل، وكان التعبير في هذا السياق يقتضي

(١)- انظر: من أسرار حروف العطف، ١٦١، والتعبير القرآني والدلالة النفسية، ٢٥٦.

العكس بأن يقول (ثم جمع كيده فأتى)، فمثل التعبير في هذا السياق خروجاً عن مقتضى الظاهر، وذلك لدلالة نفسية عميقة يوحي بها هذا السياق.

مفادها أن الجمع كان أهون على فرعون من مواجهة موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فدلّت (الفاء) في قوله: "فجمع" إلى سرعة تحقق الجمع له وحشد الناس؛ لكونه ملكاً جباراً يخشى سطوته الجميع، فأمره بالجمع نافذ وسريع. وهو مع هذا كله يعيش هزيمة نفسية كبيرة في داخله من مواجهة موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ لذا عبر القرآن عن هذه الهزيمة النفسية بحرف التراخي (ثم) بقوله: "ثم أتى". وإلى هذه النكتة في التحول أشار أبو السعود بقوله^(١): "وفي كلمة التراخي إحياء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاها بعد لأي وتلعثم".

وهو ما سرى في نفوس قوم فرعون وأعوانه أيضاً في قولهم: **﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا﴾** [طه: ٦٤]، "وكأني بهم وهم يطيلون زمن النطق بـ (ثم) قبل الدعوة إلى لقائه يستهلكون الوقت، ويتهربون من المواجهة ويتمنون ألا تكون"^(٢).

وفي سياق آخر وهو قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾** [الرعد: ٣٢].

جاء حرف العطف (الفاء) مع الفعل (أملت) ثم تحول عنه إلى (ثم) مع الأخذ، فقال: "ثم أخذتهم". وكان مقتضى السياق أن يطرد على نسق واحد فيكون "فأملت

(١) - تفسير أبي السعود، ٦/ ٢٤.

(٢) - من أسرار حروف العطف، ١٦٣.

للذين كفروا فأخذتهم". لا سيما أن الأخذ بالعذاب فيه مباغته وسرعة تقتضي حرف التعقيب (الفاء)، كما هو الحال في نظائره من القرآن نحو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]، و: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، و: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، و: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل: ١١٣].

إلا أن السياق أتى على هذا النحو، فأفادت (الفاء) العطف والترتيب بين حدث الإملاء والاستهزاء أي: أن الإملاء ترتب حدوثه وحصوله على الاستهزاء، وأتى عقبه (استهزيء ← فأمليتُ)، وهذا من إمهال الله - تعالى - للكافرين من خلقه، ثم تحول إلى (ثم) مع ذكر العذاب، فأفادت المهلة وتراخي الزمن وامتداده بين الأخذ والإملاء، وفي هذا قطع لمعاذير الكافرين أمام الله **عَزَّجَلَّ** حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وكما أفادت (ثم) -هنا- التراخي في الزمن الحسي، فإنها تحتل أيضاً الدلالة على تراخي الزمن النفسي في وقع الأخذ والعذاب على نفوس متلقيه، فعلى الرغم من أن لحظة العذاب والإهلاك كانت مباغته وسريعة إلا أن في (ثم) تصوير لطول الزمن النفسي الذي أحس به القوم في لحظات العذاب التي مروا بها^(١).

ونختم حديثنا عن التحول في حروف العطف بالوقوف على آية من آيات الإعجاز يتحدث فيها المولى **عَزَّجَلَّ** عن أطوار خلق الإنسان، فيكشف فيها الأداء البياني الدقيق عن ملمح علمي عميق، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) - التعبير القرآني والدلالة النفسية، ص ٢٥٩.

سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ
اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهذه الآيات القرآنية تتحدث عن أطوار خلق الإنسان، لكنها عبّرت ابتداء عن بعض هذه الأطوار بـ (ثم)، ثم عدلت عند الحديث عن طور المضغة، وما بعده إلى حرف عطف (الفاء)، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (ثم) في هذا السياق قد أفادت معنى الاستبعاد، أي: أنها توحى بدلالة التفاوت والتباين بين هذه الأطوار. فبعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بـ (ثم)، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة^(١).

ويقول فضل عباس -من العلماء المعاصرين-^(٢): "نحن نرى أن هناك أطواراً لم يستعمل القرآن فيها إلا حرف التراخي "ثم"، وهذه الأطوار طور التحول من سلالة الطين إلى نطفة، وطور التحول من النطفة إلى العلقة، وأمر (ثم) ظاهر في هذين الطورين؛ لأنهما مختلفان من حيث الطبيعة والخاصية والعنصر، فشتان ما بين التراب (السلالة من طين)، وبين النطفة (الحيوان)، أما النطفة والعلقة فربما يظن أنها شيء واحد أو قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما بوناً وفرقاً، إذ النطفة من

(١)- حاشية الشهاب، ٣٢٣/٦، وانظر: روح المعاني، ١٨/١٥.

(٢)- المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، م١١، ع٤، ١٩٨٤، ص ١٢٢.

خصائص أحد المتزاوجين وهو الذكر. وأما العلقه فلن تكون كذلك إلا إذا اشتركا فيها جميعاً".

وأما التحول من علقه إلى مضغة، فالعلقه فيه أصل للمضغة تحوّلت عنها وتطورت، وليس بينهما تباين أو اختلاف كبير في الخصائص والتركيب كما هو الحال في الأطوار السابقة؛ لذا حسن مجيء (الفاء) هنا. فقال: "فخلقنا العلقه مضغة".

ولكن يستوقفنا في هذا المقام سياق سورة الحج في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

فقد عطف بين هذين الطورين بـ (ثم) فقال: "ثم من علقه ثم من مضغة"، وقد علل فضل عباس ذلك فقال^(١): "وأما استعمال الفاء فلا أن الطورين ليس بينهما فرق من حيث العنصر والخصائص، وأما استعمال (ثم) في آية الحج؛ فلأنها جاءت في سياق البعث الذي هو أدل على القدرة الإلهية، فالمقام مقام تفصيل".

ومع هذه اللفتة البيانية التربوية نلمح اللفتة العلمية المدهشة: "لمن يسأل، لماذا قال الله - تعالى - في الآية الكريمة: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]. ثم في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥]؟

فالجواب بأن الله تعالى هنا بين أدوار النشأة بتسلسل متبوع من تراب، ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة، ليبين الأطوار التي يمر بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار،

(١) - المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، ١٢٢.

والعلقة لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تنقسم في أدوار، أما في الآية الكريمة السابقة فقد أَرانا الله نصيب كل دور، ووقت كل طور فجاء بالعطف بـ (الفاء) لبيان قصر الدور، وبالعطف بـ (ثم) لبيان التعقيب مع التراخي؛ أي: طول هذا الطور^(١).

فالعطف بـ (الفاء) في قوله تعالى: "فخلقنا العلقة مضغة" جاء لتوضيح قصر فترة هذا الطور مقارنة بغيره من الأطوار المذكورة سابقاً، وفي سياق ذكر (ثم) كان التركيز على طول هذا الطور في نفسه هو، فهو يمر بأدوار ومراحل في نفسه، لكنه مع ذلك قصير بالنسبة للأطوار السابقة له.

واختصت سورة الحج بورود العطف فيها بـ (ثم) خلافاً لسورة (المؤمنون)، ولم يرد العكس لأن المخاطب في آية الحج منكر فيها للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فاستدعى مقام الإنكار تعديد الأطوار، وإبراز مراحل الطور الواحد في صورة أطوار متعددة، باعد بينها حرف التراخي؛ ليظهر عظيم قدرة الله في أن يخلق الشيء من أبعد ما يكون عنه مادة وجنساً^(٢).

ثالثاً: التحول في حروف النفي

نجد أن التعبير القرآني قد خالف في الاستعمال بين أداتي النفي بـ (ما) و(إن)، فتحولني الأسلوب عن (ما) إلى (إن) كثيراً.

(١) - بين الطب والإسلام، حامد الغوايي، ٢٦.

(٢) - من أسرار حروف العطف، ٢٧٦.

وقد ذكر النحاة أنَّ (إن) ^(١): حرف نفي يدخل على الجملة الفعلية والاسمية، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِقَنَّ إِنَّا أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. أي: ما أردنا إلا الحسنى. وقال مجاهد (ت ١٠٣هـ): "كل شيء في القرآن (إن) فهو إنكار" ^(٢).

وقال الراغب (ت ٥٠٢هـ) في (إن) هذه ^(٣): "وأكثر ما يجيء يتعقبه (إلا) نحو: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]. و: ﴿إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. و: ﴿إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]."

وكذلك الحال مع حرف النفي (ما) فهو يدخل على الجملة الفعلية والاسمية. ويذكر النحاة أن (إن) بمنزلة (ما) في نفي الحال ^(٤).

ويقول برجشتراسر ^(٥): "و(إن) تكاد تطابق (ما) في وظيفتها، وأكثر وقوعها قبل (إلا) للجناس بينهما نحو ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]."

ويذكر أحمد ماهر البكري في أساليب النفي في القرآن أنه ^(٦): "لا نكاد نجد فرقاً بين (إن) و(ما) إذ هما لنفي ما في الحال غالباً".

(١) - انظر: مغني اللبيب، ٣٣-٣٤، وحاشية الدسوقي، ١/٢٤، ومعاني القرآن، الفراء، ٢/٢١٤، ٣٧٠، والكشاف، ١/٣٧٤.

(٢) - الإتيان في علوم القرآن، ١/١٥٥.

(٣) - مفردات القرآن، ٢٧.

(٤) - انظر: المفصل، الزمخشري، ٣٠٧، والهمع، ٢/١١٦.

(٥) - التطور النحوي: ١٧٤.

(٦) - أساليب النفي في القرآن، ٩٣.

والحقيقة أن التعبير القرآني قد فرق بينهما في الاستعمال من خلال ما نلاحظه من المخالفة بينهما، والتحول عن حرف إلى آخر منهما.

وقد تتبع فاضل السامرائي المخالفة بين الأداتين في الاستعمال القرآني فوجد أن النفي بـ (إن) أكد من (ما)^(١): "يدل على ذلك اقترانها الكثير بـ (إلا)، وهذا ما يعطيها قوة وتأكيذاً، فإن في القصر قوة"، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ونضيف إلى ما قاله السامرائي أن (ما) قد تأتي مقترنة بـ (إلا)، ولكن هذا ليس هو الغالب في استعمالها، في حين أن (إن) النافية غالب في استعمالها اقترانها بـ (إلا)، والقصر بـ (إلا) يرد للتأكيد، وذلك يوحى بقوتها في التأكيد أكثر من (ما).

ومن خلال السياقات القرآنية التي وردت فيها (إن) النافية، نجد أن النفي بها أكد وأقوى، وهذا يفسر لنا دلالة المخالفة في السياقات القرآنية التي ورد فيها التحول عن (ما) إلى (إن)، نحو قوله تعالى على لسان النسوة: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف، ٣١].

فقد جاء النفي ابتداء بـ (ما) فقال: "ما هذا بشراً" ثم تحول عنه إلى النفي بـ (إن) فقال: "إن هذا إلا ملك كريم"، ولم يطرد السياق على نمط واحد من النفي فيكون "ما هذا بشراً ما هذا إلا ملك كريم"؛ وذلك لأن نفي البشرية عنه أهون من إثبات

(١) - معاني النحو، ٤/ ٢٠٠.

وصف الملائكية له، فأتى بـ (إن) فيما هو أكد، إمعاناً في تأكيد صفة الملائكية له في الحسن والهيئة ونفي ما سواها عنه.

إذ القصر بـ (إلا) يفيد دلالاتي النفي والإثبات معاً^(١)، فقد أثبت له صفة الملائكية، ونفى عنه ما دونها.

و منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

فأتى بحرف النفي (ما) ابتداء فقال: "ما أنتم إلا بشر.. وما أنزل الرحمن"، ثم تحول بعد ذلك إلى (إن) فقال: "إن أنتم إلا تكذبون" ولو جرى السياق على نسق واحد لكان "وما أنتم إلا تكذبون".

ويرجع هذا إلى أن "نفي الثاني أقوى فجاء به بـ (إن) فإن الأول إثبات البشرية، والثاني الكذب، وهم بشر لا شك في ذلك فجاء به بما، والثاني إثبات الكذب للرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإنكار أن يكونوا صادقين وهو يحتاج إلى تأكيد أكثر فجاء به بـ (إن)"^(٢).

وهذا الأمر يطرد في التعبير القرآني، فحيثما وجد النفي بـ (إن) فهو أكد من النفي بـ (ما).

(١) - انظر: معاني التراكيب، عبد الفتاح لاشين، ٢/ ٨-٩.

(٢) - معاني النحو، ١/ ٢٥٨.

ومنه ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فقد اطرده النفي بـ (ما) في السياق كله إلا قوله: "إن هم إلا يظنون"، فقال: "ما هي إلا.. وما يهلكنا.. وما لهم بذلك.. وإن هم"، وسبب هذا التحول إلى (إن) النافية هنا، أن هذا التعقيب هو رد من المولى عزَّجَلَّ على كلامهم السابق، فناسب ذلك الإمعان في التأكيد على مرحلتين: الأولى: بالنفي بـ (ما) في قوله: "ما لهم بذلك من علم" بدليل مجيء (من) للتأكيد في قوله: "من علم"، فأفادت نفي وجود أي شيء لهم من العلم، ثم ارتقى التأكيد بالنفي -في المرحلة الثانية- إلى مستوى أعلى من سابقه، فقال: "إن هم إلا يظنون" فكانت (إن) هنا أنسب في التأكيد من (ما).

وهو ما يظهر لنا جلياً أيضاً في خطاب نبي الله شبيب عَلَيْهِ السَّلَام لقومه، بقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

فتحول في النفي عن (ما) إلى (إن) فقال: "إن أريد إلا الإصلاح"، ولم يقل: "وما أريد إلا الإصلاح" فيطرده النفي بـ (ما)؛ لأن نبرة التأكيد قد ارتفعت لدى نبي الله شبيب عَلَيْهِ السَّلَام فأمعن في التأكيد لقومه المكذبين له بقوله: "إن أريد إلا الإصلاح"، مؤكداً بذلك هدفه من رسالته ودعوته.

ويستوقفنا في هذا المقام قول المولى عزَّجَلَّ مخاطباً نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢-٢٣].

فلم يطرد النفي بـ (ما) فيكون "وما أنت إلا نذير" كما قال "وما أنت بمسمع من في القبور"؛ وذلك لأن النفي في الأولى "وما أنت بمسمع من في القبور"، أمر مسلم به فلا يحتاج إلى مزيد تأكيد، فإسماع الموتى أمر مستحيل تصوره وحصوله، سواء أكانوا موتى القلوب أم موتى الأجساد، لكنه تحول بعد ذلك إلى (إن)، فقال: "إن أنت إلا نذير"؛ لأن المولى عزَّجَلَّ أراد في هذا السياق الإمعان في التأكيد لنيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه نذير فحسب، ولا يملك القدرة على هداية قلوب الخلق، وإنما وظيفته الإنذار.

والرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعلم أنه نذير، فما دلالة التأكيد بالقصر في هذا السياق؟

والجواب: "أنه نَزَّلَ الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منزلة من يعتقد أنه يملك مع صفة الإنذار القدرة على هداية الناس؛ لأنه لما كان جاهدًا في دعوة القوم، شديد الحرص على هدايتهم، صار في حكم من يظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفة الهداية، فجرى الأسلوب كما يجري في خطاب الشك ف قيل: "إن أنت إلا نذير" (١).

وبناء على ذلك فيمكننا تعليل التحول عن (ما) إلى (إن) في مشتبه النظم القرآني في السياقات المختلفة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء، ص ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

(١) - عبد الفتاح لاشين، ٢٧/٢، وانظر: دلائل الإعجاز، ٣٣٤.

فكل السياقات التي ورد فيها النفي بـ (إن)، النفي فيها أكد من السياقات الأخرى التي ورد فيها النفي بـ (ما). وسياق المقام هو الذي يقتضي ذلك ويحدده^(١).

وقد يرد التحول في النفي متمثلاً في المخالفة بين (لم) و(ما)، وعلماء النحو يذكرون أن (لم) تدخل على المضارع فتقلب زمانه إلى الماضي، و(ما) تنفي الفعل الماضي، فتقول: (لم أذهب) و(ما ذهبت) فيفيدان الدلالة على الماضي.

ولكن هل النفي بـ (لم) و(ما) يتماثلان، فيكون النفي في (لم أذهب) هو معنى النفي (ما ذهبت)؟ وأن جملة (لم أذهب) هي في المعنى (ما ذهبت) لتحول الفعل المضارع إلى الماضي مع (لم)، أم أن هناك فرقاً دلالياً بينهما؟

ويرى الباحث أن (لم) و(ما) ليستا متماثلتين تماماً في النفي، بل بينهما فرق دقيق، "فليس من حكمة العربية أن تجعل أداتين مختلفتين متشابهتين تماماً في المعنى، ولا بد أن يكون لكل واحد منهما خصوصية ليست في الأخرى"^(٢). "والعربية تميل إلى التفريق والتخصيص"^(٣).

وقد ذهب بعض علماء اللغة المعاصرين إلى التفريق بينهما؛ فيرى إبراهيم أنيس^(٤): "أن (لم) منحوته من (لا) و"ما"، ويترتب على ذلك التأصيل أنها أكد من النفي بأداة بسيطة مثل (ما)، أو على الأقل "لا يمكن أن يصبح النفي بـ (لم) أضعف من النفي بـ (ما)".

(١) - انظر في ذلك: معاني النحو، ١/ ٢٥٨، ٤/ ٢٠٢-٢٠٤، والتعبير القرآني، فاضل السامرائي، ١٥١.

(٢) - معاني النحو، ١/ ٢٥٢.

(٣) - التطور النحوي، ٩٠.

(٤) - من أسرار اللغة، ١١٥، وانظر: البرهان، ٢/ ٣٧٩.

ويرى شيخنا الدكتور سمير استيتية^(١): "أن النفي بـ (لم) الداخلة على الفعل المضارع تفيد استغراق النفي لـ كل جزئيات الزمن الماضي، في حين أن النفي بـ (ما) يفيد نفي الماضي بعمومه؛ لذلك كان نفيها أكد من (ما).

وهو ما نجده واضحاً في الاستعمال القرآني من ذلك قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

"فجاء بـ (لم) وذلك لأن تغير الشراب والطعام يحصل تدريجياً ويستمر، وليس دفعة واحدة، فجاء بـ (لم) للدلالة على أنه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء بـ (ما) وقال (ما تسنه) لأفاد نفي التسنه وهو التغير بصورته النهائية التامة"^(٢).

ونجد هذا المعنى في تأكيد النفي بـ (لم) واضحاً أيضاً في قول العذراء: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]. فهو إمعان في النفي من أن تكون قد تلبست بهذا الوصف في أي مرحلة من مراحل حياتها؛ فضلاً من أن يكون هذا وصفاً معروفاً لها.

في حين كان خطاب قومها لها: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. فجاء النفي منهم بـ (ما)، فلم يقولوا: (ولم تك أمك بغياً)؛ لأنه ليس بمقدورهم الإطلاع على كل أزمنة حياة أمها حتى يصدر النفي منهم بصيغة التجدد والحدوث، وإنما جاء النفي منهم بصيغة العموم، فقالوا: (وما كانت أمك بغياً)، فهذا هو المعروف والمشهور للناس من حال أمها بصفة العموم؛ لذا كان النفي منها أبلغ وأدق وأنفى للتهمة؛ لكونها أدرى بكل لحظات حياتها وتصرفاتها^(٣).

(١) - سماعاً منه.

(٢) - معاني النحو، ١٩٦/٤.

(٣) - انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣٩٥/٢.

وما سبق يتضح أن النفي بـ (لم) للفعل المضارع يفيد نفي أدنى درجات حدوث الفعل في زمنه الماضي، فالفعل في حدوثه يمر بمراحل متفاوتة في التحقق والحصول، ونفيه بـ (لم) يقع على أولى فترات تشكله وحدثه، كما أنه يفيد استغراق النفي للزمن الماضي بكل جزئياته، في حين أن النفي بـ (ما) يفيد نفي الحدث في الماضي بصورته النهائية وبعمومه^(١).

ومن هذا التفريق الدقيق في دلالة النفي بـ (لم)، والنفي بـ (ما) يمكننا معرفة سر التحول في التعبير القرآني عن (لم) إلى (ما)، في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ... ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

فالنفي بـ (لم) في: "لم يك من المشركين"، أفاد الإمعان في نفي تلبسه عَلَيْهِ السَّلَامُ بأي شكل من أشكال الشرك، وفي أي زمان من أزمنة حياته، وهو ما أوضحه ابن عاشور بقوله^(٢): "فيفيد أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتلبس بالإشراك قط". وزاد في تأكيد ذلك حذف (الكاف) من الفعل (يك). وناسب مجي النفي بـ (لم) في هذا السياق؛ لأنه سياق ثناء وتفصيل في مدح إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد جاء بعد ذلك قوله: ﴿شَاكِراً لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢١-١٢٢].

(١) - لا يتفق الباحث في هذا الأمر مع فاضل السامرائي فيما ذهب إليه في كتابه معاني النحو (٤/ ١٩٣) من أن النفي بـ (ما) أكد من النفي بـ (لم)، فما ذكرناه في هذا المقام من أقوال العلماء وما تدل عليه سياقات نصوص القرآن يدل على ما قررناه هنا.

(٢) - التحرير والتنوير، ٣١٦/ ١٤، وانظر: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، حوَّاس بري، ٢٩٤.

وأما قوله بعد ذلك (وما كان من المشركين)، فهو نفي للشرك عنه على وجه العموم؛ وذلك لأن السياق سياق خطاب للنبي ﷺ وهو يعلم ذلك، فليس المقام بحاجة إلى مزيد تأكيد.

ويمكننا أيضاً مما سبق الوقوف على سر التحول في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

فتحول عن النفي بـ (لم)، في قوله: "فلم تقتلوهم..."، إلى النفي بـ (ما) في قوله: "وما رميت"، ولم يقل: "ولم ترمهم إذ رميت"، وذلك لأن النفي بـ (ما)، في قوله: "وما رميت" نفي للفعل بصورته النهائية المكتملة لا لأصل حدوثه ابتداءً، فالرمي من الرسول ﷺ حاصل، بدليل قوله: "إذ رميت"، "فقد كان منه رمي حقيقة وصورة، ولكنه ليس بالرمي الذي يقدر به إيصاله إلى جميع العيون"^(١).

ولو قال: "ولم ترمهم إذ رميت" لكان الكلام خُلُفاً؛ لأنه يكون قد نفى نفياً جازماً يستغرق كل جزئيات الحدث بكل صورته وأزمته، وهو ما يتعارض مع قوله بعد ذلك (إذ رميت)، فكان محجىء (ما) في هذا السياق أدق وأنسب، ويقتضيه المعنى دون ريب.

رابعاً: التحول في حروف الشرط:

نجد في هذا المقام أن التعبير القرآني يخالف في الاستعمال بين حروف الشرط، إذ يتحول من حرف إلى آخر في السياق نفسه، وذلك لدلالة مقصودة.

(١) - محاسن التأويل، القاسمي، ٢٩٦٧/٨.

ومن أبرز مظاهر التحول في ذلك، التحول عن (إن) إلى (إذا)، وقد تقرر عند علماء النحو والبلاغة أن (إن) تأتي في سياق ذكر المشكوك تحققه، وغير المجزوم وقوعه، في حين ترد (إذا) على النقيض من ذلك فهي تستعمل للمقطوع حدوثه والكثير حصوله.

ونجد بذور هذا التفريق الدلالي بين (إن) و(إذا) عند صاحب الكتاب، يقول سيويه^(١): "وسألت الخليل (ت ١٧٧هـ) عن (إذا) ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في (إذا) بمنزله في (إذ) إذا قلت: أتذكر إذ تقول، فإذا في ما تستقبل، بمنزلة إذ فيما مضى، ويبين هنا أن (إذا) تحيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمرَّ البُسْرُ، كان حسناً، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان قبيحاً، فـ (إن) أبداً مبهمة".

ومراد سيويه من ذلك أن (إذا) تدخل على الأمر المتحقق حصوله وحدوثه، فاحمرار البسر أمر محقق حصوله، وزمن احمراره معروف لدى العرب، لذلك حسن دخول (إذا).

وقال المبرد (ت ٢٨٥هـ) في المقتضب^(٢): "فإذا قلت: 'إن تأتي آتك' فأنت لا تدري أيقع منه إتيان أم لا؟ وكذلك (من أتاني أتيته)، إنما معناه: إن يأتي واحد من الناس آته، فإذا قلت: إذا أتيته، وجب أن يكون الإتيان معلوماً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، و: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، و: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. إن هذا واقع لا محالة؟ ولا يجوز أن يكون في

(١) - الكتاب، ٦٠/٣.

(٢) - المقتضب، ٥٦/٢.

موضع هذا (إن) لأن الله عَزَّجَلَّ يعلم، و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر، وليس هذا مثل قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ لأن هذا راجع إليهم، وتقول: آتيك إذا احمر البسر، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان محالاً؛ لأنه واقع لا محالة".

وما ذهب إليه النحاة والبلاغيون من التفريق الدلالي بين (إن) و(إذا) يشهد له الذوق البلاغي في استعمال القرآن الكريم لهما من خلال المخالفة بينهما في السياق الواحد.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢٣٩]. فجاء في حالة الخوف بـ (إن) لأنها حالة طارئة ونادرة، ثم تحول عند ذكر الأمن إلى (إذا) لأن الأمن هو الأصل في حياة الناس.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

فجاء بـ (إذا) في الضرب في الأرض؛ وذلك لأنه كثير ومتكرر في حين تحول إلى (إن) عند ذكر الخوف؛ لأن الخوف حالة نادرة وقليلة بالنسبة إلى غيرها من حالات الأمن.

ومنه قوله تعالى -في آيات الأحكام: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ... وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٠-٢٣١].

فأتى بـ (إن) في الطلاق ثلاثاً؛ لأن نادر الوقوع والحصول ولا يرغب فيه المشرع، كما أنه لو حصل فإن طلاقها من الآخر ورجوعها إلى الأول أمر مشكوك فيه ونادر

الوقوع أيضاً، في حين أتى بـ (إذا) في قوله: "وإذا طلقتم النساء"، وهذا في الطلاق الرجعي العادي، وهو كثير الوقوع والحصول.

وأشار علماء البلاغة^(١): "أنه لما كانت (إذا) تدخل على الأمر المجزوم تحققه وحصوله، فالغالب دخولها على الفعل الماضي؛ لدلالته على تحقق الفعل وحصوله، في حين أن الغالب مع (إن) دخولها على المضارع". وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

"فقد جيء فيه بلفظ (إذا) في جانب الحسنه حيث أريدت الحسنه المطلقة لا نوع منها، كما في قوله تعالى: "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله"؛ لكون حصول الحسنه المطلقة مقطوعاً به كثرة ووقوعاً واتساعاً، ولذلك عرفت ذهباً إلى كونها معهوده...، وجيء بلفظ (إن) في جانب السيئه مع تنكير السيئه إذ لا تقع إلا في الندرة بالنسبة إلى الحسنه المطلقة، ولا يقع إلا شيء منها"^(٢).

فأفادت (إذا) في هذا السياق الدلالة على الجزم واليقين في حصول الحسنه والكثرة في الوقوع والاتساع، ودلّ على ذلك: أيضاً مجيء فعل الشرط ماضياً للدلالة على التحقق والحصول، في حين دلت (إن) على الندرة والقلة في وقوع السيئه، ودلّ على ذلك أيضاً مجيء الشرط فعلاً مضارعاً، وهو دون الماضي في التحقق والحصول.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

(١) - انظر: البرهان، ٣٦٢/٢، والإيضاح، ١١٧/٣.

(٢) - مفتاح العلوم، ٢٤١.

ففي مجيء (إذا) مع فعل الدعوة إلى التوحيد، دلالة على تحقق هذه الدعوة وتكرارها حتى إنها لتكاد تفرغ أذانهم لكثرة تكرارها، في حين دل مجيء (إن) مع فعل الشرك على أنهم كانوا يستجيبون لأدنى داعٍ للشرك والكفر بالله، وفي هذا توبيخ لهم وتقرير أيما تقرير. وساعد على هذا المعنى أيضاً مجيء فعل الكفر ماضياً "كفرتهم" إشارة إلى مسارعتهن إلى الكفر وتحقيقه منهم^(١).

وقد عمل علي فودة إحصاءاً لاستعمال (إن) و(إذا) في القرآن الكريم فوجد أن (إن) الشرطية وردت في أربعة وخمسين وخمسة مائة موضع من القرآن، في حين وردت (إذا) الشرطية تسعاً وثلاثمائة مرة تقريباً^(٢). وفي كل الحالات السابقة كانت (إذا) تدل على تحقق الحدث أو الكثرة في الوقوع، في حين وردت (إن) فيما يحتمل الوقوع وعدمه، أو في الذي يحدث قليلاً، وهو ما يؤيد ما ذهب إليه علماء البلاغة والنحو في ذلك.

وفي هذا الإحصاء وما سبق ذكره من أقوال العلماء في التفريق الدلالي بين الحرفين، وما وقفنا عليه من الآيات السابقة، فيه رد على ما ذهب إليه مهدي المخزومي في قوله^(٣): "و(إن) و(إذا) تستعملان فيما يحتمل تحققه، وعدم تحققه، لا ترجيح لأحدهما على الآخر". وهذا الكلام فيه تجاهل لما قاله علماء النحو والبلاغة في التفرقة بين استعمال هاتين الأدوات، وتجاهل لما يشهد به الذوق في استعمال القرآن لهما في المعاني المختلفة^(٤).

(١) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٧٦.

(٢) - "الشرط بـ (إن) و(إذا) في القرآن الكريم"، علي فودة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م ٤، السنة الرابعة، ١٩٧٦، ٦٠-٦١، ومعاني النحو، ٧٧/٤.

(٣) - في النحو العربي، قواعد وتطبيق، ٤١، وانظر كذلك: في النحو العربي نقد وتوجيه، ٢٩٦.

(٤) - الشرط بـ (إن) و(إذا) في القرآن، علي فودة، ٦٢.

المبحث الثاني

التحول في حذف الحرف وذكره

هذا النمط يرد بكثرة في التعبير القرآني، والذي يهمننا في هذا المقام هو التحول عن ذكر الحرف نفسه إلى حذفه، أو العكس، في السياق ذاته؛ لأن هذا التحول يدعو إلى التساؤل عن سبب عدم الإطراد في الذكر والحذف للحرف، وهو ما يمثل عدولاً بيّناً في هذا المقام، ولا يعيننا الذكر والحذف لحروف المعاني بشكل عام.

النمط الأول: التحول عن ذكر الحرف إلى حذفه:

ويمكننا في هذا المقام، ذكر نماذج على هذا النوع من التحول نعنى بتعليقها، وتحليلها، لمعرفة سر التحول فيها، فمن هذه الأشكال:

١. التحول عن ذكر (اللام) الواقعة في جواب الشرط إلى حذفها.

كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعْرِضُونَ * بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَرْجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠].

واللافت للنظر في هذا السياق القرآني البديع أن الفعل (جعل) الذي هو بمعنى التحويل والتصيير، قد ذكر في السياق مرتين، مرة مع الزرع وأخرى مع الماء، وهو في الموضعين جواب الشرط "لو نشاء لجعلناه حطاماً"، و"لو نشاء جعلناه أجاجاً" لكنه

في المرة الأولى ذكر مقترباً باللام الواقعة في جواب الشرط، وفي المرة الثانية ذكر محذوفاً منه اللام.

ولمعرفة سبب ذلك يجب أن ندرك أن اللام الواقعة في الجواب تفيد مزيد تحقيق وتأکید، فيزداد الفعل معها تأكيداً، وعند حذفها كان الفعل دون المرة الأولى في التأكيد، ولعل السر في تأكيد الفعل (لجعلناه) مع ذكر الزرع في قوله: "لو نشاء لجعلناه حطاماً...". وعن عدم التأكيد مع ذكر الماء راجع إلى أمور عدة^(١):-

أولاً: أن ذلك يرجع إلى قضية الجهد المبذول، فالإنسان مع الزرع يبذل مجهوداً كبيراً في الحرث والسقي مما لا يكون في نزول الماء من السماء، وهو ما يتوافق مع دلالة السياق، فقد أشارت الآية إلى ذلك: "أفأنتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" والشيء الذي يبذل فيه الإنسان جهداً وطاقة يكون ضياعه خسارة كبيرة وفادحة عليه- وهو ما شار إليه المولى عزَّجَلَّ بقوله: ﴿فَطَلْتُمْ تَفْكُهُونَ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ، بل نحن محرومون﴾. وتفكّهون: أي: تندمون على اجتهدكم فيه، ومغرمون: أي: مثقلون بالديون.

فلذلك ناسب هنا مزيد التأكيد بقوله: (لو نشاء لجعلناه حطاماً)، في حين أن نزول الماء من السماء لم يبذل فيه الإنسان أي جهد، فلم يكن في ذهابه عنه من الغبن والحزن ما يكون في الأولى، لذا لم يحتج إلى مزيد تأكيد.

(١)- انظر في ذلك: التعبير القرآني، فاضل السامرائي ١٣٠-١٣١، وإعجاز القرآن، فضل حسن عباس ٢٠٣، وإعجاز القرآن البياني، صلاح الخالدي ١٩٦.

ثانياً: أن ذلك راجع أيضاً إلى ما هو أهم، فالمطعوم مقدم على المشروب في حياة الناس يقول الزمخشري^(١): "إن هذه اللام" لجعلناه حطاماً" مفيدة للتوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيده يفقده أشد فأصعب، لأن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم".

ثالثاً: أن ذلك راجع أيضاً إلى التحويل والإعادة، فتحويل الماء العذب إلى ماء ملح "أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء المالح أكثر من الماء العذب ...، لذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد، لذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره"^(٢).

وكذلك حال الإعادة، فالماء المالح يمكن إعادته إلى ماء عذب بواسطة وسائل تحلية متعددة على خلاف الزرع الحطام الذي يمكن إرجاعه إلى فاكهة وحب. فالحرمان فيه أشد فناسب مجيء اللام معه لزيادة التأكيد.

رابعاً: أن في ذلك تأكيداً على قدرة المولى عزَّجَلَّ، فالسياق سياق تقرير بقدرة الخلق والإيجاد (نحن خلقناكم فلولاً تصدقون،...) ولما كان للإنسان في الزرع جهد مبذول. فقد يدعوه ذلك غروراً أن يعتقد أن ذلك الإنبات والزرع نتيجة جهده

(١) - الكشف ٥٧ / ٤.

(٢) - روح المعاني ١٤٩ / ٢٧.

فحسب، فناسب مجيء اللام هنا للتوكيد، في حين أنه لا يدعي أحد القدرة على إنزال الماء، فلم يكن هناك حاجة إلى التأكيد^(١).

٢. التحول عن ذكر (لام) التعليل إلى حذفها:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

فقد تحول التعبير القرآني عن ذكر لام التعليل في (وليعلم) إلى حذفها في (ويتخذ) ثم تحول إلى ذكرها فقال: ثم تحول إلى حذفها مرة أخرى فقال: (ويمحق). فيكون قد ذكر لام التعليل في الفعلين (ليعلم) و(ليمحّص) وحذفها من الفعلين (يتخذ) و(يمحق).

"وتظهر بلاغة هذا التحول في أن ما ذكر فيه اللام أكد مما لم يذكر فيه؛ ذلك أن العلة الأولى في الآية أوسع وأكثر وأهم مما يليها، فقلوه: "وليعلم الله الذين آمنوا" هو غرض عام يشمل عموم الذين آمنوا في ثباتهم وتغيرهم وعموم سلوكهم علماً يتعلق به الجزاء، أما اتخاذ الشهداء، فليس في سعة الغرض الأول، ولا شك أن الشهداء أقل من عموم المؤمنين والغرض الأول أعم"^(٢).

(١)- انظر في الوجوه السابقة كلاً: من البرهان للزركشي ٨٩/٣، الكشاف ٥٧/٤، تفسير أبي السعود

١٩٨/٨، وأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل ١٧٧-١٧٨.

(٢)- الجملة العربية والمعنى ١٩٦-١٩٧.

"وكذلك الأمر بالنسبة إلى قوله: "وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين"، فإن هذا نظير ما قبله، فإن تمحيص المؤمنين وإظهارهم على حقيقتهم، ومعرفة مقدار ثباتهم وإخلاصهم هو غرض عام وليس كذلك الغرض المعطوف فإنه ليس في سعة العلة الأولى، فإنه سبحانه لم يمحق الكافرين على وجه العموم ولا أنه أدخل الأرض منهم بل بقي الكافرون مع المؤمنين على ظهر الأرض، ثم إن هذه الآيات نزلت بعد معركة (أحد) وقد محّص الله الذين آمنوا فيها ولم يمحق الكافرين فيها وإنما هو وعد بذلك فهو ليس بدرجة ما قبله من التوكيد، فإن الغرض الأول حصل وإن الثاني سيحصل، وهو إعجاز وذلك أنه أخبر بأنه يمحق الكافرين مع أنهم انتصروا وكان كما أخبر، وهذا توسع في المعنى من أكثر من وجه^(١).

ونخلص من هذا الكلام إلى أن (لام) التعليل في هذا السياق أفاد ذكرها دلالة العموم والسعة والشمول، وفي حذفها خروج عن تلك الدلالة.

وعلى العكس من ذلك في سياق آخر أفاد ذكرها الخصوص، وهذا يدل على أن السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة لذكر الحرف أو حذفه، من ذلك قوله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

قال أحمد بن المنير (ت ٦٨٣هـ)^(٢): "فإن قلت: هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا". أو منها تركبون ومنها تأكلون وعليها تبلغون؟

(١) - السابق نفسه.

(٢) - حاشية الكشف ٣/ ٤٣٨.

ثم يحيب ابن المنير (ت ٦٨٣هـ) بقوله: والجواب أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هو الركوب، وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في بلوغ الأوطار، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض، وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها، فهي وإن كانت حاصلة منها غير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر، فلذلك جردت هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود".

والمقصود بالأنعام هنا الإبل فتكون هذه اللام قد دلت على اختصاص هذا النوع من الأنعام بالركوب وبلوغ المنافع أكثر من غيرها، ودل حذفها من فعل الأكل فقال (ومنها تأكلون) ولم يقل (ولتأكلوا منها) على أن هذه المنفعة وإن تحققت منها فليست مشهورة بها ومقصورة عليها، بل تحقق هذه المنفعة من غيرها حاصل ومشهور.

٣. التحول عن ذكر اللام الموطئة للقسم إلى حذفها:

كما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

فقد ذكرت اللام الموطئة للقسم في قولهم (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) ثم تحول إلى حذفها بعد ذلك في قولهم (وإن قوتلتم لنصرنكم) وفي التحول إلى حذف اللام الموطئة للقسم وهي تفيد التوكيد دليل على أن المنافقين ليس عندهم النية أصلاً

ولا القدرة على نصر حلفائهم، فذلك يحتاج منهم إلى التضحية بالمال والنفس، "بخلاف الخروج فهو لا يكلفهم ثمناً كبيراً، فكان التأكيد على الخروج دون النصر، مما يشير إلى جُبْنهم من جهة، وخداعهم من جهة أخرى" (١).

٤- التحول عن ذكر لام التعريف إلى حذفها:

منه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤-٢٤٠].

جاءت لفظة (المعروف) معرفة، في قوله: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) ثم تحول عن التعريف إلى التنكير فقال: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف)، ورافق التحول عن التعريف إلى التنكير عدولٌ عن حرف الجر (الباء) في قوله (بالمعروف) إلى حرف الجر (من) في قوله (من معروف)، ولا شك أن لهذا التحول سراً يفصح عنه السياق القرآني.

فدلالة السياق تشير إلى أن لفظ (المعروف) المذكور أولاً بالتعريف يختلف في معناه عن (معروف) المذكور ثانياً بالتنكير، لأن المألوف في الاستعمال اللغوي أن يأتي اللفظ أولاً نكرة ثم إذا كُرِّر يكون معرفة، فيوحي التعريف أن المقصود باللفظ هو المذكور سابقاً

(١)- التعبير القرآني والدلالة النفسية ٢١٧.

وتكون (ال) تفيد العهد الذكري، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

فدل ذكر الرسول مُعرِّفاً أنه الرسول السابق ذكره، ولكن الحاصل في هذا السياق القرآني قد جاء على العكس من ذلك، إذ ورد اللفظ معرفة ثم أعيد ذكره نكرة، مما يوحي أن المعنى يختلف في كليهما.

يعلل الكرمانى (ت ٥٠٥ هـ) ذلك فيقول^(١): "إن هذه الآية بإجماع المفسرين مقدمة على تلك الآية في النزول، وإن وقعت متأخرة في التلاوة، ولهذا نظير في القرآن في موضع آخر أو موضعين، وقد سبق بيانه، وأجمعوا أيضاً على أن هذه الآية منسوخة بتلك الآية، والمنسوخ سابق على النسخ ضرورة. فصح ما ذكرت، أن قوله: "بالمعروف" هو ما ذكر، في قوله: "من معروف"، فتأمل فيه فإن هذا دليل على إعجاز القرآن".

والكرمانى في ذلك يذهب إلى أن كلمة (المعروف) هي نفسها كلمة (معروف) من حيث المعنى، ويعلل مجيئها على عكس مألوف اللغة من مجيء اللفظ نكرة أولاً ثم يعرف لاحقاً، بأن هذه الآية الأخيرة متقدمة في النزول فهي منسوخة بالآية السابقة لها في الترتيب المصحفي، فيكون قوله: "فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف"، قد نزل سابقاً لقوله تعالى: "فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف" ولكن القول بالنسخ مختلف فيه^(٢).

(١) - البرهان في توجيه متشابه القرآن، ٤٢.

(٢) - ذهب الجمهور إلى القول بالنسخ، وذهب الإمام مجاهد إلى عدم القول بالنسخ وأن هاتين الآيتين تنزلتا على حالتين في عدة المتوفى عنها زوجها، وهذا الأخير رجحه مصطفى زيد في رسالته للدكتوراه "النسخ في القرآن"، ٢ / ٧٨٠-٧٨١، وانظر: تفسير الرازي، ٦ / ١٥٨.

وللخطيب الإسكافي تعليل دقيق لهذا التحول فيذهب إلى أن المقصود بـ (المعروف) ههنا الزواج خصوصاً، وأما غير المعروف فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزئين، ونحوه.

يقول الإسكافي^(١): "إن الأول تعلق بقوله: والذين يتوفون منكم ويدرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف...؛ أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة فالمعروف ههنا أمر الله المشهور وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده".

والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود، فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر".

ومما يؤيد ما ذهب إليه الإسكافي أمور منها: "أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: "يتربصن" بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً"، فقوله: (يتربصن) معناه: يصبرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هِنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص، ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

(١) - درة التنزيل، ٥٢-٥٣.

ومن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين، بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ففي هذا السياق وردت كلمة الضر معرفة بلام التعريف (الضر) ثم تحول عن تعريفها إلى التنكير بحذف لام التعريف، في قوله: "كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ".

وجاء التحول عن التعريف إلى التنكير لكلمة (الضر) للدلالة على المفارقة بين حالين للإنسان، حال شدته وكربه وقد حل به الضر الكبير الذي أصبح يمثل له شغله الشاغل، فهو يدعو الله على جنبه وقاعداً وقائماً، وحال رفع الضر عنه وكشفه فهو في غفلة عن نعمة الله وكأنه لم يمسسه ضر قط^(٢).

فدل التعريف بـ (اللام) على عظم هذا الضر وشدته، وعظم وقعه على نفس صاحبه، ودل التنكير بعد ذلك على شدة تناسي الإنسان لهذا الضر الذي رفع عنه وكأنه نكرة لم يعرفه ولم يك له عهد به في حياته.

(١) - التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ١٩١.

(٢) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ١٨٧.

٥. التحول عن ذكر (الفاء) الواقعة في الجواب إلى حذفها:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

فقد دخلت (الفاء) في ذكر جزاء المؤمنين بقوله: "فلا خوف عليهم" وحذفت في جزاء الكفار بقوله: "أولئك أصحاب النار".

وهذه الفاء الواقعة في جواب الاسم الموصول الشبيه بالشرط، فيها معنى السببية الدال على ارتباط الخبر بالمخبر عنه ارتباط العلة بالمعلول. وهي التي ذكرها ابن هشام (ت ٧٦١هـ) ^(١) بقوله: "كما تربط الفاء الجواب بشرطه، كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشرط، وذلك في نحو (الذي يأتيني فله درهم) وبدخولها فهم ما أراده المتكلم من ترتب لزوم الدرهم على الإتيان، ولو لم تدخل احتمال ذلك وغيره".

وقد علل البيضاوي (ت ٧٩١هـ) دخول (الفاء) في قوله تعالى: "فلا خوف" وسقوطها من (أولئك)، بقوله ^(٢): "وإدخال (الفاء) في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمساحة في الوعيد".

والمراد بالمبالغة هنا التوكيد، وفسر الشهاب (ت ١٠٦٩هـ) في حاشيته على البيضاوي وجه المبالغة بقوله ^(٣): "ووجه المبالغة في الوعد، لعدم تخلفه جعله سبباً

(١) - مغني اللبيب، ٢١٩.

(٢) - حاشية الشهاب، ١٦٦/٤.

(٣) - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

عن التقوى والعمل الصالح المشعر بأنه لا ينفك عنه، إذ المعلول لا يتخلف عن العلة غالباً، بخلاف الوعيد، فإنه يجوز تخلفه".

فأفادت (الفاء) التوكيد في وقوع الجزاء للمؤمنين، وحذفت من جزاء الكفار، للإشارة إلى المفارقة بين الجزاءين.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

جاءت (الفاء) في قوله: "فلهم عذاب جهنم"، وحذفت من قوله (لهم جنات) "وذلك لأن سياق المقام يقتضي توكيد الآية الأولى، وذلك أنها جاءت تعقيماً على الذين فتنوا المؤمنين عن دينهم، وجعلوهم في الأحاديث، وأضرمو عليهم النار: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٤-٦]" (١).

ومجيء (الفاء) السببية هنا، فيها إشارة أيضاً إلى استحقاقهم العذاب بسبب فتنتهم للمؤمنين، وهذه الآية شبيهة بالآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقد علل حذف (الفاء) في آية الأعراف بأنه من قبيل التسامح في الوعيد، كما عللها البيضاوي، وجاء ذكرها في آية البروج؛ لأن سياق آية البروج فيه تهديد بالوعيد والعذاب أكثر من سابقه، فهؤلاء الذين فتنوا المؤمنين قد تحقق في حقهم

(١) - معاني النحو، ٤/ ١٢٩.

العذاب بقوله: "ثم لم يتوبوا فلهم" أما النوع الأول من الكافرين في آية الأعراف فهو في عموم المكذبين، وقد يرجى منهم التوبة، فلم تقترن (الفاء) الدالة على استحقاق العذاب، وثبوته في حقهم، فكان التسامح من هذا القبيل.

وأما التحول إلى حذفها في حق المؤمنين بقوله (لهم جنات تجري)، فللدلالة على أن دخول الجنة بمحض التفضل من المولى **عَزَّجَلَّ** والعطاء وليست مستحقة وجوباً بعملهم الصالح، كارتباط العلة بالمعلول، بدليل حديث رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** القائل ^(١): "لن يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة".

فحذف (الفاء) من ذكر أهل الجنة وذكرها مع أهل العذاب؛ للدلالة على أن عذابه لهم بموجب عدله، إذ استحقوا ذلك بموجب سوء الأعمال، وإدخاله **عَزَّجَلَّ** المؤمنين الجنة بموجب رحمته وفضله.

٦. التحول عن ذكر حرف الجر إلى حذفه:

منه قوله تعالى: **﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** * **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾** [النور: ٣٠-٣١].

(١) - أخرجه مسلم من رواية عائشة، ٤/ ٢١٧١، برقم ٢٨١٨، ونصه كاملاً: "سَدُّوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدْخَلَ الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل".

إذ دخل حرف الجر (من) على غض البصر دون حفظ الفرج، وقد علل الزمخشري ذلك بقوله^(١): "من للتبعض والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة، وأباه سيوبه، فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج، قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع ... وأما الفرج فمضيق".

وإذا كان الزمخشري قد نظر في تحليل الآية من زاوية الفعل نفسه، ما كان منه واسعاً وما كان منه مضيقاً، فإن البقاعي قد نظر في تحليل الآية ومعرفة سبب التحول فيها من زاوية أخرى، وهي إرادة الفعل نفسها، وما كان منه باختيار وما ليس للمرء فيه اختيار، فيرى "أن" من "التبعية مع البصر"، إشارة إلى العفو عن النظرة الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التهادي، ولما كان حفظ الفرج لخطر الواقعة أسهل من حفظ البصر؛ ولأنه لا يفعل به من غير اختيار، حذف "من" لقصد العموم، فقال: "ويحفظوا فروجهم" أي: عن كل حرام من كشف وغيره ... الخ^(٢).

٧. التحول عن ذكر حرف العطف إلى حذفه:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ... وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

فقد تحول عن ذكر حرف العطف (ثم) في قوله: (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)، إلى حذفه في قوله: (إذا أنتم تخرجون).

(١) - الكشف، ٦٠ / ٣.

(٢) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٥٤ / ١٣.

علل الرازي^(١) ذلك فقال: "قال ههنا: "إذا أنتم تخرجون"، وقال في خلق الإنسان أولاً: (ثم إذا أنت مبشر تنتشرون)". فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدرّيج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدرّيج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم". وذلك أدل على قدرة البعث بعد الموت، وأن الإعادة أهون من البدء.

النمط الثاني: التحول عن حذف الحرف إلى ذكره:

١. التحول عن حذف حرف العطف إلى ذكره:

كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...﴾ [الزمر: ٧١-٧٣].

فقال في فتح أبواب جهنم (فتحت أبوابها) بدون (واو) ثم تحول عن ذلك إلى ذكر الواو مع أبواب الجنة، فقال: "وفتحت أبوابها".

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه (الواو)، فذهب بعضهم إلى القول: "هذه واو الثمانية ودخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة، فلم تدخلها الواو، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب، ولا أئمة العربية وإنما هو استنباط بعض المتأخرين"^(٢).

(١)- تفسير الرازي، ١١٦/٢٥.

(٢)- التفسير القيم، ابن القيم، ٤٢٤، وقد رد ابن المنير في حاشية الكشف على من قالوا إنها (واو) الثمانية، بقوله: "ولا كمن يقول: إنها واو الثمانية، فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم، ويعدّون من هذه الواو

وذهب بعضهم إلى القول بأنها زائدة، فذكر ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ^(١) أن الكوفيين ذهبوا إلى "أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ) وأبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، وأبو القاسم بن برهان من البصريين، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز".

ودليل القائلين بالزيادة أنها حذفت من الآية الأخرى، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

وما ذهب إليه البصريون في الحقيقة هو أقرب في الانسجام مع السياق القرآني، إذ ليس في القرآن حشو ولا زيادة: "والواو شأنها شأن جميع الحروف -وضعت لمعنى- فذكرها دون معناها يوجب اللبس كذا لا يصح الحكم بزيادتها، وإنما يجري الكلام على أصله بتقدير محذوف يتمم الكلام" ^(٢).

في قوله في الجنة -وفتحت أبوابها- بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها فتحت أبوابها، قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة واواً تصحب الثانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فصحبه الواو؟ وربما عدّوا من ذلك -والناهون عن المنكر- وهو الثامن من قوله: "الثائبون" وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لترابط بينها وبين الأولى التي هي (الآمرون بالمعروف) لما بينها من التناسب والربط؛ ألا ترى اقترانها في جميع مصادرهما ومواردهما كقوله: (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وكقوله: (وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر)، وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: "ثيَّبات وأبكاراً" لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهب تحذفها فتقول ثيَّبات أبكاراً لم يستدّ الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء) (حاشية الكشف، ٤٧٨-٤٧٩).

(١)- الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة الرابعة والستون، ٤٥٦/٢.

(٢)- الباب في علل البناء والإعراب، ٤١٩/١.

ويؤيد ابن جني القول بعدم الزيادة فيرى^(١): "أن القول بزيادة الواو أمر لا يثبت البصريون، لكنه عندنا على حذف الجواب، أي: حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها، قال لهم خزنتها كذا وكذا، صدقوا وعدهم وطابت نفوسهم، ونحو ذلك مما يقال في مثل هذا".
ومذهب سيبويه أن الجواب محذوف، وأن الواو ليست زائدة، يقول سيبويه^(٢):
"سألت الخليل عن قوله جل ذكره: "حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها"، أين جوابها؟ وعن قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]. فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر.

الجواب في كلامهم، لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام"، وأما استدلال القائلين بالزيادة بقياس هذه الآية على سابقتها التي حذفت منها الواو في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]. فلا يستقيم على حجة؛ لأنه لو أن كل حرف ذكر في آية ولم يذكر في أخرى عدّ حرفاً زائداً لكان في ذلك إهمال للسياق والمعنى.

فعلى سبيل المثال نجد المولى عز وجل يقول حكاية عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

في حين قال حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦]. فأتى بالواو في مقولة قوم شعيب وحذفها من مقولة قوم صالح، فهل نعد الواو في الآية الثانية زائدة؛ لأنها لم تذكر في الأولى؟

(١) - الخصائص، ٢/ ٤٦٢.

(٢) - الكتاب، ٣/ ١٠٣.

والحقيقة أن القول بالزيادة في هذا السياق أمر مرفوض ويجانب التدبر والتأمل في كتاب الله، فقوم صالح قالوا لنيهم إنما أنت من المسحّرين وقصدوا بكلمة (المسحّرين)، أي: صاحب رئة يأكل ويشرب، ومنه حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: "توفي النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في بيتي وفي نوبتي وبين سَحْرِي وَنَحْرِي"^(١). فهذا وصف له بالبشرية، لهذا جاء عقبه (ما أنت إلا بشرنا مثلنا) فإن هذه الجملة جاءت تأكيداً لما قبلها"^(٢).

فلما كانت الجملة الثانية (ما أنت إلا بشر مثلنا) تأكيداً لما قبلها حسن الفصل فحذفت الواو.

وأما الآية الثانية، فمعنى كلمة (مُسَحَّر) أي: مسحور؛ وهو من أصابه السحر، ثم قالوا: (وما أنت إلا بشر مثلنا) فحسن العطف؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وكأنهم بذلك يصفونه بوصفين كونه مسحوراً وكونه بشراً مثلهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨-١٩].

في حين قال -في موضع آخر-: ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

(١)- رواه البخاري، ١١٢٩/٣، برقم ٢٩٣٣، وقال ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) في النهاية في غريب الأثر، ٣٤٦/٢، وفي حديث عائشة مات رسول الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي، السحر: الرئة، أي: أنه مات وهو مستند إلى صدرها ما يحاذي سحرها منه، وقيل السحر: ما لصق بالخلقوم من أعلى البطن ...

(٢)- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، فضل عباس، ٤٤٤.

فقال في الآية الأولى: "ومنها تأكلون" بالواو، وفي الآية الثانية (منها تأكلون)، بدون الواو، فهل الواو هنا زائدة؛ لأنها لم تذكر في الآية الأخرى؟ هذا كلام لا يقوم على أساس علمي يدعمه البحث والدليل وإنما هو ضرب من التخمين.

فيجب أن نفرق بين السياقين، ونفهم كل حرف من ذكر أو حذف في سياقه الذي ورد فيه، فالآية الأولى هي في وصف فواكه الدنيا، ومنافعنا بها تتعدد من بيع وشراء وصنع أدوية، وأطعمة متنوعة، فكان العطف بالواو إشارة إلى تعدد منافعها من هذه المنافع الأكل، فكأنه قال: منها تبتاعون وتسترون ومنها تصنعون دواءكم، ومنها تأكلون. فهناك تقدير بالحذف، وما بعد الواو معطوف عليه.

في حين أن الآية الثانية هي في وصف فاكهة الجنة، وهي مخصصة للأكل فقط فحذف الواو، وقال: (منها تأكلون)، فكان كُُلُّ من الحذف والذكر مناسب في سياقه الوارد فيه.

وكذلك الحال في شأن هذه الآية التي نحن بصدددها، وهي قوله تعالى: (وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...) فذكر الواو مع فتح أبواب الجنة، وحذفه في ذكر أبواب النار، فقال هناك: "حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها"، فقد ذكرت الواو لتؤدي دلالة معينة لا يستقيم المعنى بدونها، وبذلك ينتفي القول عنها بالزيادة.

ويتقرر بوجود (الواو) أن يكون معنى الآية الكريمة: "أن أهل الجنة يحيونها فيجدون أبوابها مفتحة، وهذا المعنى أشارت إليه آية كريمة أخرى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ

﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، وهو ما تؤيده هذه الواو، فهي واو الحال، أما الكافرون فيجزيئون جهنم، فيجدون أبوابها مقفلة" (١).

فدل حذف الواو في سياق الحديث عن الكافرين أن قوله: "فتحت أبوابها"، هي جواب الشرط (إذا) فكأنهم حين جاؤها فتحت أبوابها على الفور في وجوههم بالعذاب، وفي ذلك دلالة على أنها في أصلها موصدة، لا تفتح إلا عند قدوم المجرمين إليها، فهي كالسجن على السجين، -أعاذنا الله منها-.

بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩]، ويكون بذلك قد انتهى الحديث عن أهل النار بفتح أبوابها ودخولهم فيها. أما أصحاب الجنة فقد دل حرف (الواو) في قوله (وفتحت أبوابها) أن أبواب الجنة مفتوحة قبل مجيء المؤمنين إليها، (فالواو) هنا (واو) الحال، أي: حتى إذا جاؤها وهي مفتوحة الأبواب، فدل وجود الواو على حذف جواب الشرط (إذا)، وفي حذف الجواب "دلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن" (٢).

وقد يرد التحول عن حذف الواو إلى ذكرها ليفيد الجمع بين صفتين من الصفات، نحو قوله تعالى: ﴿حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَأَقْبِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ١-٣].

(١) - لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، فضل عباس، ١٩٦.

(٢) - الإيضاح، القزويني، ١/ ١٨٨.

ففي محيء (الواو) في قوله تعالى: (غافر الذنب و قابل التوب) "إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها له محاة للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول" (١).

وفي سياق آخر يتحول عن حذف الواو إلى ذكرها للدلالة على النقيض، مما سبق وذلك "للإشارة إلى استحالة الجمع بين الوصفين لتنافي المعنى فيهما" (٢). كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكَ أَنْ يُدِلَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مَسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥].

فقد جاء بـ (الواو) مع (ثيَّاب وأبكاراً)؛ "لأنهما صفتان متنافيتان، لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات، فلم يكن بدُّ من الواو" (٣).

ويرد التحول إلى ذكر الواو بعد حذفها للدلالة على زيادة الاهتمام بالوصف (٤) الداخلة عليه، كقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]. فالصفات توالى في الآية دون ذكر عاطف فيها، ثم ذكر حرف العطف في قوله "والناهون عن المنكر"، وذلك لمزيد الاهتمام بهذه الصفة على وجه الخصوص؛ لما فيها من المشقة والصبر على ذلك، يقول الرازي (٥): "وفي إدخال

(١) - الكشف، ٤١٣/٣.

(٢) - انظر: البلاغة القرآنية عند الزمخشري، محمد أبو موسى، ٣٢٩.

(٣) - الكشف، ١٢٨/٤.

(٤) - انظر: معاني النحو، ٢٠٥/١.

(٥) - تفسير الرازي: ٢٠٥/١٦.

الواو على هؤلاء والناهون، وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه، ولا تعلق لشيء منها بالغير، أما النهي عن المنكر فعبادة متعلقة بالغير، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهور الخصومة ... فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات، فأدخل عليها الواو تنبيهاً على ما يحصل فيها من زيادة المشقة والمحنة".

وقد يرد التحول إلى ذكر الواو بعد حذفها للدلالة على التحقيق والتقرير، ويمكن أن نسميها (واو) التحقيق، لأنها تقرر القول الداخلة عليه وتحققه.

وقد ذكر الزمخشري أن هذه (الواو) ترد لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

يقول الزمخشري^(١): -عن الواو في وقوله (وثامنهم كلبهم)-: "وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أن الله - سبحانه - أتبع القولين الأولين قوله رجماً بالغيب، وأتبع الثالث قوله وما يعلمهم إلا قليل".

فالواو الداخلة في قوله: "ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم" هي واو التحقيق وال ترجيح^(٢)، لأنها أفادت أن هذا القول هو الصواب في عدة أهل الكهف، ويرى

(١)- الكشف، ٢/ ٤٧٨-٤٧٩.

(٢)- وانظر في ذلك قول أحمد بن المنير في الرد على من قالوا: إنها واو الثانية، وهو رد مفصل في حاشية الكشف، ٢/ ٤٧٩.

الباحث أن هذه (الواو) مشعرة بأن قوله (وثامنهم كلبهم)، هو من تعقيب الله **عَزَّجَلَّ** على هذا القول، فكأنهم قالوا: هم سبعة، وعقب المولى **عَزَّجَلَّ** بقوله بعد ذلك "وثامنهم كلبهم"، والتقدير: نعم هم كذلك وثامنهم كلبهم. وذلك كمن يقول: زيد شاعر فتجيبه بقولك: وفقهه، فقولك: وفقهه تضمن إقراراً للقول السابق وزيادة، فهي (واو) التحقيق والتقرير.

ولهذا نظائر في القرآن منه قول ملكة سبأ: **﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾** [النمل: ٣٤]، فعقب المولى **عَزَّجَلَّ** على قولها بقوله: "وكذلك يفعلون"، لتقرير القول السابق وتأكيده.

وعلى افتراض انتفاء التعقيب فيه، ففي مجيء (الواو) أيضاً دلالة على التأدب، فالقول الداخلة عليه (وثامنهم كلبهم) أفاد أن قائليه كانوا متأدبين، إذ لم يجعلوا الكلب فرداً مندرجاً في عدة أهل الكهف كما هو الحال في القولين السابقين (ثلاثة رابعهم) و(خمسة سادسهم) وإنما هو مغاير لهم، فهو حيوان، وهم بررة أطهار.

ويرد التحول إلى ذكر الواو بعد حذفها في أسئلة القرآن خاصة للدلالة على حصولها مجتمعة في وقت واحد، وذلك في قوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، ... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمُحِيزِ...﴾** [البقرة: ٢١٥-٢٢٢].

فهذه جملة من الأسئلة وجهت إلى الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وقد توخى القرآن الكريم الفصل في بعضها، والوصل في بعضها الآخر بالواو؛ وذلك لأن "الأسئلة الثلاثة الأولى قد طرحت على الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في أوقات متفرقة فكان

الفصل بينها في التركيب، أما الذي جمعته واو العطف؛ فلأنه كان مطروحاً عليه في وقت واحد، فكان الفصل والوصل زمنياً دالاً على حصول الأحداث في الزمن^(١).

٢. التحول عن حذف (فاء) الجزاء إلى ذكرها:

وهذه الفاء هي التي تدخل على الخبر فتربط بينه وبين المبتدأ برابط السببية، يقول سيبويه^(٢): "وسألته قوله: الذي يأتيني فله درهمان، لم جاز دخول الفاء ههنا، والذي يأتيني بمنزلة عبدالله، وأنت لا يجوز لك أن تقول: عبدالله فله درهمان؟ فقال: إنما يحسن في الذي؛ لأنه جعل الآخر جواباً للأوّل، وجعل الأوّل به يجب له الدرهمان، فدخلت الفاء هاهنا، كما دخلت في الجزاء إذ قال: إن يأتيني فله درهمان، ... فإذا أدخل الفاء فإنما يجعل الإتيان سبب ذلك. فهذا (جزاء) وإن لم يُجزم؛ لأنه صلة".

وقد ورد كثيراً في التعبير القرآني التحول إلى ذكر هذه الفاء بعد حذفها، وفي هذه المغايرة دلالة مقصودة يقتضيها سياق المقام، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١].

فقد تحول عن حذف (الفاء) من قوله (لن تقبل توبتهم) إلى ذكرها في قوله (فلن يقبل من أحدهم). وسر هذا التحول كما يقول النيسابوري^(٣): "هو أنه لما قيد في

(١) - انظر قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلأوي، ٥٢٤، والكشاف، ١/ ٣٦٢.

(٢) - الكتاب، ٣/ ١٠٢.

(٣) - غرائب القرآن، النيسابوري.

الجملة الثانية أنهم قد ماتوا على الكفر زيدت فاء السببية الجزائية تأكيداً للزوم وتغليظاً في الوعيد".

وقد تساءل الزمخشري أيضاً عن سر ذلك فأجاب^(١): "فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين (لن تقبل)، بغير فاء وفي الأخرى (فلن يقبل)؟ قلت: قد أُوذِنَ بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم".

فأدركنا حينئذ سر هذا التحول، في أن (الفاء) حذفت من الآية الأولى؛ لأنها في شأن الكفار حال حياتهم تتوعدهم، لكن الكافر قد يتوب عن الكفر في حياته، فتقبل توبته، فلم يكن السياق بحاجة إلى مزيد تأكيد بمجيء (الفاء)، بينما سياق الآية الثانية في حق الكفار الذين ماتوا على الكفر، فالوعيد في حقهم أكد وأشد فناسب مجيء (الفاء) حتى يربط بين الجزاء لذا جاء فيها "فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به"، بينما قال في الآية الأولى: "لن تقبل توبتهم"، وأكد العذاب أيضاً في الثانية بقوله: "أولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين"، في حين لم يذكر ذلك في الآية الأولى، وإنما اكتفى بوصفهم بقوله: "وأولئك هم الضالون".

"فظهر لنا الدور الدلالي الذي يؤديه وجود (الفاء) أو غيابها في هذين التركيبين، فميّزَ فيهما بين تركيب إخباري خلا من (الفاء) فخلا من السببية والجزاء، وجوّز توبة الكافر وقبولها ما دام حياً، وبين تركيب شرطي اقترن جوابه بـ (الفاء) واشترط في الكافر حتى لا تقبل منه فدية أن يموت على كفره، وإذا بالربط (الفاء) هنا مفروق بين

(١) - الكشف، ١/ ٤٤٣.

جنسين من أجناس التركيب خبري وشرطي، وإذا بالفاء هنا تحمل حكماً من أحكام الله في شأن الكافر وتوبته وشروط قبول التوبة منه ورفضها، فعلى قدر ضالة هذا الحرف وضالة ذكره أو حذفه، كانت عظمة دلالاته وخطورة أحكامه، وكان في ذلك سر من أسرار الإعجاز^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦-٥٧].

وقد فسر هذا التحول البيضاوي، بقوله^(٢): "فإدخال (الفاء) في حيز الثاني، دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال: "لهم عذاب" ولم يقل: هم في عذاب".

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَاهْتَدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]. فحذف (الفاء) من الخبر في الآية الأولى: "أولئك يلعنهم الله" إلى ذكرها في خبر التائبين، فقال: "فأولئك أتوب عليهم". وذلك "لثلاثتهم أن لعنهم إنما هو بهذا السبب إذ له أسباب جمّة"^(٣).

ومعنى هذا أن عدم مجيء (الفاء) في الجملة الأولى إشارة إلى أن لعنهم ليس بسبب كتمان البيّنات، وإنما له أسباب كثيرة، فهم موصوفون بصفات كثيرة تستوجب اللعن، منها كتمان ما أنزل الله، ولو جيء (بالفاء)؛ لأوهم ذلك أن الكتمان

(١) - قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلأوي، ٤٩٦.

(٢) - تفسير البيضاوي، ٣٠٨/٦.

(٣) - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦١/٢.

هو سبب اللعن فحسب، في حين ذُكرت (الفاء) في الجملة الثانية إشارة إلى أن توبتهم من الكتمان وتيسينهم وصلاحهم هو السبب في توبة الله **عَزَّجَلَّ** عليهم، وفي ذلك تحفيز لهم وتحضيض على التوبة، لا سيما مجيء التعبير عنها بالفعل الماضي الدال على تحقق الفعل وحصوله.

٣. التحول عن حذف حرف النفي إلى ذكره:

منه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

فقد نفى المولى **عَزَّجَلَّ** التساوي بين كل متقابلين (الأعمى والبصير)، و(الظلمات والنور)، و(الظل والحرور) و(الأحياء والأموات)، لكنه لم يكرر حرف النفي (لا) في المتقابلين الأولين، فقال: "وما يستوي الأعمى والبصير"، ولم يقل: "وما يستوي الأعمى ولا البصير"، كما ذكر ذلك في بقية المقابلات، فقال: "ولا الظلمات ولا النور"، و"لا الظل ولا الحرور"، "وما يستوي الأحياء ولا الأموات".

وذلك لأن تكرار "لا" النافية يفيد تأكيد نفي التساوي في كل مدخول عليه على حدة، إضافة إلى إفادتها النفي بين المتقابلين بوجه عام. "فما ذكرت فيه كلمة (لا) في الطرف المقابل، يحمل دلالة عدم التساوي النسبي بين أفراد كلٍّ من المتقابلين، إضافة إلى عدم التساوي العام بين المتقابلين"^(١).

(١) - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله **عَزَّجَلَّ** عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٣٧، وانظر أيضاً: الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ٢٠١.

فالظلمات متفاوتة غير متساوية فيما بينها، وكذلك النور متفاوت غير متساوٍ، فهو درجات في الإضاءة، ثم الظلمات عموماً لا تساوي النور بعمومه، أي: أنه نفى التساوي بين أفراد كل متقابل على حدة، ثم نفى التساوي بوجه عام مع المقابل له (١)، وكذلك الظل وما فيه من برودة متفاوت بين أفرادها ثم نفى التساوي بوجه عام بين الظل والحرور. وكذلك الأحياء يختلفون فهم بين صالح وطالح، وذكي وغبي، ومؤمن وكافر، والأموات يتباينون ففيهم الشقي والسعيد، والمنعم والمعذب، حسب أعمالهم في الدنيا، ثم إن الأحياء عموماً لا يستوون مع الأموات.

والسياق لم يكرر (لا) النافية مع المتقابلين الأولين (وما يستوي الأعمى والبصير) إشارة إلى أنه قصد نفى التساوي بين الأعمى والبصير بوجه عام، ولم يرد نفى التساوي النسبي بين جزئيات كل منهما.

فدل ذلك على أن نفى التساوي بين المتقابلات يكون عاماً ونسبياً، فما تكررت فيه (لا) أفاد النوعين معاً، النفي العام بين المتقابلات والنفي النسبي بين أفراد كل واحد منها على حدة.

وأما النصوص التي لم يأت فيها هذا التكرار لحرف النفي (لا) "فلم تقصد فيها هذه الدلالة، إنما قصد فيها مجرد نفى التساوي بين المتقابلين أي النفي العام فحسب، وليس معنياً بالنفي النسبي، وإن كان الطرفان المتقابلان فيهما أوفى بعضهما من الأمور النسبية أيضاً، لكن لم يقصد فيها الدلالة على النسب المتفاوتة في كل طرف" (٢).

(١) - انظر: قواعد التدبر الأمثل، حنيفة الميداني، ٥٣٧ (بتصرف).

(٢) - السابق، ٥٣٧.

وهذا ما نلاحظه جلياً أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

يقول الزركشي^(١): "وأما قوله (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة)، فمن قال: المراد أن الحسنة لا تساوي السيئة، فـ (لا) عنده زائدة، ومن قال: جنس الحسنة لا يستوي أفرادها، وجنس السيئة لا يستوي أفرادها -وهو الظاهر من سياق الآية- فليست زائدة، والواو عاطفة جملة على جملة".

٤. التحول عن حذف لام التعريف إلى ذكرها:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

فقد وردت كلمة (رسول) نكرة ثم عرفت، وعلماء النحو يرجعون التعريف بعد التنكير في هذا السياق وأمثاله إلى أن التعريف قصد به العهد الذكري، فالمراد بـ (الرسول) هنا هو الرسول الذي تقدم ذكره في السياق، وما قاله النحاة صحيح، ولكن وراء هذا التعليل تعليل دلالي آخر، وهو أن لفظة رسول ابتداء وردت نكرة لما فيها من إحياء بغربة هذا الرسول في ما جاء به من رسالة ودعوة، وهو غريب أيضاً على قوم فرعون، فهو ليس منهم، ومجهولة أيضاً لدلائل صدقه ومعجزاته، حتى إذا عرف وعرفت رسالته وذاع صيته وظهرت معجزاته، ودلائل صدقه أصبح الرسول

(١)- البرهان في علوم القرآن، ٤/ ٣٥٧، وانظر في القول بزيادة (لا) في هذا الموطن والرد عليه، لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، فضل عباس، ٢٤٨.

المعروف برسالته وصدقه، ومع هذا كله، ومع ظهور دلائل صدقه ورسالته كذبه فرعون فاستحق الأخذ الويل^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فقد تحول عن تنكير (الرزق) إلى تعريفه؛ وذلك لأنه -تعالى- أراد أن يبين أن هذه الأوثان لا تستطيع أن ترزقهم شيئاً من الرزق -وإن قل- فجاء التنكير للتقليل والتحقيق، ثم أمرهم بابتغاء الرزق كله منه، فهو الرزاق وحده^(٢). فكانت (ال) هنا تفيد استغراق الجنس، أي كل أنواع الرزق وأشكاله قل أم كثر فهو من الله وحده، ولا يطلب إلا منه.

وفي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

اقتربت لفظة (الذكور) بلام التعريف بعد تنكير لفظة (إناثاً). وفي تنكير الإناث إشعار بتجاهل العرب وكرهيتهم لهذا الجنس، وذلك في زمن الجاهلية، إذ كان الرجل يتوارى من القوم إذا بشر بأنثى، فدل التنكير على أن جنس الإناث نكرة في

(١)- انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢١/ ٢٤-٢٥.

(٢)- انظر: الكشف، ٣/ ٢٠١.

نفوسهم لا يحبونه، "وفي تعريف الذكور التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مناهم" (١).

"فكان الآية الكريمة تقرر لهؤلاء -من خلال التعريف بعد التنكير- أن الجنس الذي تتوارون عن القوم بسببه حيناً، وتوارونه في التراب حيناً آخر، يستوي مع الجنس الذي هو معقد آمالكم في أن كلا منهما عطاء مالك السماوات والأرض الذي يهب ما يشاء لمن يشاء" (٢).

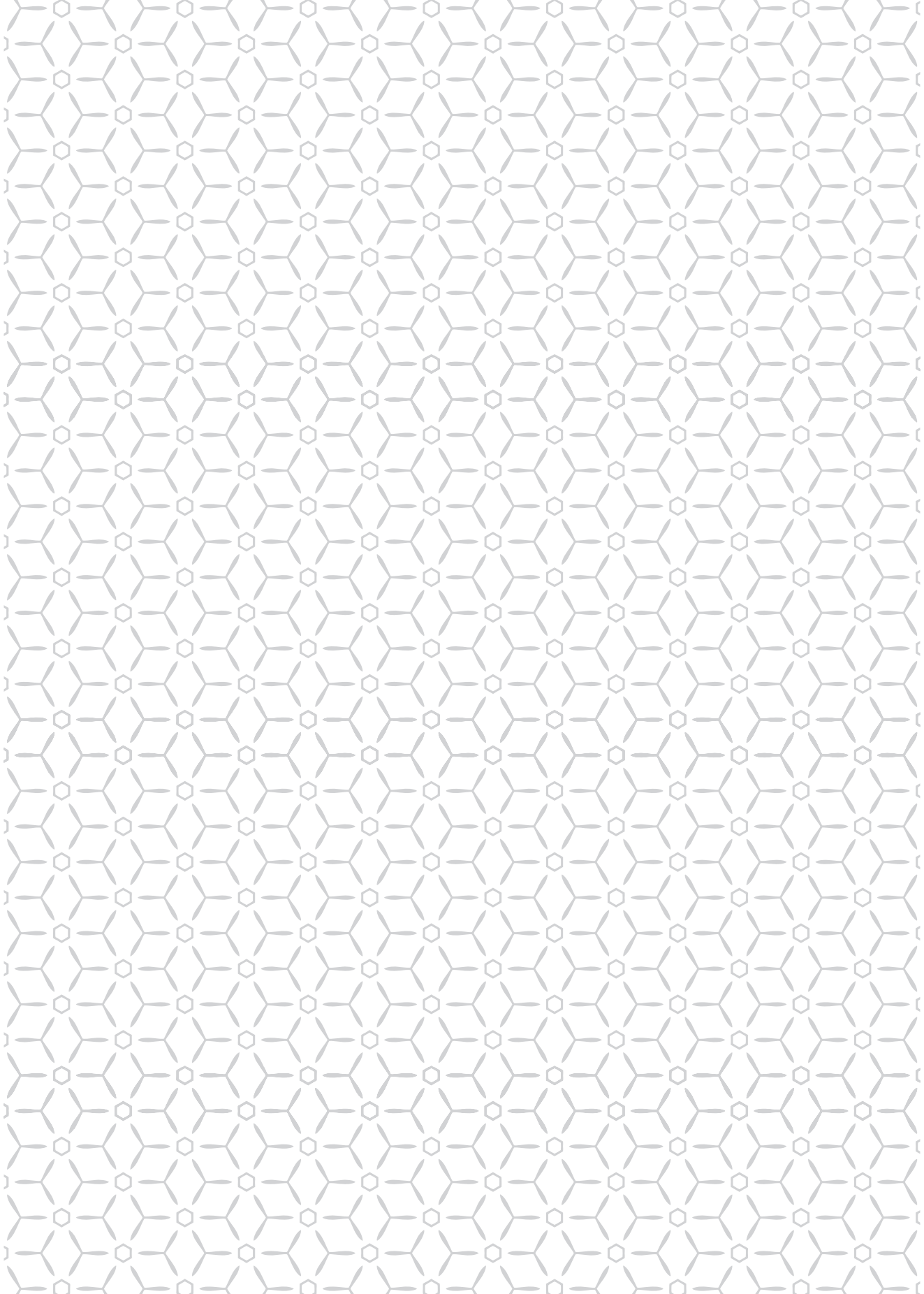
ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن التعريف والتنكير في هذا السياق يوحي بدلالة اجتماعية، تشير إلى "وجوب ستر المرأة أمام الأجانب (غير المحارم)، بحيث تكون نكرة لديهم، وظهور الرجل للكسب بحيث يكون معروفاً لديهم" (٣).



(١)- روح المعاني، ٥٤/٢٥.

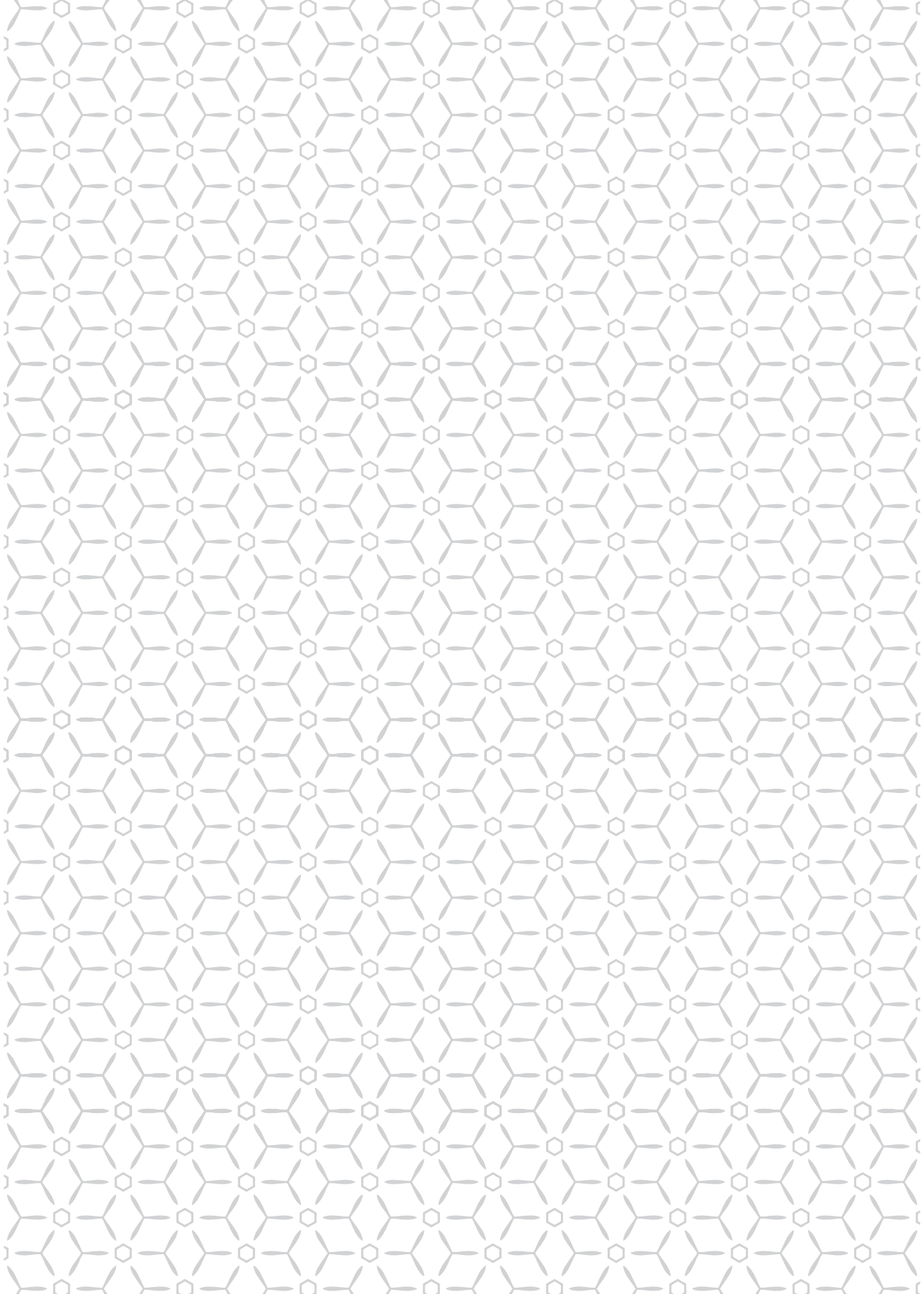
(٢)- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٨٩.

(٣)- قبس من الإعجاز، هشام الحمصي، ٧٦-٧٧.



الفصل الثالث

التحول في التركيب



تمهيد

يمتاز التعبير القرآني ببلاغة تصريف القول، فهو ينوع الأساليب، ويتصرف في التراكيب من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمخالفة في النسق الإعرابي والتنوع في الجمل، من اسمية إلى فعلية والعكس، والتذكير والتأنيث، والخروج عن الظاهر في العدد والمعدود من خلال المخالفة بين الإفراد والتثنية والجمع، والتحول في الإسناد.

كل هذه الظواهر الأسلوبية المتعددة في التعبير القرآني، يراد من مجيئها دلالات مقصودة تفصح عن بلاغة القرآن الكريم وروعة بيانه، وتتنصب شاهداً من شواهد الإعجاز فيه.

وهذه التحولات في التركيب تدعو إلى التأمل والتدبر المستمر في دلالات التركيب القرآني؛ لمحاولة الوصول إلى عمق الدلالة، وعدم الوقوف عند سطحية النص وظاهر العبارة.

وقد حاولت في الفصلين السابقين تتبع دلالات التحول في أزمنة الفعل، والأسماء، وحروف المعاني، من مغايرة بينها وذكر وحذف فيها، مقتصرًا في ذلك على نماذج محدّدة.

وكذلك الحال في هذا الفصل يستلزم منا الوقوف عند ظاهرة التغير في التركيب للسياق القرآني، ومتابعة الخروج والتحول عن النسق المطرد للسياق نفسه، محاولين في ذلك تحليل تلك التحولات تحليلًا يبرز لنا معاني النحو، ويسهم في تدبر النص

القرآني بتوظيف تراكيب اللغة فيه وتعليل التغيرات الحاصلة فيها، مقتصرين في ذلك على نماذج لكل نمط من أنماط هذا التحول، وهو ما سنعرض له في المباحث الآتية:

المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس.

المبحث الثاني: التحول في إسناد الفعل.

المبحث الثالث: التحول عن ذكر المفعول به إلى حذفه والعكس.

المبحث الرابع: التحول في العدد

المبحث الخامس: التحول في التقديم والتأخير.

المبحث السادس: التحول عن مطابقة الجواب السؤال

المبحث السابع: التحول في الجمل.

المبحث الثامن: التحول في النسق الإعرابي



المبحث الأول

التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

يرد هذا النوع من التحول في نمطين هما:

النمط الأول: أن يرد الفعل متعدياً بنفسه في السياق، ثم يرد مرة أخرى في السياق نفسه متعدياً بحرف.

والنمط الثاني: أن يرد الفعل متعدياً بنفسه، ثم يتحول عنه إلى فعل آخر متعدياً بحرف، وكلا النوعين يمثلان خروجاً عن المشكلة واطراد السياق؛ وذلك يستدعي تعليل هذا التحول وتحليل نماذجه، وهو على النحو الآتي:

أولاً: التحول عن تعدي الفعل بنفسه إلى تعديه بحرف:

من ذلك قوله تعالى على لسان نبيه زكريا **عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾** [مريم: ٥-٦].

"ففي الآية الثانية مخالفة تتمثل في إعمال فعلي الإرث، إذ إن الموروث قد وقع مفعولاً به لأولهما "يرثني" ومجوراً بـ (من) بعد ثانيهما و"يرث من"، ولو جرى السياق على نمط واحد لقليل: يرثني ويرث آل يعقوب"^(١).

(١) - أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٩٢.

"والمراد بالإرث هنا: إرث الشرع والعلم؛ لأن الأنبياء لا تورث المال" (١).
لحديث رسول الله ﷺ "لا تُورث ما تركناه صدقة" (٢). وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن الفعل (وَرِثَ) يتعدى بنفسه، ويتعدى بـ (من) وهما لغتان ودلالتهما واحدة.. يقول ابن منظور: "تقول: ورثت أبي، وورثت الشيء من أبي" (٣).
ويقول الزمخشري (٤): "يقال ورثته، وَوَرِثْتُ مِنْهُ لغتان، وقيل: مِنْ للتبعض لا للتعدية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء".

ويظهر أن (من) هنا للتبعض، كما أشار الزمخشري، وأن الفعل (ورثته) يختلف في دلالاته عن (وَرِثْتُ مِنْهُ)، إذ يفيد الفعل (ورثتُ منه)، أنه ورث منه بعض التركة لا كلها. فأفادت (من) التبعض، وكذلك الحال في هذه الآية.

فنبى الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب من المولى عَزَّوَجَلَّ أن يرزقه ابناً صالحاً يكون أهلاً لتحمل الرسالة والنبوة، فيرث أباه النبوة، ويكون امتداداً للصالحين وللأنبياء من آل يعقوب، إذ ليس كل آل يعقوب صالحين ولا أنبياء، بدليل أن نبي الله زكريا أشار إلى أنه قد خاف الموالي من ورائه، وهم كما يقول بعض المفسرين "شرار بني إسرائيل،

(١) - الكشف، ٥٠٣/٢.

(٢) - الحديث أخرجه البخاري عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم (٣٥٠٨) و(٣٨١٠)، ومسلم برقم (١٧٥٨)، وأخرجه البخاري أيضاً عن عائشة برقم (٦٣٤٦) ومسلم برقم (١٧٥٨)، وأخرجه أيضاً عن أبي هريرة برقم (١٧٦١).

(٣) - لسان العرب، مادة (ورث).

(٤) - الكشف، ٥٠٣/٢.

فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبا من صُلبه صالحا يقتدي به في إحياء الدين، ويرتسم مراسمه فيه" (١).

وقد استجاب الله **عَزَّجَلَّ** دعاء نبيه وعلم مراده، فأجابه بقوله: **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِحَيِّهِ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾** [آل عمران: ٣٩].

ومنه أيضاً قوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾** [الأنعام: ٦]. فدل التحول عن تعدي الفعل بنفسه (مكَّنَّاهم) إلى تعديه بالحرف (ما لم نمكن لكم) على المفارقة بين التمكينين، فتمكين الله للأمم السابقة كان أقوى وأشد من تمكين المتأخرين، فوافق المقال مقتضى الحال، إذ عدَّى فعل التمكين في الأولين بنفسه، وتعدي الفعل بنفسه أقوى من تعديه بحرف. في حين عدَّى فعل التمكين في المتأخرين بالحرف فقال: (ما لم نمكن لكم)، ولم يقل: (ما لم نمكنكم).

وقد كان في دلالة التركيب نفسه ما يدل على المفارقة في التمكينين وهو قوله: (ما لم نمكن لكم)، فأداة النفي (لم) تشير إلى تلك المفارقة، لكن السياق أمعن في ترسيخ دلالة المفارقة، ليس على مستوى التركيب فحسب بل على مستوى دلالة السياق كله، وذلك بإبراز المخالفة، وعدم الاطراد في السياق؛ ليشد ذهن المتلقي إلى تأمل ذلك، وفي التأمل مزيد تأكيد وترسيخ للدلالة.

(١) - السابق، ٢/ ٥٠٢.

المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

ونظير ذلك في المفارقة بين التمكينين وتعدي الفعل بنفسه وتعديه بحرف، ما ورد في قوله تعالى في وصف ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]. فتعدي الفعل هنا بالحرف، فلم يقل: (إنا مكناه في الأرض). لكن ذا القرنين عندما تحدّث عن نعمة ربه عليه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، ولم يقل: ما مكن لي فيه ربي. وذلك لأن: "الفعل (مَكَّن) في الجملة الأولى ضعيف، فلم يتمكن من التعدية إلى المفعول به بنفسه؛ لذلك استعان بحرف الجر "اللام" ليوصله إليه، فتعدّى إليه بواسطتها، وسبب ضعف الفعل في الجملة الأولى، أنه ورد في بداية إيراد قصة ذي القرنين، وتحدّث عن بداية أمره، ومعروف أن الأمر عند بدايته يكون أضعف منه عند نهايته، ولذا احتاج إلى اللام لتعديه إلى المفعول به.

أما في الجملة الثانية: "ما مَكَّنِّي فيه ربي خير"، فإن فعل (مَكَّن) قوي، لذلك تعدّى إلى المفعول به بنفسه، ونصبه مباشرة، والسياق هو الذي منحه القوة، فهو - أولاً: يتحدّث عن ذي القرنين بعدما ظهر وتمكن وسيطر وانتصر، وهو ثانياً: ورد في سياق قوة ذي القرنين في بناء السد عند أولئك القوم^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

(١)- مع قصص السابقين في القرآن، صلاح الخالدي، ٢/ ٣٢٠-٣٢١.

فتحول إلى تعدية الفعل (ادخلي) بنفسه فقال: (وادخلي جنتي)، بعد تعديته بحرف (في)، وذلك ليضفي على الفعل دلالة السَّعة والشمول، وفي ذلك مزيد تكريم وتشريف لهذه النفس المطمئنة، فهي تتجول في الجنة حيث تشاء، فليست محصورة بمكان، ولا محدودة بحدود، ولو قال: (ادخلي في جَنَّتِي) لأفاد ذلك تحديد المكان بجزء محدود من الجنة على وجه الخصوص؛ لأن دلالة الظرفية المكانية (في) توحى بالتحديد والخصوص، والفعل المتعدي بنفسه أقوى في الدلالة من تعديته بالحرف. وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

ثانياً: التحول عن فعل متعدي بنفسه إلى آخر متعدي بحرف والعكس:

كما في قوله تعالى على لسان نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَام مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢].

فنلاحظ التحول الحاصل عن الفعل المتعدي بنفسه (أبلغكم) إلى المتعدي بحرف (وأنصح لكم) ولم يقل: وأنصحكم. وقد علل هذا التحول فقال^(١): "يقال: نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير، فَرُبَّ نصيحة ينتفع بها الناصح

(١) - الكشف، ٢/ ٨٦.

المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله - تعالى - ورسله عليهم السلام".

ويقول محمد أمين الخضري^(١): "ولم يجيء النصح في الكتاب العزيز متعدياً بنفسه، وإنما جاء متعدياً باللام؛ لأن الناصح في مواضعه كلها أخلص النصيحة للمنصوح حقيقة كما جاء على السنة الرسل: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، و: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ...﴾ [الأعراف: ٦٢]، ولا شك في إخلاص المرسلين النصيحة لقومهم واختصاصهم بها".

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

فقد عدَّى فعل الغسل بنفسه فقال: "فاغسلوا وجوهكم" ثم تحول إلى تعدية فعل المسح بالباء فقال: (وامسحوا برؤوسكم)، ولم يقل: وامسحوا رؤوسكم، فيسوي بينهما في التعدية.

وقد اختلف العلماء في معرفة سر دخول حرف (الباء) على فعل المسح اختلافاً كبيراً، وتعددت آراء الفقهاء تبعاً لذلك^(٢)، ولسنا معنيين في هذا المقام بذكر أوجه

(١) - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٢٥٨.

(٢) - انظر: اختلاف الفقهاء في هذه (الباء)، ودلالاتها الشرعية، في حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، دياب عبد الجواد عطا، ١١٩-١٢١، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، محمود سعد، ٢١١-٢١٢.

الخلاف الفقهي في ذلك، بقدر ما نحن معنيون بمعرفة سر المغايرة بين الفعلين، بدخول (الباء) على فعل المسح، دون تعديته بنفسه، وقد أورد المرادي (ت ٧٤٩هـ) للباء هنا عدة معان^(١): من ذلك أنها: للتبويض، وكونها زائدة، والإلصاق، والاستعانة، ورجح المالقي أنها للإلصاق فقال^(٢): "والصحيح أن (الباء) في ذلك كله للإلصاق، كما تقدم في المعنى الثالث، وإنما التبويض الذي يمكن في التمثيل في الآية على المجاز، لا أصل للباء فيه، فهو مثل قولك: ضربت زيداً، وأنت تريد بعضه بإطلاق اللفظ مجازاً"، وهو ما رجحه ابن هشام -أيضاً- في المعنى^(٣).

واختار الزمخشري دلالة الإلصاق للباء في هذا الموضع فقال^(٤): "المراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح -كلاهما ملصق للمسح برأسه".
فدلالة الإلصاق للباء في هذا السياق بارزة واضحة، فهي على أصل دلالتها وهو المعنى الذي لا يكاد يفارقها. يقول ابن هشام^(٥): "الباء المفردة حرف لأربعة عشر معنى، أولها الإلصاق، قيل وهو معنى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه".

(١)- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، ٤٣-٤٤، ت: فخر الدين قباوة.

(٢)- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، ت: أحمد الخراط، ١٤٧.

(٣)- مغني اللبيب، ت: مازن المبارك، ١٤٣.

(٤)- الكشف، ٥٩٧/١.

(٥)- مغني اللبيب، ١٣٧، يشير ابن هشام هنا إلى قول سيبويه: "وباء الجر إنما هي للإلحاق والاختلاط، وذلك قولك: خرجت بزيد، ودخلت به، وضربت بالسوط: ألزقت ضربك إياه بالسوط، فما اتسع من هذا الكلام فهذا أصله" [الكتاب، ٢١٧/٤].

المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

وبناءً على ذلك فيظهر لنا سر التحول إلى تعدية فعل المسح بالباء مغايراً بينه وبين تعدية فعل الغسل بنفسه، وذلك "لأن المسح لا بد فيه من إصاق اليد بالممسوح ومباشرته، بخلاف الغسل الذي يتحقق بصب الماء على العضو، ولو لم يباشره العضو الغاسل، وأوضح دليل على ذلك أن الوجه واليدين عدي إليهما فعل الغسل بنفسه في الوضوء، وعدي إليهما فعل المسح بالباء في التيمم، لما كان من الممسوحات" ^(١) فقال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

ومن نماذج هذا التحول قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

فقال: (اكتالوا على الناس) فعدى الفعل (اكتال) بالحرف (على) ثم تحول إلى تعدية الفعل (كال) بنفسه، فقال: (وإذا كالوهم) ولم يقل: وإذا كالوا لهم، ونجد أيضاً أنه عدى (اكتال) بـ (على) وحقه التعدي بحرف الجر (من) فيقال: اكتال منه. وقد ذهب بعضهم إلى تناوب الحروف في هذا السياق ^(٢)، فقالوا: إن (على) هنا بمعنى (من)، أي: اكتالوا من الناس، يقول الفراء (ت ٢٠٧هـ) ^(٣): "اكتالوا على الناس"، يريد: اكتالوا من الناس، وهما تعتقبان (على) و(من) في هذا الموضع".

(١) - من أسرار حروف الجر، ١٩٦.

(٢) - انظر: الجنى الداني في حروف المعاني، ٤٧٨.

(٣) - معاني القرآن، ٣/ ٢٤٦.

والذي يبدو أن هذا القول للفراء يقف عند حدود الدلالة المعجمية للفعل، ولا يستبطن أسرار المغايرة في استعمال الحروف مع الأفعال، والحقيقة أن كل حرف مقصود لذاته فلا تناوب في الحروف، فالقرآن دقيق في اختيار مفرداته التي تنم عن مظهر من مظاهر الإعجاز فيه، ولو كانت (من) مرادة في هذا السياق، لجاء السياق على نحو (وإذا اکتالوا من الناس)، دون (وإذا اکتالوا على الناس)، فورود حرف الاستعلاء (على) في هذا السياق مقصود لدلالة.

وهو ما تنبه له الزمخشري فقال^(١): "لما كان اکتيالهم من الناس اکتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك"، وهو الصحيح؛ لأن هناك فرقاً بين قولنا: (اكتال منه)، و(اكتال عليه)، ففي (اكتال منه)، أي: استوفى كيله منه دون زيادة أو نقصان، أما قوله (اكتال عليه) ففيها معنى التعدي والتجاوز والتسلط، فهؤلاء المطففون (إذا اکتالوا على الناس) أخذوا حقهم وزيادة عليه بتسلط واستعلاء، فهم يكتالون على الناس، لا أنهم يكتالون منهم، وإذا كالوا للناس غبنوهم وانقصوهم الكيل والحق، فهم متجاوزون في الحالين، لذلك لم يقل: في المرة الثانية (كالوا لهم)، وإنما عدَّى الفعل بنفسه، فقال: (كالوهم) وفي ذلك إيجاء أن المطففين لو استطاعوا أن يكيلوا الناس أنفسهم، لا أن يكيلوا لهم - من شدة تجاوز الحق - لفعلوا، ولو قال: كالوا لهم؛ لأفادت اللام الملك والاستحقاق، وهم قد

(١) - الكشف، ٤/ ٢٣٠.

المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

هضموا الناس حقهم فلم يعطوهم إِيَّاه، فحسن مجيء الفعل متعدياً بنفسه دون تعديه بلام الملك والاستحقاق^(١).

وأسهمت المغايرة في الصيغ بين (اكتالوا) و(كالوا) في الدلالة -أيضاً- على هذا المعنى فقد جاءت الصيغة (اكتالوا) مع الاستيفاء، وصيغة (كالوا) وهي أنقص من سابقتها مع الإيفاء، وفي ذلك دلالة على "أن إنقاص الحروف وتقليلها، كأنها يشي بالسرقة وإنقاص الكيل في الوفاء لهم، وأن زيادة المبنى في صيغة الاكتيال، وتعديها بحرف الاستعلاء، مما يشي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهراً واغتصاباً، مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغماً لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم"^(٢).



(١)- انظر في ذلك: التعبير القرآني، ٢٠٥، ومعاني النحو، ٥٢/٣.

(٢)- من أسرار حروف الجر في القرآن الكريم، ٩٥.

المبحث الثاني

التحول في إسناد الفعل

ويتمثل هذا النوع من التحول في المخالفة في نسبة الفعل إلى الفاعل، وذلك بأن يرد الفعل مسنداً إلى فاعل ما ثم يتحول إسناد الفعل إلى فاعل آخر، كما يتمثل هذا التحول أيضاً في التحول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول أو العكس. ويمكننا تناول ذلك على النحو الآتي:

أولاً: التحول في الإسناد:

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

ففي هذا السياق القرآني أسند فعل النعمة إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** فقال: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا) لكنه تحول من نسبة فعل الشر إليه **عَزَّوَجَلَّ** فلم يقل: "وَإِذَا مَسَّنَاهُ بالشر" على سبيل المشكلة في الإسناد لما سبق، وإنما قال: "وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ". وسر ذلك كما يقول علماء التفسير والبلاغة^(١) راجع إلى أن أفعال الخير تسند إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**، ولا تنسب أفعال الشر إليه على سبيل التنزيه له - **عَزَّوَجَلَّ**، وهذه ظاهرة أسلوبية واضحة ومطرّدة في السياق القرآني.

(١) - انظر: حاشية الكشاف، ٢/ ٤٩٦، وبدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/ ١٨-١٩.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فأسند فعل الرحمة إليه - عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه من أفعال الخير، ولم يسند السيئة إليه فقال: (وإن تصيبهم سيئة)، ولم يقل: وإن أصبناهم بسيئة.

ومن ذلك ما جاء على لسان الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

[الشعراء: ٧٥-٨٠].

فإن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نسب أفعال الخلق والهداية والإطعام والإسقاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم تحول إلى إسناد فعل المرض إليه فقال: (وإذا مرضت)، ولم يقل: وإذا أمرضني، في حين أنه أسند فعل الشفاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ (فَهُوَ يَشْفِينِ)، وذلك من كمال التأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، إذ أسند إليه أفعال الخير، ولم يسند إليه أفعال الضرر والمكروه على سبيل التأدب والإجلال له.

ومن أبرز مظاهر هذا التحول في الإسناد، ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالى عَزَّوَجَلَّ على لسان الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهِمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ

أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

"فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً له، فقال: (فأردتُ أن أعيبها). وأما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً؛ لأن العمل مشترك، فإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء، وإبدال خير منه وهو خير، فجاء بالضمير المشترك للعمل المشترك، ثم قال: "فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه" فأسند الإبدال إلى الله وحده. وأما إقامة الجدار فعمل كله خير، فأسنده إلى الله سبحانه وتعالى فقال: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا" (١).

وقد يرد هذا التحول أيضاً للدلالة على ترتب الإسناد اللاحق على السابق، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. فقال: "بدأكم" ثم تحول عن إسناد الفعل إليه **عَزَّجَلَّ** إلى إسناده إلى المخاطبين، فقال: (تعودون)، ولم يقل: (يعيدكم) مشاكلة لسابقه.

ويظهر لنا سر هذا التحول في أن السياق هنا سياق رد على الكفار وتفنيدهم، فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ

(١) - التعبير القرآني، ٣١٤، وانظر: بدائع الفوائد، ١٨/٢-١٩، والتفسير القيم، ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦، وأسرار التكرار في القرآن، الكرمانى، ت: عبد القادر عطا، ص ١٣٤.

أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿[الأعراف: ٢٨-٢٩].

فاللحاق مقام حجاج ورد، فناسب أن يسند البدء إليه؛ لأن بدء الخلق أصعب من
إعادته، فالخلق إيجاد على غير سابق نظير، والإعادة هي إيجاد وتجديد لما قد كان، فناسب
بعد ذلك أن يسند فعل الإعادة إليهم، فقال: (تعودون)، دلالة على عظم قدرته حتى
لكأنهم هم أنفسهم يفعلون لإرادته هذه، فيعودون بعد الموت طائعين متقادين لأمره،
في سهولة ويسر. ولم يقل: (يعيدكم)؛ لأنه ليس بحاجة إلى تأكيد قدرته على الإعادة،
وإنما يريد التركيز على انفعال ذواتهم هم أنفسهم لأمر الإعادة. وكأن أمر الإعادة أمر
بديهي قهري لا انفكاك لهم منه، فلا يحتاج إلى مزيد إثبات وتأکید.

ثانياً: التحول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ *
وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

فقد جرى السياق في أغلبه على ذكر الفاعل "كَذَّبَتْ" من قبلهم قوم نوح ... وقوم
... وقوم، ... وأصحاب ... ثم تحول إلى حذفه وبناء الفعل للمجهول فقال:
"وَكُذِّبَ مُوسَى"، ولم يقل: "وَكَذَّبَ قَوْمُ مُوسَى". وقد ذهب الزمخشري إلى تعليل
ذلك بقوله^(١): "فإن قلت: لم قيل (وَكُذِّبَ مُوسَى) ولم يقل: وقوم موسى؟ قلت:

(١) - الكشف، ٣/ ١٦-١٧.

لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، وكُذِّبَ موسى أيضاً مع ووضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره".

فكأن التحول عن البناء للمعلوم إلى بناء الفعل للمجهول قد جاء للدلالة على المبالغة في التكذيب لموسى مع ظهور معجزاته، وآياته الظاهرة، فهو أكثر الرسل السابقين معجزات وآيات، ومع ذلك كُذِّبَ، وفي هذا مزيد إيناس للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسلية له.

ومنه - أيضاً - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَنُفَخُونَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

إذ كان المتوقع الاطراد على نسق البناء للمعلوم، إلا أن السياق تحول إلى البناء للمجهول، عند ذكر أهل الجنة، للدلالة على أن شقاء أهل النار ناتج عن أفعالهم وأعمالهم بأنفسهم، وسعادة أهل الجنة من إسعاد الله لهم، وفي هذا إشارة إلى أن دخول أهل النار النار بمحض تحول الله، ودخول أهل الجنة الجنة بمحض تفضله ورحمته^(١).

(١) - لما رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «سَدُّوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدْخَلَ الجنةَ أحداً عمَلُهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ منه برحمة، واعلموا أن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قلَّ»، صحيح مسلم، ٤ / ٢١٧١، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ... وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ [الإنسان: ١٥-١٩].

فاللافت للانتباه مجيء الفعل (طاف) مبنياً للمجهول ابتداءً فقال: (ويطاف عليهم...)، ثم تحول عن ذلك إلى البناء للمعلوم وذكر الفاعل فقال: "ويطوف عليهم ولدان مخلدون...". فلماذا بني الفعل للمجهول، ابتداءً ثم بني للمعلوم؟ أجاب الكرمانلي عن ذلك فقال^(١): "وقوله (ويطاف عليهم) وبعده (ويطوف عليهم)، إنما ذكر الأول بلفظ المجهول؛ لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون، ولهذا قال: (بأنية من فضة)، ثم ذكر الطائفين، فقال: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون)". فالسياق هو الذي اقتضى الحذف هناك والذكر هنا، فهو في الآية السابقة (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) يركز على المطوف به لا على الطائفين، فالمهم في السياق هو ذكر ما يطاف به؛ فلذلك أسهب في وصف الأنية وأنها من فضة ووصف الأكواب، وكذلك الآية التالية لها (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا) فحذف الفاعل أيضاً؛ لأنه ليس هو المهم في السياق إنما المهم هو الشراب الذي يُسْقَوْنَ لا الساقين لهم، فلذلك ذكر الكأس التي يسقون بها وأنهم يسقون شراباً مزوجاً بالزنجبيل من عين تسمى سلسيلاً، ولكنه بعد ذلك تحول عن البناء للمجهول بحذف الفاعل إلى

(١) - البرهان في توجيه متشابه القرآن، ١٩٢.

ذكره في قوله (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانُ مُخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَثُورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا).

لأن التركيز والاهتمام في هذا السياق منصبٌّ على الفاعل نفسه وهم الولدان المخلدون، فوصفهم أنهم ولدان، وأنهم مخلدون، وأن الرائي لهم يحسبهم من حسنهم، وجمالهم وبهاء طلعتهم، كأنهم لؤلؤ مَثُور. وهكذا في كل مرة أتى فيها بالفعل مبنياً للمجهول، كان ذلك لأن الفاعل لم يكن مهماً؛ إنما كان المهم الشيء المطوف به، أما عندما أتى بالفعل مبنياً للمعلوم فقد كان الفاعل هو المهم تبعاً للسياق^(١).

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، وهو لماذا قدم ذكر المبنى للمجهول على المبنى للمعلوم (ويطاف ... ويطوف)؟ والمعهود في الاستعمال اللغوي أن يرد المبنى للمعلوم قبل المبنى للمجهول عندما تكون مادة الفعل واحدة في المرتين والفاعل واحداً؛ لأن ذكر الفاعل في المرة الأولى يغني عن ذكره في المرة الثانية، فلماذا جرى العكس في هذا السياق القرآني؟

والذي يظهر -والله أعلم- أن السياق الأول (ويطاف عليهم بآنية) كان المقصود منه التركيز ابتداء على النعمة التي يتنعم بها أهل الجنة، وذكر وصف آوانهم وأكوابهم وشرابهم (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا...) ثم بعد ذكر نعمة الله على وجه التفصيل والتفصيل ناسب ذكر الخدم والحشم ووصفهم، فذكر النعم سابق لذكر الخدم، وهم تبع لها وليسوا أصلاً لها، ولا محل الاهتمام الأول

(١)- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، عودة الله منيع القيسي، ١٠٢.

ابتداء؛ لذا ناسب مجيء ذكر من يطوف عليهم، فقال (ويطوف عليهم ولدان مخلدون (...)(١). ثم في ذلك أيضاً شد للانتباه عند بناء الفعل ابتداء للمجهول، إذ قال: (ويطاف عليهم ...) فيضل التساؤل وارداً مفاده هذا وصف المطوف به فمن الطائفون وما وصفهم؟ فيأتي ذكرهم بعد ذلك تبعاً، وهذه من لطائف الكتاب العزيز.

ومنه - أيضاً - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

فبنى الفعل للمجهول في ذكر التحلية بالذهب إشارة إلى أنهم ملوك الآخرة، والملوك يُلبسون الذهب من قبل الخدم والحشم، وفي هذا مزيد تكريم لهم، وأما لبس الثياب فيكون من قبل صاحبها، فلا يُلبس ثيابه إلا من كانت فيه علة تحول دون ذلك، ولم يرد ذكر تحلية أهل الجنة بالذهب إلا مبنياً للمجهول، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

(١) - انظر: سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة، ١٠١.

ومن نماذج هذا التحول أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

فقد أسند فعل الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى، مع أن مقابله أسند إليه بقوله: (أم أراد بهم ربهم رشداً)؛ وذلك من قبيل التأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه^(١). أما قوله: "أم أراد بهم ربهم رشداً"، فهو من ناحية أخرى أدب مع الله وتعظيم لشأنه في إسناد الرشداً إليه^(٢).

فقد حذف الفاعل في هذا السياق ونظائره تأدباً مع المولى عزَّجَلَّ من أن تسند أفعال الشر إليه، في حين أسندت أفعال الخير إليه، وهذه ظاهرة تطرد في السياق القرآني، كما سبق ذكره في هذا المبحث.

يقول ابن القيم^(٣): "إن أفعال الإحسان والرحمة والجلود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال التحول والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنى الفعل معها للمفعول، أدباً في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله".

(١) - انظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٢٩ / ٢٣١.

(٢) - عقد الزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن باباً بعنوان: التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله، تحدث فيه عن بعض الآيات التي ذكرت هذه الظاهرة، انظر: البرهان، ٤ / ٥٩.

(٣) - بدائع الفوائد، ٢ / ١٨-١٩.

وما ذهب إليه ابن القيم لا يسلم له على إطلاقه^(١)، فقد أسندت أفعال ظاهرها العذاب والشر إليه **عَزَّجَلَّ** في سياق أخذ الظالمين وعذاب الكافرين، من ذلك قوله تعالى: **﴿فَدَمَّرْنَا هَا تَدْمِيرًا﴾** [الإسراء: ١٦]. وقوله تعالى: **﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** * **﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** [الحج: ٤٤-٤٥]. وقوله تعالى: **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ﴾** [هود: ٨٢]. وذلك لأن أخذ الله الأمم الكافرة والظالمة بظلمها هو عين العدل والرحمة منه **عَزَّجَلَّ** بخلقه وعباده، فاستئصال الشر وأهله هو عين الخير، وفيه أيضاً إظهار لشدة الأخذ وقوته في نسبه إليه.

(١) - انظر: معاني النحو، ٧٨ / ٢.

المبحث الثالث

التحول عن ذكر المفعول به إلى حذفه والعكس

ومن نماذج هذا التحول قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

فقد ذكر مفعول الوعد في خطاب أهل الجنة، فقال: (ما وعدنا ربنا) وحذفه من خطاب أهل النار، فقال: (ما وعد ربكم)، ولم يقل: (ما وعدكم ربكم).
وذهب بعض المفسرين إلى أن حذف مفعول الفعل (وعد) الثاني في قوله (ما وعد ربكم)، كان "لمجرد الإيجاز، لدلالة مقابله عليه في قوله: "ما وعدنا ربكم"؛ لأن المقصود من السؤال: سؤلهم عما يخصهم فالتقدير: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم، أي: من العذاب؛ لأن الوعد يستعمل في الخير والشر"^(١).

والذي يبدو أن الحذف هنا لم يكن لمجرد الإيجاز وإنما له أبعاد تدبرية بلاغية منها:
أولاً: أن ذلك راجع إلى المفارقة بين وعد أهل الجنة ووعد أهل النار، ففي الوعد الثاني لأهل النار فيه دلالة الإطلاق والعموم، فهو وعد يشمل البعث والحساب، والثواب والعقاب، فقد كانوا منكرين لكل ذلك. وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟

(١) - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١٣٧/٩.

بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة، فقال: "وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً"^(١). بل إن نعيم أهل الجنة وثوابهم هو داخل في عموم الخطاب للكفار (ما وعد ربكم) فنعيم المؤمنين يزيد في عذاب وشقاء الكافرين يومئذ، يقول الزمخشري^(٢): "فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً للدلالة (وعدنا) عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل وعد الله من البعث والحساب، والثواب والعقاب، وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعد كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك".

ثانياً: أن الذكر هناك والحذف هنا راجع أيضاً إلى المفارقة بين المقامين، كما كان في السبب الأول للدلالة على المفارقة بين الوعدين، ففي ذكر المفعول به في وعد المؤمنين دليل على أنهم "خوطبوا بهذا الوعد من قبل الله تعالى، وفي ذلك مزيد من التشريف لحالهم، أما حذفه -ثانياً- ففيه إسقاط للكفار عن رتبة التشريف، وإشعار بأنهم ليسوا أهلاً لخطابه **عَزَّوَجَلَّ**"^(٣). فمقام المؤمنين غير مقام الكفار في الخطاب. فأدى التحول إلى حذف المفعول به في هذا السياق القرآني إلى توسيع المعنى وانفتاح الدلالة.

(١)- الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ١٨١.

(٢)- الكشف، ٨٠/٢، ٨١.

(٣)- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٩١، انظر: تفسير أبي السعود، ٢٢٩/٣.

ومنه أيضاً قوله تعالى على لسان إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، مخاطباً قومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣].

إذ حصل تحول عن ذكر المفعول به إلى حذفه، فذكر مفعول السمع، فقال: (يسمعونكم)، وحذفه من فعل الدعاء (إذ تدعون)، وذكر مفعول النفع، فقال: (ينفعونكم) ثم تحول عن ذكره إلى حذفه من فعل الضر فقال: (أو يضررون). ولو جرى السياق على نمط واحد من المشاكلة لقليل: (هل يسمعونكم إذ تدعونهم، أو ينفعونكم أو يضررونكم).

والسر في هذا التحول -والله أعلم- أنه ذكر مفعول السمع (يسمعونكم)؛ لأنه هو ما يهمهم، إذ يهمهم سماع دعائهم، وليس يعينهم بالضرورة أن تسمع هذه الأصنام لغيرها، لا سيما أنهم توجهوا لها بالعبادة، وحق المعبود أن يسمع عبده، وحذف المفعول من فعل الدعاء (إذ تدعون) ليفيد الحذف دلالة العموم، أي: تدعونهم أو تدعون غيرهم، فالإله الحق يجيب من عبده ودعاه، ومن توجه بالدعاء إلى غيره عاقبه، فحاورهم إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بهذا الأسلوب ليثير فيهم حاسة التأمل والفهم، ثم ذكر مفعول النفع (أو ينفعونكم) وحذفه من فعل الضرر (أو يضررون)، وليس ذلك من أجل الفاصلة القرآنية فقط، كما ذهب إليه بعضهم، وإنما اقتضاه المعنى أيضاً.

"فقد ذكر مفعول النفع، فقال: "ينفعونكم"، لأنهم يريدون النفع لأنفسهم، وأطلق الضرر لسببين:

الأول: أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه، والآخر: أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر، فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص، والضرر موضع إطلاق، فخصص النفع وأطلق الضرر، والمعنى أن هذه الآلهة -على حد زعمهم- لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به، فقال: "أو يضرّونكم" لما أفاد هذين المعنيين^(١).
فإطلاق الضرر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، فقد ذكر مفعول الفعل (أضل) فقال: (وأضل فرعون قومه) وتحول عن ذلك إلى حذفه مع فعل الهداية فقال: (وما هدى)، ولم يقل: (وما هداهم)، وذلك أنه "أخرج الفعل (هدى) مخرج العموم، أي: أن فرعون لا يتصف بصفة الهداية البتة، وذلك أنه لو قال: "وما هداهم" لكان عدم الهداية مقيداً بقومه، إذ يُحتمل أنه هدى غيرهم، لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً لا من قومه ولا من غيرهم^(٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]. فقال: "ما ودَّعَكَ" فذكر المفعول به وهو ضمير المخاطب، ثم تحول عن ذكره إلى الحذف، فقال: "وما قلى"، ولو جرى السياق على نسق واحد لقليل: (وما قلاك).

(١)- التعبير القرآني، ٢١٩.

(٢)- معاني النحو، ٩٣/٢.

فما سبب ذكر المفعول به مع فعل التوديع وحذفه مع فعل الهجر والقل؟
 يذهب بعضهم إلى أن هذا سببه مراعاة الفاصلة القرآنية ^(١)؛ لأنها قد جاءت
 مختومة بالآلف المقصورة (الضحى، سجي، قلى، ..) فناسب حذف المفعول به (كاف
 الخطاب) من الفعل (قلى) لوقوعه فاصلة قرآنية، ومن ذهب إلى ذلك القراء ^(٢)
 والفخر الرازي ^(٣) والنيسابوري ^(٤) ويرى بعضهم أن الحذف هنا ليس مقصوراً على
 الفاصلة القرآنية، تقول بنت الشاطئ ^(٥): "ونرى -والله أعلم- أن حذف الكاف من
 "وما قلى" مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ،
 هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى، في موقف الإيناس، بصريح القول: وما
 قلاك؛ لما في القلى من حسّ الطرد والإبعاد وشدة البغض، وأما التوديع فلا شيء فيه
 من ذلك، بل لعل الحسّ اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما
 لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء".

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا
 فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨]. فقد ذكر المفعول به (يجدك) و(ووجدك)، وحذف من
 (آوى، فهدى، فأغنى).

(١)- انظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى أبو شادي، ٦٧.

(٢)- انظر: معاني القرآن، ٣/ ٢٧٤.

(٣)- انظر: تفسير الرازي، ٣٢/ ٢١٠.

(٤)- انظر: غرائب القرآن، ٦/ ٥١٦.

(٥)- الإعجاز البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ٢٦٩.

ويرى الفراء أن هذا الحذف قد حصل لأجل فواصل الآي، يقول الفراء^(١):
 "وقوله **عَزَّجَلَّ**: (فأغنى)، و(فأوى)، يراد به (فأغناك)، و(فأواك)، تجري على طرح
 الكاف لمشاكلة رؤوس الآيات؛ ولأن المعنى معروف".

والحقيقة أن الحذف من أجل موافقة الفواصل القرآنية أمر لا يسلم به، وإن كانت
 الفواصل تضيفي جرساً صوتياً معيناً، وهذا لا يُنكر أثره، لكنها ليست التعليل
 الوحيد لما يطرأ على التعبير من تغيرات وتحولات سواء من حذف وذكر، أو تقديم
 وتأخير، وإنما يضاف إلى ذلك -وهو الأهم مما سبق- أن هذا التغير اقتضاه المعنى
 والسياق وليس لأجل الفاصلة فحسب؛ لذا يظهر أن التحول عن ذكر المفعول به في
 هذا السياق القرآني في الأفعال (آوى...فهدى...وأغنى) أريد بهذا الحذف العموم،
 أي: آواك وآوى بك، فأواك من يتم، وجعلك مأوى لليتامي، وهداك إلى دين الحق
 بعد أن كنت في حيرة من أمرك، وجعلك هداية للآخرين، وأغناك من فاقة وعوز
 وحاجة وأغنى بك، ولو أتى السياق على نمط واحد فذكر المفعول به فقال: (فأواك)
 و(فأغناك) و(هداك)؛ لأوهم المعنى أن ذلك كان خاصاً برسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**
 ولم يتعدَّ أثره إلى غيره، فأفاد التحول عن ذكر المفعول إلى حذفه في هذا السياق توسيع
 الدلالة بالإطلاق والعموم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ...
 وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣-١٧٩].

(١)- معاني القرآن، ٣/ ٢٧٤.

فذكر الضمير المفعول به في: "أبصرهم" الأولى، وحذفه من الثانية، فقال: "وأبصر".

يقول الزركشي في ذلك^(١): "ومن فوائد قوله تعالى في الأولين: (وأبصرهم) وفي هاتين: (فأبصر)، أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً^(٢)، فلما تضمنت التشفي بهم قيل له: (أبصرهم). وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في استسلامهم لعينه قرة، ولقلبه مسرة، ف قيل له: أبصر".

فدل التحول إلى حذف المفعول به في قوله (وأبصر) على العموم والإطلاق، لأنه قصد به فتح مكة "وفتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب، لذا أطلق فقال: (وأبصر)؛ لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر، فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل مكة وقد حل عليهم العذاب وحدهم، قال: (أبصرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصر)"^(٣).



(١) - البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٢٣.

(٢) - وقد رجح الإمام الطبري أن هذه الآية في شأن أهل بدر، وهو ما ذهب إليه السُّدِّي، انظر: تفسير الطبري، ٧٣/ ٢٣.

(٣) - التعبير القرآني، ٩٠-٩١.

المبحث الرابع

التحول في العدد

نلاحظ في التعبير القرآني كثيراً ما يقع تحول عن التعبير بصيغة الإفراد أو التثنية أو الجمع إلى التعبير بصيغة أخرى. وهذا التحول يشد انتباه المتلقي؛ لأنه يمثل خروجاً عن المؤلف اللغوي في اطراد السياق على نمط واحد من المشاكلة، نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نِ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. فقد كان مقتضى السياق في المشاكلة أن يكون (هذان خصمان اختصمنا).

ونحو: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. فتحول عن التثنية إلى الإفراد، ولو جرى السياق على نسقه العام لكان (فقولنا إنا رسولاً رب العالمين). كما هو الحال في سورة طه: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ولا بد أن يكون لهذا النوع من التحول دلالات يقصد إليها النص القرآني، وليس ذلك من قبيل الاتساع في اللغة كما يذهب إليه بعضهم، ولا هو من قبيل الحمل على اللفظ تارة أو الحمل على المعنى تارة أخرى كما ذهب إليه آخرون^(١)، ولقد كان ابن جني أعمق نظراً وفهماً للبلاغة القرآنية عندما رفض القول بالاتساع في تعليل هذا النوع من التحول، كاشفاً وجه البلاغة في التحول عن الجمع إلى الإفراد في قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً...﴾ [الحج: ٥]، ولم يقل: (أطفالاً) فقال ابن جني

(١) - انظر في ذلك: معترك الأقران، ٣/ ٣٢٢، ٥٨٢، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم، ٣/ ٢٨٩، ومعاني النحو، ١/ ١٣٤-١٣٦.

معللاً ذلك^(١): "وحسن لفظ الواحد هنا؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلائق به ذكر الواحد، لقلته عن الجماعة، ...، وهذا ممّا إذا سئل الناس عنه قالوا: وضع الواحد موضع الجماعة اتساعاً في اللغة، وأنسوا حفظ المعنى لتقوى دلالته عليه وتنضم بالشبه إليه".

فابن جني لا يرضى التسليم بالقول: إن هذا ضرب من الاتساع في اللغة، بل له دلالة مقصودة يقتضيها السياق، والقول بالاتساع والخفة والاختصار، هو ضرب من التعليل الظاهري الذي يقف عند ظاهر التركيب ولا يستبطن دلالاته ومعانيه، ولا يعنينا في هذا المبحث تناول التحول في الألفاظ أفراداً وتثنية وجمعاً، كإفراد السمع وجمع الأبصار في نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. وإنما الذي يعنينا هنا ما له علاقة بالتركيب ويمثل خروجاً عن ظاهر اطراد السياق.

وقصدنا في ذلك تعليل هذا التحول والتدبر في دلالاته، وأبعاده البلاغية، لا الوقوف عند ظاهر التركيب، والتعليل بالاتساع والاختصار والخفة، كما هو الحال عند النحاة، أو بالحمل على اللفظ تارة والحمل على المعنى تارة أخرى. وهذا النوع من التحول يتمثل في ست صور على النحو الآتي:

(١) - المحتسب، ت: محمد عبد القادر عطا، ٣١٥/٢، وانظر أيضاً: أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ٣٤٣، والإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن، محمد الأمين الخضري، ٥٨-٥٩.

الصورة الأولى: التحول عن الأفراد إلى التثنية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

فقد جاء الخطاب من فرعون وقومه أولاً إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَام فقالوا: (أجئتنا لتلفتنا...)؛ لأنه هو صاحب الرسالة، وعلى يديه ظهرت المعجزات؛ لذلك كان الخطاب موجهاً إليه ابتداءً؛ ثم ارتفعت نبرة الخطاب بارزة بالعداء والتكذيب للدعوة والداعين إليها، فوجهوا الخطاب إلى موسى وهارون معاً، فقالوا: (وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين)، وذلك لكونها مشتركين في الدعوة والتبليغ، وأما ظهور المعجزات فقد كان على يد موسى فحسب.

الصورة الثانية: التحول عن الأفراد إلى الجمع:

منه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

إذ خاطب المولى عَزَّوَجَلَّ نبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخطاب الأفراد فقال: (يا أيها النبي) ثم تحول إلى مخاطبته بالجمع، فقال: (إذا طلقتم النساء). وكان مقتضى السياق أن يكون (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء)، وذلك لأن هذه الآية يفسرها السياق الخارجي من سبب النزول.

فقد روى قتادة عن أنس: قال طلق رسول الله ﷺ حفصة رضي الله عنها فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ" (١).

فالخطاب موجه إلى النبي ﷺ لكن السياق تحول إلى الجمع للدلالة على أمرين:

الأول: دلالة التعظيم للمخاطب وهو الرسول ﷺ يقول الزخشي (٢): "خص النبي ﷺ بالنداء، وعم بالخطاب؛ لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه، وأنه مدرة قومه، ولسانهم الذي يصدر عن رأيه، ولا يسرون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وساداً مسدداً جميعهم".

الثاني: دلالة العموم، وذلك بالنسبة للمتلقى العام، "فالحكم ليس مقصوراً على النبي وحده، وإنما يشمل المسلمين جميعاً" (٣).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

(١) - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/١٤٨.

(٢) - الكشف، ٤/١٠٧.

(٣) - تحولات البنية في البلاغة، ٣٣٤.

والذي نلاحظه في هذا السياق القرآني مجيء الضمير في جملة الصلة مفرداً في قوله (ومن يطع الله ورسوله) ثم تحول السياق إلى الجمع في قوله (خالدين فيها) وهي حال من الضمير في يدخله، وكان مقتضى السياق أن يكون (خالداً فيها)، تماماً كما هو الحال في وصف الكافر، إذ قال المولى **عَزَّجَلَّ** في السياق نفسه "وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا...".

فقد جمع "خالدين" في وصف ثواب الطائعين، وأفرده في وصف عقاب العاصين، فما سر ذلك؟

أجاب عن ذلك أبو السعود فقال ^(١): "ولعل إيثار الأفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظراً إلى المعنى للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة".

الصورة الثالثة: التحول عن التثنية إلى الإفراد:

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-١٧].

تحول السياق الكريم عن التثنية (فأتيا... فقولا) إلى الإفراد في قوله (إنا رسول رب العالمين)، ومقتضى السياق أن يكون (فقولا إنا رسولا رب العالمين)، لا سيما أنها

(١)- تفسير أبي السعود، ٢/ ١٥٤.

قد وردت بالثنية في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وقد علل ذلك بعضهم بأن كلمة (رسول) من الألفاظ المشتركة تطلق على الرسول وعلى الرسالة (١) لذلك فهي بمعنى الرسول في آية طه، وهي بمعنى الرسالة في آية الشعراء لذلك أفردت؛ لأن الرسالة مصدر، والمصدر يستوي فيه المثنى والجمع.

يقول الزمخشري (٢): "فإن قلت هلا ثني الرسول كما في قوله "إنا رسولا ربك"؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل، فلم يكن بد من تثنيته، وجعل ها هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه، إذ وصف به بين الواحد والثنى والجمع".

ثم قال (٣): "والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاسُونَ مَا فُهِتْ عَنْدَهُمْ بَسِرٌّ وَلَا أَرْسَلْتَهُمْ بِرَسُولٍ

ويجوز أن يوحد؛ لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللأخوة، كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد".

وما ذهب إليه الزمخشري في الرأي الثاني، وهو قوله: إن السياق نزلهما لاتفاقهما في الدعوة والرسالة منزلة الرسول الواحد، قول وجيه، ولكن يرد السؤال هنا ما سر تثنية كلمة (رسول) في (طه)؟

(١) - انظر: البرهان في متشابه القرآن، الكرمانى، ١٤٠، وملاك التأويل للغرناطي، ٨٢١/٢.

(٢) - الكشف، ١٠٨/٣.

(٣) - الكشف، ١٠٨/٣.

والذي يبدو أن السياق هو الذي اقتضى التثنية في آية طه واقتضى الأفراد في آية الشعراء.

وذلك أن سياق سورة طه يشير إلى أن الخوف قد صدر من موسى وهارون، وقد ذكر القرآن ذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ * قَالَ لَا نَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٤-٤٥].

فناسب ذلك أن يخاطبهما بعدم الخوف وتبليغ الرسالة، فجاءت كلمة (رسول) مثناة، أما في سورة الشعراء فقد أشار السياق القرآني فيها إلى أن الخوف قد صدر من موسى وحده، فناسب ذلك إفراد كلمة الرسول تهدئة لروعه^(١)، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢-١٦].

فكانت آية الشعراء إخباراً عن نداء موسى لربه قبل أن يرسل هارون نبياً معه، فناسب الأفراد بالرسالة؛ لأنه هو المعني بها وهو المبلغ الأول لها.

وجاءت آية طه تخبر عن نداء موسى وهارون معاً، بعد أن أصبح هارون نبياً مع موسى، فناسب مجيء كلمة (رسول) حينئذ مثناة لتحملها الرسالة والتبليغ معاً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧].

(١) - انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٢٠.

ففي هذا السياق القرآني الكريم، نجد أن الخطاب قد وجه لآدم وزوجه بصيغة التثنية (فلا يخرجنكما) ثم تحول إلى الإفراد فقال: (فتشقى)، ولو جرى السياق على نمط واحد لكان (فتشقيا).

فكان التحول متمثلاً في إسناد فعل الشقاء إلى الضمير المستتر العائد إلى آدم وحده، فَحَذَّرَ من الشقاء دون زوجته، ولا بد أن يكون لذلك دلالة. فذهب بعضهم إلى القول بأن شقاء الرجل يتضمن شقاء أهله معه^(١)، وذهب آخرون إلى أن الشقاء هنا مخصوص بآدم نفسه؛ لأنه المسؤول عن البحث والكد في طلب القوت لأهله^(٢)، فالمراد بالشقاء هنا شقاء البحث عن المعيشة.

يقول الزمخشري^(٣): "وإنما أسندا إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشرأكهما في الخروج؛ لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها، مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل، وهو راجع إليه".

الصورة الرابعة: التحول عن التثنية إلى الجمع:

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

(١) - انظر: الكشف، ٥٥٦/٢، وتفسير الرازي، ١٢٥/٢٢.

(٢) - انظر: البحر المحيط، ٢٨٤/٦، وتفسير أبي السعود، ٤٥/٦.

(٣) - الكشف، ٥٥٦/٢.

فقد حصل تحول في إسناد الفعل إلى المثني (تبوءاً) إلى إسناده للجمع (واجعلوا، وأقيموا) ثم تحول عن الجمع إلى الأفراد (وبشّر المؤمنين).

قال النيسابوري في تعليل ذلك ^(١): "وإنما ثنى الخطاب أولاً ثم جمع؛ لأن اختيار المكان للعبادة مما يفوّض إلى الأنبياء فخطب [هو] وهارون بذلك، ثم جعل الخطاب عاماً لهما ولقومهما؛ لأن استقبال القبلة وإقامة الصلاة واجب على الجمهور، ثم خص موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بالتبشير في قوله: (وبشّر المؤمنين)؛ لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات هو هذه البشارة، فلم تكن لاثقة إلا بحال موسى الذي هو الأصل في الرسالة".

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات: ٩].

فقد تحول عن التثنية في قوله: (طائفتان) إلى الجمع في قوله: (اقتتلوا) ثم تحول مرة أخرى عن الجمع إلى التثنية، فقال: (فأصلحوا بينهما).

وقد علل الزمخشري هذا التحول أنه من قبيل الحمل على المعنى دون اللفظ، يقول ^(٢): "فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: (اقتتلوا) والقياس (اقتتلتا) ... ؟ قلت: هو حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس".

ولكن الزمخشري لم يعلل لماذا كان الحمل على المعنى دون اللفظ في هذا السياق على وجه الخصوص؟ والذي يبدو أن سر التحول عن التثنية إلى الجمع في هذا

(١) - غرائب القرآن، ٦٠٦/٣.

(٢) - الكشف، ٥٦٣/٣، وانظر: البحر المحيط، ١١٢/٨.

الموضع يكمن في أن الطائفتين عند اقتتالهما واشتباكهما تمثلان حينئذ جمعاً من المقتتلين لا تمايز بينهم، وفي هذا إمعان في تصوير شدة الاقتتال، فإذا ما انتهى الاقتتال بينهم، وسعت مساعي الصلح، تمايزوا إلى فريقين وطائفتين مستقلتين.

وهو ما أوضحه الرازي بقوله^(١): "عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلاً، فقال: اقتتلوا ... وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة وإلا لم يكن يتحقق الصلح، فقال: بينهما لكون الطائفتين حينئذ كنفسين".

ومنه قوله تعالى مخاطباً آدم وحواء: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

فقد أسند المولى عزَّجَلَّ فعل الهبوط ابتداءً إلى ضمير التثنية فقال: (اهبطا) ثم تحول إلى إسناد فعل الإتيان إلى الجمع في قوله: (فإمّا يأتينكم مني هدى)، وكان مقتضى السياق أن يرد على نحو (فإمّا يأتينكما مني هدى).

والذي يظهر - والله أعلم - أن المولى عزَّجَلَّ قد خص آدم وحواء بالعقوبة على ما بدر منهما من خطيئة فخطبهما بصيغة التثنية فقال: (اهبطا منها ...) "ليخصهما بذلك وحدهما دون الامتداد لأحد غيرهما، تحقيقاً لمبدأ التحول الإلهي"^(٢).

فيكون تغيب الذرية من الخطاب تغيباً لهم من العقوبة، ثم تحول بعد ذلك إلى الجمع في خطاب الهداية "لتدخل الذرية في خطاب الهدى والعصمة من الضلال بعد أن خرجت من خطاب العقوبة (اهبطا)"^(١).

(١) - تفسير الرازي، ٢٨/١٢٧-١٢٨.

(٢) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٣٨.

فيكون هذا التحول قد أدى دلالة المفارقة في التغيب والاستحضار، ففي السياق تغيب لذرية آدم وحواء من خطاب العقوبة (اهبطا)، ثم استحضرهم في خطاب الهداية "فإما يأتينكم مني هدى".

الصورة الخامسة: التحول عن الجمع إلى الإفراد:

كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

فجمع أولاً، فقال: (ترونها)، ثم تحول عن ذلك إلى الإفراد فقال: (وترى الناس). وذلك: "لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً راثين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم راثياً لسائرهم" (٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

إذ تحول السياق عن خطاب الجمع (تعبدوا) إلى إفراد ضمير الخطاب في قوله: (عندك ... فلا تقل ... ولا تنهرهما ... وقل لهما ...)، وذلك لأن المقصود هو نهي

(١) - تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٣٨.

(٢) - الكشف، ٥/٣.

كل واحد عن تأفيف والديه ونهرهما، ولو قبل الجمع بالجمع أو بالتثنية، لم يحصل هذا^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ * وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿[يونس: ٤٢-٤٣].

فقد جاء ضمير الصلة جمعاً في قوله (من يستمعون) ثم تحول إلى الضمير المفرد في قوله: (ومنهم من ينظر إليك) وذلك في سياق واحد، وقد ذهب بعض علماء اللغة إلى تعليل ذلك بأنه من قبيل الحمل على المعنى تارة، والحمل على اللفظ تارة أخرى. يقول المبرد^(٢): "(ومن) تكون جمعاً على لفظ الواحد، وكذلك الاثنان، قال الله عز وجل (ومنهم من يستمع إليك)، وقال: (ومنهم من يستمعون إليك)، فحمل مرة على اللفظ، ومرة على المعنى...".

والذي أراه أن التعليل بالحمل على المعنى تارة، وبالحمل على اللفظ تارة أخرى، هو تعليل من أجل الصحة النحوية، لكنه لا يقف على أسرار البيان في التركيب، وإنما ينبغي تعليل سبب الحمل على اللفظ في هذا الموضع، والتحول عنه إلى الحمل على المعنى في موضع آخر.

(١) - تفسير أبي السعود، ١٦٦/٥.

(٢) - المقتضب، ٢/٢٩٥، وانظر: ٣/٢٥٣.

ومن التعليقات الطريفة لذلك ما ذهب إليه الكرمانى بقوله ^(١): "لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخلاف النظر، فكأن في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى، ووحد (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم". ويرى السامرائى أنه ^(٢): "ربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر، فإن التأثير بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحدَ النظر لأن رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائي، وجمع الاستماع لأنه يختلف أثره من شخص لآخر، فالكلام يختلف مواقعه من مستمع لآخر؛ ولذلك وحدَ الرائي؛ لأنهم يرونه شيئاً واحداً وجمع المستمعين؛ لأن أثر ذلك يختلف عندهم".

الصورة السادسة: التحول عن الجمع إلى التثنية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥-١٦].

فقد تحول السياق الكريم ابتداء عن خطاب التثنية (فاذهبا) إلى خطاب الجمع (معكم) ثم تحول إلى خطاب التثنية مرة أخرى (فأتيا فرعون فقولا)؛ فأصبح خطاب الجمع (معكم) يمثل تحولاً لأصل سياقيّ سابق، وهو في الوقت نفسه يمثل أصلاً سياقياً لتحول لاحق.

(١) - البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمد بن حمزة الكرمانى، ٩٤.

(٢) - التعبير القرآني، ٤٨.

والذي نلاحظه في هذا السياق أن التعبير بالجمع (إنا معكم مستمعون) فيه مزيد تأكيد اقتضاه السياق، فالآيات السابقة لهذه الآية فيها نداء كليم الله موسى ومناجاته ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا﴾ [الشعراء: ١٢-١٥].

فكليم الله موسى خائف من فرعون وقومه، ولا يخاف التكذيب فحسب، بل يخاف القتل من قبلهم، فالسياق كله خوف وتضرع ومناجاة، فكان المناسب لذلك من قبيل التناسب المعنوي في السياق أن يرد الخطاب بالجمع بقوله (إنا معكم مستمعون). وتحدث عن نفسه أيضاً بضمير الجمع (مستمعون) لما فيه من مزيد تأكيد وزيادة طمأنينة بالجمع في مقام شدة الخوف، وفيه مزيد تعظيم وتكريم لموسى وهارون أن نزلهما منزلة الجمع؛ إمعاناً في بث الثقة والطمأنينة الكاملة في حين ورد السياق في سورة طه على نحو ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

فنبرة الخوف في سياق طه أخف من سابقه في الشعراء، بدليل أن الخوف هنا كان من فرعون وحده، بينما في سياق الشعراء كان الخوف من فرعون وقومه، ثم إن الخوف في آية طه أيضاً لم يصل إلى درجة الخوف من القتل كما هو الحال في سياق سورة الشعراء (وأخاف أن يقتلونا)، لذلك كان التوكيد في هذا السياق أخف من سابقه، فجاءت التثنية على أصلها فقال (إنني معكما أسمع وأرى). وأفرد نفسه في

الحديث (أسمع وأرى)، فقابل الأفراد بالـأفراد، والجمع بالجمع^(١)، وهذا من قبيل التناسب المعنوي البياني في القرآن الكريم^(٢).



(١) - انظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن) محمد الأمين الخضري، ١٠١.

(٢) - انظر في ذلك: المناسبة في وحدة النسق واختيار المفردات، في كتاب (التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي)، أحمد أبو زيد، ١٧٣-١٨٨.

المبحث الخامس

التحول في التقديم والتأخير

من ذلك ما نجده من التحول عن تقديم المفعول به إلى تأخيره في السياق القرآني، نحو قوله تعالى ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

ففي هذا السياق نجد أن كلمة (فريقاً) وردت ابتداءً مفعولاً به مقدماً للفعل (تقتلون) فقال (فريقاً تقتلون) ثم تحول عن ذلك إلى تأخيرها بعد الفعل (تأسرون) فقال (وتأسرون فريقاً) ولو جرى السياق على نمط واحد من المشاكلة لكان (فريقاً تقتلون وفريقاً تأسرون).

ولكي ندرك سر ذلك ينبغي لنا معرفة سبب نزول هذه الآية، فقد نزلت في يهود بني قريظة، وقد صدر فيهم حكم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - أن تقتل المقاتلة وتسبى النساء والذراري، وأن تكون ديارهم للمهاجرين، فأمضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما حكم به سعد، كما هو مفصل في السيرة^(١).

ويوضح ابن عاشور سبب هذا التحول مستنبطاً ذلك من أسباب نزول هذه الآية فيقول^(٢): "فريقاً تقتلون، للاهتمام بذكره، لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين

(١) - التحرير والتنوير، ٢١ / ٣١١.

(٢) - المصدر السابق، ٢١ / ٣١٣.

بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، ولذلك لم يقدم مفعول تأسرون" إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله".

ونضيف إلى ما قاله ابن عاشور أن الأسر دون القتل في إشفاء غليل المؤمنين من هؤلاء، فأخره في الذكر بأن أتى به على الأصل، أما قتل الأعداء فهو موضع الاهتمام فقدمه لذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المالك: ٢٩].

فالسباق الكريم قال ابتداء (آمنا به) فقدم الفعل على متعلقه كما هو الأصل، ثم تحول عن ذلك إلى تقديم متعلق الفعل عليه، فقال: (وعليه توكلنا) ولو مضى السياق على اطراحه لكان (وتوكلنا عليه).

ويعلل الزمخشري ذلك فيقول^(١): "فإن قلت: لم آخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا؟ قلت: لوقوع آمنا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقب ذكرهم كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلمون عليه من رجالكم وأموالكم".

ومن ذلك أيضاً ما يرد من تقديم وتأخير في المتعاطفين نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ... يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا نَا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

[الشورى: ٤٨-٤٩].

(١) - الكشف، ٤/ ١٤٠.

فقدم ذكر الإناث على الذكور حيث قال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) ثم تحول إلى تقديم الذكور على الإناث فقال: (أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً).

ويرى الزمخشري^(١) أن تقديم الإناث في هذا السياق على الذكور ليناسب ذكر البلاء، أي: يناسب ما كان يراه العرب في الجاهلية بلاء، لا سيما أن الله - **عَزَّجَلَّ** - ذكر الإناث بعد قوله: (وإن تصبهم سيئة بما قدمت..) فكأنه **عَزَّجَلَّ** أراد القول إن البلاء منه كما أن النعمة منه). وهذا التعليل غير مقنع.

وخير منه ما ذكره عبد العظيم المطعني^(٢) من أن تقديم الإناث على الذكور "سببه تقديم الأضعف على الأقوى؛ لأن الأنثى أقل شأنًا من الذكر في معرض الهبة، وكان العرب يرون هبتها عاراً، فقدمت الإناث على الذكور؛ تنبيهاً لهم على خطأ تلك النظرة؛ لإفادة أن الأنثى والذكر سواء، كلاهما هبة من الله تعالى". وفي تقديم ذكرهن على الذكور -أيضاً- جبر لخاطر الإناث وليُحِبَّ الوالدين فيهن^(٣).

ومن مواطن هذا التحول أيضاً قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾** [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

فقد قدم القتل على الموت أولاً فقال: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متتم) ثم تحول عن ذلك إلى تقديم الموت على القتل.

(١) - انظر: السابق، ٣/ ٤٧٥.

(٢) - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم المطعني، ١٣٧/ ٢.

(٣) - انظر: قبس من الإعجاز، هشام الحمصي، ٧٦.

ولعل السر في هذا التحول أن الآية الأولى تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، لا سيما أن الآية نزلت في غزوة أحد، وقد أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من المشقة والاستشهاد في سبيل الله، فحسن تقديم القتل على الموت "لأن الأغلب من حال المجاهدين الذين يفارقون الدنيا هو القتل" (١).

وأما التحول عن ذلك إلى العكس من تقديم ذكر الموت على القتل، فلأن هذه الآية التالية "سيقت لبيان أن حشر الخلائق كلهم إليه بأي وجه يفارقون الدنيا، ولا شك أن الغالب على أحوال الخلق كلهم الموت" (٢).

ومن هذا التحول أيضاً التحول عن تقديم شبه الجملة المتعلق بالمفعول به إلى تأخيره على الأصل. نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

فقدم السياق الكريم شبه الجملة ابتداء فقال: (إِلَيَّ يَدُكَ) ثم تحول عن ذلك إلى التأخير فقال (يَدِي إِلَيْكَ)، ولو جاء على مقتضى المطابقة لكان (ما أنا بباسط إليك يدي) ولعل سر هذا التحول يرجع إلى أن بسط اليد من قبل قابيل لقتل أخيه هابيل كان قاصداً به أخاه دون غيره، متوجهاً به نحوه "فجل همه قتل أخيه لا مطلق القتل" (٣)، ومع علم أخيه هابيل بقصد أخيه وتوجهه نحوه بالقتل، خاطبه بخطاب الروع والتقوى، فقال: (ما أنا بباسط يدي إليك) فأكد نفي البسط من قبله للقتل

(١) - غرائب القرآن، النيسابوري، ٢ / ٢٩١.

(٢) - غرائب القرآن، النيسابوري، ٢ / ٢٩١.

(٣) - المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، ١٧١.

بكل المؤكدات، من ذلك مجيء الجملة اسمية، مقترناً خبرها بالباء المؤكدة (ببساط)، وفي ذلك إمعان في نفي صدور أدنى بسط لليد منه بالقتل، وأنه ليست من عاداته أصلاً بسط يده بالقتل لا لأخيه ولا لغيره، لذا جاء شبه الجملة بعد المفعول به (يدي إليك) على أصله، فلم يحتج إلى تقديمه كما هو الحال في الأولى، "وإنما ذكر إليك" بعده لبيان الواقع^(١).

ومن ذلك أيضاً التحول عن تأخير المتعلق بالخبر إلى تقديمه، نحو قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

نجد أن المولى عز وجل قال أولاً: "لتكونوا شهداء على الناس" فأخر المتعلق شبه الجملة (على الناس) بعد الخبر (شهداء) فجاء به على الأصل، ثم تحول عن ذلك فقدمه على الخبر في شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (ويكون الرسول عليكم شهيداً).

وكان مقتضى السياق أن يجري على نمط واحد فيكون (ويكون الرسول شهيداً عليكم). والذي نلاحظه من هذا السياق أنه قد جاء لتقرير عدالة الأمة وكونها شاهدة على الأمم السابقة، وأن شهادة الرسول عليها هي شهادة تركية لها.

يرى النسفي: أن المراد بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم -هنا- على الأمة شهادته لها بالعدالة والتركية. فلما كان مقام هذه الأمة مقام الشاهد على جميع الأمم السابقة، قدم

(١)- المصدر السابق: الصفحة نفسها.

ذكر الشهادة على متعلقها، فقال: (لتكونوا شهداء على الناس)، ولما كانت شهادة الرسول ﷺ على أمته شهادة تزكية لها، قدم المتعلق فقال: (ويكون الرسول عليكم شهيداً)، ففي تقديم (عليكم) مزيد اختصاص وتشريف لهذه الأمة^(١).

وأما ما جاء في سورة الحج من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فالمراد بشهادة الرسول هنا هي شهادة التبليغ بالرسالة، بأنه بلغهم الرسالة وأقام عليهم الحجة، لذا قدم الشهادة لأنها هي موضع العناية والاهتمام.

(١) - انظر: تفسير النسفي، ١/ ١٣٨.

المبحث السادس

التحول عن مطابقة الجواب للسؤال

واللافت في هذا المقام أننا كثيراً ما نجد أسئلة ترد في السياق القرآني بصيغة معينة ويرد الجواب عنها بأسلوب مغاير لما يقتضيه السؤال وذلك يدعو للبحث عن معرفة دلالة ذلك^(١).

من ذلك مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠].

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو لماذا تحول عن نصب (أساطير) في الآية الأولى إلى الرفع (أساطير الأولين)، ولم يطابق الجواب السؤال في مجيئه منصوباً، لكون الأصل في مثل هذا مشكلة الجواب للسؤال، فإذا ورد السؤال جملة فعلية شاكلة الجواب في ذلك، وإذا كان جملة اسمية فكذلك الجواب.

يقول الزركشي^(٢): "الأصل في الجواب أن يكون مشاكلاً للسؤال، فإن كان جملة اسمية فينبغي أن يكون الجواب كذلك، ويجيء ذلك في الجواب المقدّر أيضاً".

(١) - ليس مقصودنا بهذا المبحث ما عرف عند البلاغيين بـ (أسلوب الحكيم)، "إذ غاية أسلوب الحكيم تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره" (تحولات البنية، ٣٩٩). وإنما مقصودنا هنا مجيء الجواب في صورة تركيب نحوي على خلاف ما يقتضيه الظاهر من موافقته السؤال في التركيب. وإن كان في مضمونه قد تضمن الجواب على السؤال.

(٢) - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٤٧/٤ - ٤٩.

وبما أن السؤال كان جملة فعلية (ماذا أنزل ربكم) كان مقتضى الجواب أن يكون (أساطير الأولين) بنصب أساطير، أي: أنزل أساطير الأولين كما هو الحال في المطابقة بينهما في الآية الثانية (ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً)، أي: أنزل خيراً.

وقد علل الزمخشري سبب هذا التحول فقال: (١): "فإن قلت لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلغنموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء".

وقريباً من هذا التعليل ذهب الزركشي فقال (٢): "لو طابقوا -أي: قالوا: أساطير الأولين- لكانوا مُقرِّين بالإنزال، وهم من الإذعان به على تفاوت".

وما ذهب إليه الزمخشري والزركشي في تعليل هذا التحول أمر مقبول وأرى - إضافة إلى ما سبق ذكره - أن الرفع في جواب الكافرين فيه إشارة إلى حكاية القرآن لقولهم بلفظه ونصه، وأن النصب في قول المؤمنين (قالوا خيراً) فيه إشارة إلى حكاية قولهم بالمعنى.

وهو ما تقرر لدى بعض علماء اللغة من أن المقول بعد القول إذا جاء مرفوعاً أفاد الحكاية باللفظ، وإذا جاء منصوباً أفاد الحكاية بالمعنى (٣). فدل جواب المؤمنين

(١) - الكشف، ٢/ ٤٠٧.

(٢) - البرهان، ٤/ ٤٩.

(٣) - انظر في ذلك: نتائج الفكر للسهيلي ت: عادل عبد الموجود، ٣١٩.

﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ على العموم والشمول، أي: قالوا قولاً فيه خير وثناء على المنزل والمنزل دون التنصيص على مقولتهم بلفظها.

ونص على قول الكافرين بلفظه ليقررهم بمقولتهم الكاذبة، لذا جاء بعدها الإيعاد بالعذاب، فقال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقد يتحول المتكلم عن الجواب لادعاء أن الأمر في ثبوته وتقريره واضح لا شبهة فيه، ولا حاجة للسؤال عنه، فيتحول منه إلى ما هو أولى في الجواب عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

فقد كان مقتضى الجواب أن يكون (نعم نعم أنه مرسل من ربه) لكن الجواب أتى على خلاف المتوقع فكان (إنا بما أرسل به مؤمنون).

وعلى الزمخشري ذلك فقال^(١): "فإن قلت: كيف صح قولهم: إنا بما أرسل به مؤمنون جواباً عنه؟ قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه، ولا شبهة تدخله لوضوحه وإثارته، وإنما الكلام في وجوب الإيذان به، فنخبركم أنا به مؤمنون".

(١) - الكشف، ٩١/٢.

وقد يكون الجواب ناظراً إلى ما في الاستفهام من معنى فرعي غير معناه الأصلي.
كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ * قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿[سبأ: ٢٩-٣٠]. فقد كان سؤالهم عن موعد
البعث والحساب، ولكن الجواب جاء مخالفاً لظاهر السؤال في هذا السياق.

وقد أوضح ذلك الزمخشري بقوله^(١): "فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً عن
سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء
الجواب عن طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم
مُرسدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه".

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

لقد جاء السؤال في هذا السياق القرآني الكريم بقوله: (أهكذا عرشك؟)
وكان مقتضى الجواب أن يكون (هكذا هو)، لكنها عدلت عن ذلك إلى قولها: (كأنه
هو).

وقد علل ابن المنير سبب هذا التحول فقال^(٢): "وفي قولها (كأنه هو) عدوها عن
مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول: (هكذا هو)، نكتة حسنة، ولعل قائلًا يقول: كلا
العبارتين تشبيه، إذ كان التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحدهما داخلية على اسم

(١) - السابق، ٣/ ٢٩٠.

(٢) - حاشية الكشف، ٣/ ١٤٩-١٥٠.

الإشارة، وفي الأخرى داخلية على المضمر، وكلاهما: أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحيث تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قوله: هكذا هو، بمطابقته للسؤال، فلا بد من اختيار (كأنه هو) من حكمة، فنقول: حكمته - والله أعلم - أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها".

المبحث السابع

التحول في الجمل

ذهب البلاغيون والنحاة إلى وجود فرق دلالي بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فقررُوا أن التعبير بالاسمية يدل على الثبات والاستقرار، والتعبير بالجملة الفعلية يدل على التجدد والحدوث والاستمرار، يستوي في ذلك المظهر، والمضمر تقديرًا^(١).

يقول الجرجاني^(٢): "موضوع الاسم على أن يُثَبَّتَ به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجددَه شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء".

ويقول أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)^(٣): "والجملة الاسمية موضوعه للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار، وإذا كان خبرها اسماً، فقد يقصد به الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن، وإذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجددياً إذا لم يوجد داعٍ إلى الدوام فليس كل جملة اسمية مفيدة للدوام، فإن (زيد قائم) يفيد تجدد القيام لا دوامه ... والجملة الفعلية موضوعة لإحداث الحدث في الماضي أو الحال، فتدل على تجدد سابق أو حاضر، وقد يستعمل للاستمرار بلا ملاحظة التجدد في مقام خطابي".

(١) - انظر: البرهان، الزركشي، ٧٠ / ٤.

(٢) - دلائل الإعجاز، ١٧٤، ت: محمود شاكر.

(٣) - الكليات، ٣٤١.

وهذا التفريق الدلالي بين الجملة الاسمية والفعلية هو المشهور عند علماء البلاغة والنحو، وقد ذكر الزركشي في البرهان من نسبة قول لأحمد بن المنير في إنكاره هذا الفرق، إذ يقول^(١): "وطريقة العرب ترتيب الكلام وتلوينه، ومجيء الفعلية تارة، والاسمية تارة أخرى، من غير تكلف لما ذكروه، وقد رأينا الجملة الفعلية تصدر من الأقوياء الخالص، اعتماداً على أن المقصود الحاصل بدون التأكيد كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ٥٣]، ولا شيء بعد: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقد جاء التأكيد في كلام المنافقين، فقال: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

ولكن هذا القول الذي نسب الزركشي لابن المنير يخالف تماماً ما ذكره ابن المنير نفسه في العمل بهذه القاعدة، إذ يقول عند تحليله الفرق بين قراءة الرفع والنصب لـ (الحمدُ لله)^(٢). "والسر في الفرق بين الرفع والنصب، أن في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطَّرو، ولا كذلك الرفع فإنه إنما يستدعي اسماً، ذلك الاسم صفة ثابتة، ألا ترى أن المقدَّر مع النصب نحمدُ الله الحمد، ومع الرفع الحمدُ ثابت لله أو مستقر".

ويقول في موضع آخر^(٣): "ولما كان الرفع دالاً على الثبوت مجرداً عن قيد التجدد والحدوث ناسب أن يقصد به الثبات والدوام بمعونة المقام، بخلاف النصف المستلزم لتقدير الفعل الدال بوضعه على الحدوث والتقضي".

(١) - البرهان في علوم القرآن، ٧٢ / ٤.

(٢) - حاشية الكشف، ٤٦ / ١.

(٣) - السابق، ٤٨ / ١.

وهذا يؤكد لنا تماماً عدم صحة المقولة التي نسبها إليه الزركشي، وعلى افتراض صحتها، فإنه يمكن الجواب عن ذلك " بأن العربية وإن أتاحت طبيعة تراكيبها سعة التعبير بالاسمية تارة وبالفعلية تارة أخرى، فإن مهمة الباحث في بلاغة القرآن الكريم، وفي غيره من النصوص لا تكتفي بالركون إلى تقرير هذا الواقع اللغوي، بل تتساءل دائماً عن السر الذي جعل المبدع يؤثر في تعبيره هذا النمط أو ذاك" (١).

وهو ما يعرف عند علماء البلاغة المحدثين بفن الاختيار (٢) وهو ضرب من ضروب البلاغة الذي يستدعي الوقوف عنده، وهذه مهمة المحلل للنصوص ليكشف عن مكنوناتها الجمالية.

وبناءً على ما سبق ذكره، فيمكننا تفسير تحول ات الجمل في التعبير القرآني، فكثيراً ما نجد التعبير القرآني يتحول من الجملة الاسمية إلى الفعلية والعكس في سياقاته المختلفة مؤدياً بهذا التحول والتحول دلالات تفهم من السياق نفسه.

وقد سبق تناولنا في هذا البحث التحول بين الأسماء والأفعال، وتناولنا هناك بعض نماذج التحول عن الاسم إلى الفعل والعكس، وفي هذا المبحث نتناول تحول ات الجمل نفسها، والتحويلات الحاصلة فيها في سياقات القرآن المختلفة، محاولين تحليل بعض نماذج على هذه التحويلات، وما وراءها من أسرار دلالية يوحى بها السياق.

ويرد هذا التحول في السياقات القرآنية على نمطين هما:

(١)- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ٩٩.

(٢)- انظر في فن الاختيار: كتاب (فن الاختيار والبلاغة العربية، د. محمد بركات أبو علي، والإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، عبد الحميد هنداوي، ٨٧.

النمط الأول: التحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية :

من ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

إذ يحتمل الوقف -في هذه الآية الكريمة- على القلوب، وتكون الغشاوة على السمع والأبصار^(١)، ويحتمل عطف السمع على القلوب، فيكون الختم على القلوب والسمع، وتكون الغشاوة على الإبصار، وهذا هو الراجح، بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهذا ما ذهب إليه ابن عاشور بقوله^(٢): "والظاهر أن قوله "وعلى سمعهم" معطوف على قوله "قلوبهم"، فتكون الأسماع مختوماً عليها، وليس هو خبراً مقدماً لقوله "غشاوة"، فيكون "وعلى أبصارهم معطوفاً عليه؛ لأن الغشاوة تناسب الأبصار لا الأسماع؛ ولأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب، إذ كلاهما يشبه الوعاء، ويتخيل فيه معنى الفلق والسد، فإن العرب تقول: "استكَّ سمعه، ووقر سمعه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم".

وبناء على ما سبق فتكون الجملة الأولى فعلية، وهي قوله: "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم"، وتحول عنها إلى الاسمية بقوله: "وعلى أبصارهم غشاوة"، برفع (غشاوة) على الابتداء، وشبه الجملة قبلها متعلق بالخبر.

(١) - انظر: البرهان، الزركشي، ١٩٧/٢.

(٢) - التحرير والتنوير، ٢٥٥/١.

ولو جرى السياق على نسق واحد لانتصبت "غشاوة" على أنها مفعول به، ولعطف قوله: "على أبصارهم" بالواو على قوله "على قلوبهم وعلى سمعهم"، ولكانت الغشاوة قد شملت بالقلوب والسمع والأبصار، لا الأبصار فحسب: "ووجه التحول عن الفعلية إلى الاسمية وترك التناسب المطلوب، أنه قصد فيه إلى أن غشاوة البصر ثابتة جبلة فيهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. فمن لا لب له لا ينظر نظر استبصار في الأنفس والآفاق، بخلاف عدم التصديق وعدم الإصغاء للندر، فإنه متجدد فيهم قديماً وحديثاً، فدل النظم على أنهم كما لم يمتثلوا أوامر الرسول، لم يجروا على مقتضى العقول؛ لخبث طبيعتهم والطبع على طويتهم، وهذا هو السر في التعبير بالغشاوة الخلقية في العين" (١).

وذهب أبو السعود -أيضاً- إلى تعليل حسن، فقال (٢): "إن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة، كان تعاميمهم عن ذلك -أيضاً- كذلك".

وتلزم الإشارة في هذا الموضع إلى معرفة السر في مجيء الآية الأخرى في سورة الجاثية جملة فعلية، وهي قوله تعالى: "وجعل على بصره غشاوة"، ولم يقل: (وعلى بصره غشاوة)، فتأتي جملة اسمية كما هو الحال في آية البقرة.

(١) - حاشية الشهاب على البيضاوي، ٤٤٩/١.

(٢) - تفسير أبي السعود، ٦٧/١، ٦٨.

وقد علل السامرائي ذلك فقال^(١): "وقال في سورة البقرة (وعلى أبصارهم غشاوة)، بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى هذا أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا، وإنما هذا شأنهم وخلقتهم فلا أصل في إبصارهم في يوم من الأيام، في حين قال في الجاثية (وجعل على بصره غشاوة)، بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث، ومعلوم أن (جعل) فعل ماضٍ، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدلك على ذلك قوله تعالى: "وأضله على علم"، مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترديه، ثم ختم آية البقرة بقوله: (وله عذاب عظيم)، ولم يقل مثل ذلك في الجاثية، فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم، ولذا قدم ختم القلب على ما سواه؛ لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والظلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي تخصيص الختم للقلوب والسمع، والغشاوة للأبصار لطيفة يذكرها البروسوي، يقول^(٢): "ولما اشترك السمع والقلب في الإدراك من جميع الجوانب، جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار مما اختص بجهة المقابلة، فجعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة".

وكرر (على) مع السمع، فقال: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)، ولم يقل: (ختم الله على قلوبهم وسمعهم). وذلك أنه "لو لم يكرر حرف الجر (على) مع السمع

(١) - التعبير القرآني، ٦٥.

(٢) - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البروسوي، ت: محمد الصابوني، ١/ ٣٠-٣١.

لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة، وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضوعين^(١).

ومن نماذج هذا التحول أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

أفاد التحول عن الجملة الفعلية (ونقلهم) إلى الاسمية (وكلبهم باسط) إلى أن الكلب ثابت على حالة واحدة وهي بسط ذراعيه بباب الكهف، في حين أن فتية الكهف يقبلون يميناً وشمالاً، فدلّت الجملة الفعلية على الحركة والتجدد.

يقول الجرجاني^(٢): "وانظر إلى قوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فإن أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه" لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها، من غير أن يكون هناك مزاولة، وتزجية فعل".

ونفهم من كلام الجرجاني أن الجملة الاسمية لا تدل على الثبوت والاستقرار للوصف إلا إذا كان خبرها اسماً لا فعلاً، وهو ما سبق ذكره من قول أبي البقاء الكفوي^(٣): "والجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار إذا كان خبرها اسماً".

(١) - الكشف، ١/ ١٦٤.

(٢) - دلائل الإعجاز، ١٧٥.

(٣) - الكليات، ٣٤١.

وفي التحول إلى الجملة الاسمية في قوله: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) دلالة على أن الله قد حفظ الكلب دون حاجة إلى تقليب، وحفظ الفتية بالتقليب؛ حتى لا تأكل الأرض أجسادهم. وفي ذلك مزيد تكريم وتشريف للفتية، وفيه دلالة أيضاً على قدرة الله الذي يحفظ بالأسباب ويحفظ بدونها.

وقد يرد التحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في مقولة القول؛ للدلالة على المفارقة بين القولين، من ذلك قوله تعالى -يصف المنافقين-: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤].

نجد التحول عن الجملة الفعلية (آمنّا) إلى الجملة الاسمية (إنّا معكم) في مقولة المنافقين يمثل مفارقة بين القولين، بين مخاطبتهم المؤمنين، وبين مخاطبتهم إخوانهم المنافقين، يقول ابن الأثير -مبيناً دلالة هذا التحول-^(١): "فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بأنّ المشددة؛ لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزالوا عنه، على صدق رغبة ووفور نشاط، فكان بذلك مستقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم، وأمّا الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خوفاً ومداجاة، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة؛ فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين آمناً وفي خطاب إخوانهم إنّا معكم".

(١)- المثل السائر، ٢/ ٥١، ١٩٢.

ويرد التحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية الواقعة خبراً للدلالة على المفارقة بين الحالين.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦١].

نجد الخبر في هذا السياق قد ورد جملة فعلية (أولئك يلعنهم الله) ثم تحول عنه إلى الجملة الاسمية (أولئك عليهم لعنة الله). ويكمن سر هذا التحول في أن الآية الأولى في شأن من يكتُمون ما أنزل الله، وهذا الكتمان حاصل متجدد منهم بتجدد الزمان والمكان، فناسب ذلك أن يعبر عن لعنهم بالجملة الفعلية الدالة على حدوث اللعن وتجده، فقال: "أولئك يلعنهم الله"، فكلما تجدد منهم كتمان تجدد عليهم لعن من الله، ومن اللاعنين.

أما الآية الأخرى فهي في شأن الكفار الذي ماتوا على كفرهم وهؤلاء قد ثبت كفرهم واستقر بموتهم، فناسب أن يعبر عن لعنهم بالجملة الاسمية الدالة على ثبوت اللعن عليهم واستقراره.

يقول الشهاب الخفاجي^(١): "والمراد من قوله (يلعنهم) لعنهم في الحياة الدنيا، وقوله: (عليهم لعنة الله) فيما بعد الممات؛ لأن أمر الدنيا على التجدد والحدوث، وأمر الآخرة على الدوام والثبات، فالأول بيان لحدوث اللعنة، والثاني لبيان استقرارها وثباتها".

(١) - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢/ ٤٣٢.

ويرد التحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية مع (أم) المتصلة للدلالة على رجحان ما بعدها. نحو قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم لإبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

إذ تبرز الجملة الفعلية (أجئنا بالحق) استغرابهم من هذا الأمر الحادث الجديد عليهم، ثم عدلوا إلى الاسمية (أم أنت من اللاعين)، ولم يقولوا (أم لعبت)، لأنهم قالوا ذلك "قاصدين إلى المعادل الثاني لـ (أم)، وكأنهم قالوا له: هل ما جئنا به هو الحق أم أنت مستمر على لعبك وعبتك، منخرط فيه، لا تنفك عنه" (١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

إذ حصل التحول عن الجملة الفعلية (أدعوتهم) إلى الاسمية (أم أنتم صامتون)، ولم يقل: (أم صمت)، وذلك "لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فكانت حالتهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إذا دعوتهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم" (٢).

(١) - دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، ١٩٤.

(٢) - الكشف، ١٣٨/٢.

ومن نماذج هذا التحول -أيضاً- ما يرد فيه التحول عن جملة فعلية إلى جملة اسمية مسبوقة بـ (كان)^(١) في أسلوب إنشائي أو خبري. نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

لقد كان المطابق لقولهم: "إما أن تلقي" أن يقولوا: "وإما أن نلقي" لكنهم عدلوا عن ذلك إلى قولهم: (وإما أن نكون نحن الملقيين).

وفي قولهم هذا "ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، من تأكيد ضميرهم المتصل^(٢) بالمنفصل، وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل"^(٣).

وتبع هذه الآية قوله تعالى -على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَام-: ﴿قَالَ الْقَوْمُ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وبذلك سَوَّغَ لهم موسى رغبتهم في أن يلقوا أولاً؛ "إزدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كانوا بصده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحرُ أبداً"^(٤).

(١)- يقول الدسوقي في حاشيته على شرح المغنى "وكلام المصنف يقتضي أن (كان) مسندة لاسمها وهو الصحيح بناء على قول الجمهور وأن لها دلالة على الحدث والزمان وأما قول البيهقي أنها قيد للخبر فمعنى كان زيد قائماً، زيد متصف بالقيام المتصف بالحصول في الزمن الماضي، وحينئذ فالإسناد بين اسمها وخبرها كما كان قبل دخولها، فهو مبني على أنه لا دلالة لها على الحدث": حاشية الدسوقي، ٣٦/٢، والجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل السامرائي، ١٥٨.

(٢)- الصواب هنا: ضميرهم المقدّر.

(٣)- الكشف، ١٠٣/٢.

(٤)- المصدر السابق الصفحة نفسها.

ولو جاء التعبير (إما أن تلقي وإما أن نلقي)، "فإن فيه فضلاً عن عدم اطراد النظم، وتحالف الفاصلة، فيه ما يشير إلى عوامل الشك والقلق الذي يساور السحرة من نتيجة إلقاءهم السحر"^(١). ومع كل هذه الثقة لدى السحرة وما لديهم من عدة وعتاد لم يفلح كل ذلك أمام قوة الحق وجلاله، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

كان مقتضى المشاكلة أن يرد السياق على نحو (أصدقت أم كذبت) لكنه تحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية فقال: (أم كنت من الكاذبين). وقد اختلفت الآراء في معرفة سبب هذا التحول. فرأى بعضهم^(٢) أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يواجه الهدهد بالكذب له، وإنما أدرجه في جملة الكاذبين أدباً في الخطاب، ويكون في ذلك دلالة على أنه ترجح صدق الهدهد لدى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ورأى آخرون أن قوله: (أم كنت من الكاذبين) فيه دلالة على ترجيح جانب الكذب في حق الهدهد، "لأنه تحول عن الفعل الذي هو (أم كذبت)، وعن مجرد صفته في قوله: (أم كنت كاذباً)، إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد"^(٣).

(١) - الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، ١٤٧.

(٢) - انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٦٣/٤، والكشاف، ١٤٥/٣، وبحث الإعجاز البياني في آيات قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، فايز الخطيب، ٦٣، مؤته للبحوث والدراسات، م ١٦، ع ١٤، ٢٠٠١م.

(٣) - حاشية الكشاف، ابن المنير، ١٤٥/٣.

ولأن صدور مثل هذا الكذب من هذا الطائر على حقارته أمام نبي عظيم وملك جليل كسليمان "يجعله منخرطاً في سلك الكاذبين، فيكون الكذب سجية له وطبيعة فيه لا يستطيع الفكاك منها"^(١).

يقول ابن عاشور^(٢): "وإقحام "كنت" أدخل في نسبته إلى الكذب من صيغة "أصدقت"؛ لأن فعل "كنت من الكاذبين" يفيد الرسوخ في الوصف بأنه كائن عليه، وجملة "من الكاذبين" أشد في النسبة إلى الكذب بالانخراط في سلك الكاذبين، بأن يكون الكذب عادة له، وفي ذلك إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلص من العقاب، وإيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأن كذبه أرجح عند الملك؛ ليكون الهدهد مغلباً الخوف على الرجاء، وذلك أدخل في التأديب على مثل فعلته، وفي حرصه على تصديق نفسه بأن يبلغ الكتاب الذي يرسل معه".

وقد يرد التحول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المنفية، فيكون ذلك أكد للنفي.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. كان مقتضى السياق أن يقول: (وما آمنوا) ليقابل ذلك قولهم: (آمنا) لكنه تحول عن ذلك إلى الجملة الاسمية المنفية، فقال: (وما هم بمؤمنين).

علل الزمخشري سبب هذا التحول فقال^(٣): "فإن قلت: كيف طابق قوله -وما هم بمؤمنين- قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل،

(١)- دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، ١٩٥.

(٢)- التحرير والتنوير، ١٩/٢٥٦.

(٣)- الكشف، ١/١٦٩.

والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إنكار ما ادّعوه ونفيه، فسُلبك في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب، وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين؛ لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان".

ونضيف إلى ما قاله الزمخشري، أن التعبير لو جاء على نسق سابقه في المشاكلة فقال: (وما آمنوا)، لأوهم ذلك أنه أراد نفي كمال الإيمان، لا نفي الإيمان أصلاً، أي: وما آمنوا الإيمان الحق الكامل الذي ينبغي صدوره منهم، لكنه تحول عن ذلك إلى الجملة الاسمية المنفية قال: (وما هم بمؤمنين) فكان ذلك أكد في نفي وجود أدنى إيمان لديهم، وزاد في تأكيد هذا المعنى مجيء الباء المؤكدة في خبر الجملة الاسمية.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فقد نفى التعبير القرآني اتباع أهل الكتاب قبله النبي ﷺ بالجملة الفعلية فقال: (وما تبعوا قبلتك)، في حين تحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية المنفية في نفي اتباع النبي ﷺ قبلتهم، فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم".

وفي ذلك إمعان في النفي أن يصدر من النبي ﷺ شيء من ذلك، يقول الألويسي (١): "وما أنت بتابع قبلتهم"، أي: لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون".

(١) - روح المعاني، ١١/٢.

ويقول سيد قطب^(١): "وما أنت بتابع قبلتهم، ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً، واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ﷺ تجاه هذا الأمر".

وزاد تأكيد هذا المعنى أيضاً دخول الباء المؤكدة على اسم الفاعل (بتابع)؛ ليدل ذلك "على النفي الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم في اتباع النبي ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم في دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة المنفية للدلالة على انتفاء أهلية النبي ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه"^(٢).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

نلاحظ في هذا السياق مجيء الجملة الفعلية في نفي جزاء الوالد عن ولده فقال: "لا يجزي والد عن ولده"، ثم تحول عنها إلى الجملة الاسمية عند نفي جزاء الولد عن الوالد، فقال: "ولا مولود هو جاز...".

يقول الزمخشري في تحليل هذا التحول^(٣): "السبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وقد قبض آبائهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم

(١)- في ظلال القرآن، ١/ ١٣٥.

(٢)- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ١٧٠.

(٣)- الكشف، ٣/ ٢٣٨.

أطعمهم وأطعم الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الآكد".

وقد تعقب ابن المنير هذا الرأي للزخشي قائلًا^(١): "وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس".

والتعليل المناسب عنده هو أنه^(٢): "لما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع؛ لأن الله حَضَه عليه في الدنيا، كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس".
ويزيد تأكيد هذا المعنى مجيء التحول المعجمي في كلمة (المولود) ولم يقل (ولد)، فالمولود -كما ذكر الزخشي- لا يطلق إلا على من وُلِدَ منك، أما الوالد فهو عام يشمل الولد وإن نزل، وفي ذلك تأكيد لنفي عموم النفي، فإذا كان المولود الذي هو من صلب أبيه لا ينفع والده، فمن باب أولى ينتفي الانتفاع بغيره.

النمط الثاني: التحول عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

أبرز هذا التحول عن الجملة الاسمية (والله يريد...) إلى الجملة الفعلية (ويريد الذين...) (المفارقة بين إرادتين، وأشار إلى كمال المباينة بين مضموني الجملتين، لإرادة

(١) - حاشية الكشف، ٢٣٨/٣.

(٢) - حاشية الكشف، ٢٣٨/٣.

الله إرادة خيِّرة فيها كمال النفع والصلاح لخلقه، وإرادة متبعي الشهوات إرادة شريرة خبيثة، لا خير فيها ولا صلاح. فناسب التباين في المعنى تباين المبنى... وبرز ذلك من خلال التغاير بين الجملتين.

وفي تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قوله: (والله يريد) تكثيف للدلالة على المسند إليه وهو الله **عَزَّجَلَّ** وفي ذلك إشارة إلى كمال هذه الإرادة ونفاذها ما دامت صادرة منه تعالى، في حين عبّر بالجملة الفعلية عن إرادة متبعي الشهوات فقال (ويريد الذين...) للإشارة إلى تجدد هذه الإرادة منهم بإلحاح وحرص، ومع ذلك فإرادة الله غالبة، والله يفعل ما يريد.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

تحول السياق الكريم عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية فقال (وأعدّ لهم أجراً كريماً) ولم يقل (وأجرهم أجر كريم) أو (ولهم أجر كريم). فأفاد ذلك "المبالغة في الترغيب، والتشويق إلى الوعد ببيان أن الأجر هو المقصد الأقصى من بين سائر آثار الرحمة، وأنه موجود بالفعل مهياً لهم، فضلاً عما حققه هذا التحول من الانسجام في مراعاة فواصل الآي (١)".

(١) - من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني. طالب الزويبي ١٥٧.

المبحث الثامن

التحول في النسق الإعرابي

وهو أن يأتي في الكلام تركيب أو لفظ - مخالف في حكمه الإعرابي للحكم الإعرابي الذي سبقه، مع أن الكلام يشمل سياق نحوي واحد، ويمثل ظاهرة نحوية لافتة تساعد في دخول الخطاب دائرة الاحتمالات، وتدفع المتلقي إلى تلمس التأويلات المختلفة لعلة هذا التحول الإعرابي الملحوظ^(١).

وقد ارتبط الإعراب بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، يقول ابن جني^(٢): "والإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان شرجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه".

لذلك كل تحول في النسق الإعرابي يصاحبه تحول في المعنى قطعاً، "إذ المعنى هو الأساس والمنطلق في إعراب الجمل وتحليلها"^(٣)، فظاهرة التحول في الإعراب ليست مجرد حركات إعرابية مخالفة، وإنما لها مقابلاتها المعنوية الكامنة في الضغط على مدلول الصفة المخالفة في إعرابها^(٤).

(١)- انظر: تحولات البنية في البلاغة العربية، ٤٣١.

(٢)- الخصائص ٣٥ / ١.

(٣)- التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب، عبد العباس عبد الجاسم ٢٥.

(٤)- نظرية اللغة في النقد العربي، عبد الحكيم راضي ٢٢٣.

وهنا تظهر مهمة النحوي المدرك لأسرار التراكيب ودلالاتها، في تأويل هذا التحول والوقوف على مكنوناته الدلالية، فالمعنى هو الموجه للإعراب يقول ابن جني^(١): "فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت تقدير الإعراب".

ويقول شيخنا الدكتور سمير استيتية مبيناً أهمية الإعراب وعلاقته بالبلاغة^(٢): "الإعراب نفسه بليغ، وحسبك أن تحرك الحركة الإعرابية، بأن هذه الكلمة فاعل، وأن تلك مفعول به، وأن هذه الكلمة تتبع تلك وتصفها، أو أنها منقطعة عن التي قبلها؛ ليكون ذلك دليلاً على أن للإعراب وظيفة بلاغية تؤديها في اللسان العربي، بل يكفي أن تشير الحركة الإعرابية إلى عامل محذوف أو مقدّر، ليكون لذلك أثر بلاغي واضح". ويذكر شيخنا أيضاً أن الإعراب قد يؤدي إلى تعدد المعنى للقول الواحد، فيقول^(٣): "وحسب الإعراب أن القول الواحد يمكن أن يتقلب فيه على معانٍ كثيرة، بدلاً من أن يكون للقول الواحد معنى واحد، كما هو الحال في سائر اللغات".

(١)- الخصائص ١/ ٢٨٣-٢٨٤.

(٢)- منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، سمير شريف استيتية، ٣٢٤-٣٢٥.

(٣)- روافد البلاغة بحث في أصول التفكير البلاغي، سمير شريف استيتية، ٣٢٢، ضمن كتاب "دراسات إسلامية عربية".

ويشير إلى أن الإعراب يمكن أين يكون باباً من أبواب الإبداع، فيقول^(١): "ومن بلاغة الإعراب أنه قادر على أن يستخدم الملكات العقلية والقدرات التأويلية لدى العلماء والباحثين، أي: أنه يمكن أن يكون باباً من أبواب الإبداع والابتكار، مثلما هو قادر على أن يكون مؤشراً لمكنونات لغوية، وأسرار عظيمة في التركيب".

ويرد هذا النوع من التحول في السياق القرآني في صور عديدة، نعرض لأهمها^(٢) على النحو الآتي:

أولاً: تحولات الرفع:

تتعدد دلالات هذا التحول وأشكاله على النحو التالي:

- أ. التحول عن الرفع على العطف للتشريك إلى النصب على التخصيص بالمدح.
 - ب. التحول عن الرفع على النعت إلى النصب على القطع للذم.
 - ج. التحول عن الرفع على العطف أو الاستئناف إلى النصب على المعية.
 - د. التحول عن الرفع على الإخبار إلى الجزم على جواب الطلب.
- ونبدأ عرض ذلك على النحو الآتي:

(١) - منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، سمير شريف استيتية، ٣٢٧.

(٢) - عرضنا هذه التحولات في الإعراب وفق قراءة حفص بن عاصم، وأما تحولات الإعراب في القراءات فهو باب واسع، يشكل دراسة مستقلة بذاته، انظر: التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب في القراءات السبع، عبد العباس عبد الجاسم أحمد، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠١ م.

أ. التحول عن الرفع على العطف للتشريك إلى النصب على التخصيص بالمدح:
من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فنجد في هذه الآية التحول عن الرفع في كلمة
(المؤمنون) إلى النصب في (الصابرين) وكان القياس عطفها على سابقتها بالرفع
فتكون (والصابرون).

وقد علل علماء اللغة والتفسير هذه المخالفة في الإعراب للفظه (الصابرين) فذكر
الواحدي أن قوله (والصابرون) انتصب على المدح، وإن كان معطوفاً على مرفوع، لأن
العرب إذا تطاول الكلام اعترضت فيه بالمدح أو الذم، فينصبون وإن كان حقه الرفع^(١).
وزاد الزمخشري الأمر توضيحاً فقال^(٢): "وأخرج (الصابرين) منصوباً على
الاختصاص والمدح، إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر
الأعمال".

وهذا الرأي مذهب جمهور المفسرين^(٣)، وهم في ذلك يصدرن عن آراء أئمة
النحو المتقدمين، يقول الفراء^(٤): "والعرب تعترض من صفات الواحد إذا تطاولت

(١) - الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١ / ٢٥٢.

(٢) - الكشف ١ / ٣٣١.

(٣) - انظر: تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٩ وتفسير أبي السعود ١ / ١٩٤، وروح المعاني ٢ / ١٤٧.

(٤) - معاني القرآن ١ / ١٠٥.

بالمدح أو الذم، فيرفعون إذا كان الاسم رفعاً، وينصبون بعض المدح، فكأنهم ينوون إخراج المنصوب بمدح مجدّد غير مُتَّبِعٍ لأوّل الكلام من ذلك قول الشاعر^(١):

لَا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزُرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ وَالطَّيِّبِينَ^(٢) مَعَاقِدَ الْأُزُرِ

وهو رأي سيبويه يقول^(٣): "وسمعنا بعض العرب يقول: الحمد لله ربّ العالمين، فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية، ومثل ذلك قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] فلو كان رفعاً كان جيّداً، فأما المؤتون فمحمول على الابتداء، وقال جل ثناؤه: "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر... والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصّابرين في البأساء والضّراء" ولو رفع (الصّابرين) على أوّل الكلام كان جيّداً، ولو ابتدأته فرفعته على الابتداء كن جيّداً، وكما ابتدأت في قوله (والمؤتون الزكاة)... زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناء وتعظيماً ونصبه على الفعل".

(١) - الليث لـ (خَرِيقُ بِنْتِ هِفَّانٍ) أخت طرفة بن العبد، انظر: الديوان، ت: واضح العبد، ص: ٣٩، ورواية الديوان (النازلون). وانظر: شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١٤/٢، وخزانة الأدب للبغدادى ٤١/٥.

(٢) - ويروى (الطيون) بالرفع، انظر: شرح الشواهد للعيني، ٦٠٣/٣، والدرر اللوامع ١٥٠/٢.

(٣) - الكتاب ٦٦-٦٣/٢.

ويفهم من كلام سيبويه أن هذا الأسلوب قد خرج عن الشكل العادي الخبري إلى أسلوب المدح، فقام المتكلم بتغيير أسلوبه الإعرابي؛ ليعبر عن هذا التغيير^(١).

فالمولى عَزَّجَلَّ لم يقصد مطلق الخبر عندما تحدث عن الصابرين في البأساء والضراء، وإنما قصد على وجه التخصيص المدح والثناء على هذه الفئة، لذا تحول عن الرفع بالعطف على التشريك في الحكم والمساواة في الجزاء إلى النصب، وفيه مزيد حث على الصبر على البلاء.

ونحو ما سبق قوله تعالى ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢].

فقد حصل في هذا السياق تحول في الإعراب، إذ القياس أن ترد كلمة (والمقيمين) مرفوعة، لأنها معطوفة على (الراسخون)، لكن السياق تحول عن ذلك إلى النصب ليوافق ذلك تحول في المعنى عن الإخبار المحض إلى التخصيص بالمدح والثناء لمقيمي الصلاة.

يقول ابن هشام في شرح شذور الذهب^(٢): "إن المقيمين نصب على المدح، وتقديره وأمدح المقيمين، وهو قول سيبويه^(٣) والمحققين، وإنما قطعت هذه الصفة عن بقية الصفات لبيان فضل الصلاة على غيرها".

(١)- انظر: أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية، يحيى

القاسم، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات ١١م ع ١٩٩٣م، ص ١٤.

(٢)- شرح شذور الذهب، ٥٤، وانظر: الكشف ١/ ٥٨٢.

(٣)- انظر: الكتاب ٢/ ٦٣.

وجاء في (معترك الأقران) للسيوطي^(١): "قطع النعوت في مقام المدح والذم أبلغ من إجرائها، قال الفارسي: إذا تكرت صفات في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف في إعرابها؛ لأن المقام يقتضي الإطناب، فإذا خولف في الإعراب كان المقصود أكمل؛ لأن المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتنفّ، وعند الاتحاد تكون نوعاً واحداً".

ب. التحول عن الرفع على النعت أو الخبر إلى النصب على معنى القطع للذم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِوْدِهَا حَنْبَلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥-٤]. ففي هذا السياق تحول عن الرفع في لفظة (حمالة) لكونها نعتاً لـ (امرأته)^(٢) إلى النصب أو خبراً إلى النصب على الذم، يقول ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)^(٣): "أما من قرأ^(٤) قوله سبحانه: (حَمَّالَةٌ) بالنصب، فقد قطع كلامه ونصب على الذم، وجعلها مفعولاً به لفعل محذوف، تقديره (أعني) أو (أذم) إذ العرب تنصب بالمدح والذم".

(١) - معترك الأقران ١/ ٣٥٤، وانظر: البرهان للزركشي ٢/ ٤٤٦-٤٤٧.

(٢) - تعددت أوجه الإعراب في رفع (حمالة) على قراءة الرفع، انظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٨، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٧٥.

(٣) - الحجة في القراءات، ٣٧٧.

(٤) - قرأ الجمهور السبعة (حمالة) بالرفع، وقرأها عاصم وحده نصباً ووافقه ابن محيصن، انظر: البحر المحيط، ٨/ ٢٥٦، والنشر في القراءات العشر، ٢/ ٤٠٤، والكشف عن وجوه القراءات، مكّي بن أبي طالب القيسي، (ت ٤٣٧هـ)، ٢/ ٣٩٠، ت: محيي الدين رمضان.

ويقارن مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) بين الرفع والنصب فيقول^(١): "وفي الرفع أيضاً ذم، لكن هو في النصب أئين؛ لأنك إذا نصبت لم تقصد إلى أن تزيدها تعريفاً وتبييناً، إذ لم تجر الإعراب على مثل إعرابها، إنما قصدت إلى ذمها، لا لتخصيصها من غيرها بهذه الصفة التي اختصصتها بها". ففي النصب (حمالة) مبالغة في الذم، ولذا فقد تغير إعرابها تبعاً لتغير أسلوبها من الجر المحض إلى الذم^(٢).

جـ. التحول عن الرفع على العطف أو الاستئناف إلى النصب على المعية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. ففي هذا السياق نلاحظ التحول إلى النصب في الفعلين (ولا نكذب ... ونكون) ... ولو مضى السياق على نسق واحد من الحركة الإعرابية لكان (ولا نكذب ... ونكون) بالرفع لكونها معطوفين على الفعل المرفوع (نُردُّ). وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير والكسائي، والنصب قراءة حمزة ورواية حفص عن عاصم^(٣).

ويبرز التحول عن الرفع إلى النصب في قراءة حمزة ورواية حفص، ولكي ندرك سر هذا التحول على هذا الوجه من القراءة، ينبغي أن نعرف أولاً المعنى بمقتضى

(١) - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجتها، ت: محي الدين رمضان، ٢/ ٣٩٠.

(٢) - أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب، ٢٠.

(٣) - انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ١٣٧، والبرهان في إعراب القرآن، ٣/ ١٤٥.

قراءة الرفع التي جرت على نسق المطابقة في السياق، ثم نفسر التحول عن المطابقة وما يضيفه من دلالة في ذلك.

فقراءة الرفع تخرج على وجهين: الأول: أنها على عطف الفعلين على (نُردُّ) فيكون المعنى حينئذ أن الكفار تمنوا هذه الأمور الثلاثة الرد وعدم التكذيب بآيات ربهم، وكونهم من المؤمنين^(١).

والوجه الثاني: "أن يكون الفعلان مستأنفين، على معنى أنهم تمنوا الرَّدَّ وحده، ثم قالوا: ولا نُكذِّبُ ونكونُ من المؤمنين رُدِّدنا أم لم نرد" ^(٢).

وقد علل سيبويه الوجهين في الرفع في هذه الآية فقال^(٣): "فالرفع على وجهين: فأحدهما أن يشرك الآخر الأول، والآخر على قولك: دَعْنِي ولا أَعُودُ، أي فَإِنِّي ممن لا يعود، فَإِنَّا يسألُ الترك وقد أوجب نفسه أن لا عودة له البتَّة، ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لا يعود"، ويكون معنى الآية على الوجه الثاني أنهم "أخبروا أنهم لا يكذبون بآيات ربهم، وأنهم يكونون من المؤمنين على كل حال، رُدُّوا أو لم يُرَدُّوا" ^(٤).

(١) - انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الأنباري، ١/ ٣١٨.

(٢) - القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، فضل حسن عباس، ٤٧، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، م ١٤، ع ٧، ١٩٨٧ م.

(٣) - الكتاب، ٣/ ٤٤.

(٤) - البرهان في إعراب القرآن، الميقرى، ٣/ ١٤٥.

وعلى قراءة النصب التي نحن معنيون بمعرفة سر التحول فيها، يكون المعنى: أنهم تمنوا الرَّدَّ مع عدم التكذيب، وكونهم مؤمنين، لذلك عقب المولى عزَّجَلَّ على قولهم هذا بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

يقول ابن القيم^(١): "فمعنى الآية أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاینوها، وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته، ولا يعودون إلى تكذيب رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم ولا سجايهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو رُدُّوا لكانوا بعد الرَّدِّ كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو رُدُّوا لآمنوا وصدَّقوا". فيكون الفعلان منصوبين بإضمار "أن" بعد الواو التي بمعنى "مع" كقولك: ليت لي مالاً وأتصدَّق منه"^(٢). ومعنى القراءة على نصب الفعلين أنهم تمنوا الرَّدَّ على أن يكونوا في حالة الرَّدِّ غير مكذبين ومن المؤمنين كذلك^(٣).

والمح من هذا السياق، بتعدد أوجه الإعراب المختلفة له، أن الكفار كانت لهم عند مشاهدة العذاب عدة آمنيات، وليست أمنية واحدة، وقد أخبر القرآن عنها كلها.

فكأنهم عندما شاهدوا العذاب ابتداء فزعوا فتمنوا الرَّدَّ إلى الدنيا، وهم في لحظة الفزع والذهول قد آمنوا بما شاهدوا ولم يعودوا من المكذبين بآيات ربهم سواء رُدُّوا

(١) - التفسير القيم، ابن القيم، ت: الندوي، ٢٣٥.

(٢) - انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ١٣٧، والبيان في غريب إعراب القرآن، ٣١٨/١، والبرهان في إعراب القرآن، ١٤٥/٣.

(٣) - انظر: القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، فضل عباس، ٤٧.

أم لم يُردوا، فلا علاقة للردّ حينئذ بإيمانهم. وهذا ما توحى به قراءة الرفع في أحد وجهيهما (وهو الاستئناف)، في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم تمنوا الردّ مصطحبين في معيتهم هذه القناعة التي رسخت لديهم من المشاهدة والعيان ليعملوا بها في الدنيا، وهو ما أشار إليه القرآن في موضع آخر بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وهو ما توحى به قراءة التحول إلى النصب (على المعية) بقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم عندما يئسوا من الرجوع إلى الدنيا، وأن ذلك يستحيل، لهجوا بالحسرة والندامة متمنين ثلاثة أمور: الرد إلى الدنيا وأنهم ما كانوا كذّابوا بآيات ربهم، وأنهم كانوا مؤمنين، وهو ما توحى به قراءة الرفع على الوجه الآخر (وهو العطف)، فكل وجه من وجوه الإعراب دل على معنى جديد لا يؤديه سواه، وهذه الأوجه بمجموعها تتكامل في وصف مشهد الحسرة والعذاب.

د. التحول عن الرفع على الإخبار إلى الجزم على جواب الطلب:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ...﴾ [الصف: ١٠-١٢].

نجد الفعلين (تؤمنون) و(تجاهدون) مرفوعين، في حين ورد الفعل (يغفر) مجزوماً، وقد علل العلماء جزمه في هذا السياق؛ لكونه وقع جواباً للجملة الخبرية المقصود بها الأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يَغْفِرْ لكم^(١).

وأفاد الجزم للفعل (يَغْفِرْ) ترتبه على ما قبله ترتب النتيجة على السبب. وفي ذلك مزيد تشويق للمؤمنين وتحفيز للمسارة إلى تنفيذ الفعل، ولو أتى به مرفوعاً (يَغْفِرُ لكم...) لكان خبراً محضاً لا تعلق له بما قبله، وجزمه دل على أن ما قبله طلب، وأن الفعل مترتب عليه.

ثانياً: تحولات النصب:

وتتنوع أشكال هذا التحول، فتختلف دلالاته تبعاً لاختلاف أشكاله، وستتناول بعض هذه الأشكال على النحو الآتي:

- أ. التحول عن النصب على الفعلية إلى الرفع على الاسمية.
- ب. التحول عن النصب على العطف للتشريك إلى الرفع على الاستئناف.
- ج. التحول عن النصب على التعليل إلى الرفع على الإخبار.
- د. التحول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الرفع على سبيل عطف الجمل.
- هـ. التحول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الجزم على سبيل عطف الجمل.

(١) - انظر: معاني القرآن وإعرابه المنسوب للزجاج، ١/ ٢٢٦، معاني القرآن، الفراء، ٣/ ١٥٤.

وسنعرض لبعض النماذج لكل شكل من هذه الأشكال متناولين تلك النماذج بالتحليل؛ للوقوف على أبعادها الدلالية، وذلك على النحو التالي:

التحول عن النصب على الفعلية إلى الرفع على الاسمية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩].

وقوله تعالى -أيضاً: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٦].

فالتحول إلى رفع (سلام) في مقولة إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، دون نصبها كما وردت في مقولة الرسل، هو تحول عن فعلية الجملة إلى اسميتها، إذ أنها في حال النصب مصدر منصوب بفعل محذوف وتقديره: نسلم سلاماً، أما من حال الرفع فهي: إما خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف خبره، والتقدير: أمري سلام أو سلام عليكم^(١).

وقد علل علماء التفسير والبلاغة هذا التحول تعليلاً يقوم على أساس الفرق الدلالي بين الجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، والجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار. يقول الزمخشري^(٢): "رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لأن الرفع دل على معنى ثبات السلام لهم

(١)- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٢٠٥، وانظر: تفسير القرطبي، ٩/ ٦٣.

(٢)- الكشف، ١/ ٤٨.

دون تجددّه وحدوثه". ويرى ابن المنير^(١) أنه "لما كان الرفع دالاً على الثبوت مجرداً عن قيد التجدد والحدوث، ناسب أن يقصد به الثبات والدوام بمعونة المقام، بخلاف النصب المستلزم لتقدير الفعل الدال بوضعه على الحدوث والتقضي".

وقد التمس السهيلي معنىً مغايراً لما هو معهود عند البلاغيين والمفسرين في هذا السياق من مفاضلة السلامين؛ لاختلاف التعبير بالاسمية والفعلية عنهما.

فيرى أن الأول قد ورد منصوباً^(٢)؛ "لأنه لم يقصد الحكاية، ولكنه جعله قولاً حسناً وسماه سلاماً؛ لأنه يؤدي معنى السلام في رفع الوحشة ووقوع الأنس، وحكى عن إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قوله، فرفع بالابتداء، وحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية هذا ورفع ونصب ذلك، إشارة لطيفة وفائدة شريفة، وهو أن السلام من دين الإسلام، والإسلام ملة إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وقد أمرنا بالاتباع والاقتداء به، فحكى لنا قوله، ولم يحك لنا قول أضيافه، إذ لا فائدة في تعريف كَيْفِيَّتِهِ، وإنما الفائدة في تبين قول إبراهيم وكيفية تحيته، ليقع الاقتداء به، وأخبر عن قول الأضياف على الجملة، لا على التفصيل، وعن قول إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مفصلاً محكياً لهذه الحكمة، والله أعلم".

ودلالة السياق تحتمل كل ما سبق ذكره، فيكون التحول عن النصب إلى الرفع في هذا السياق قد أفاد الدلالات التالية:

(١) - حاشية الكشف، ٤٨/١.

(٢) - نتائج الفكر في النحو، السهيلي، ت: عادل عبد الموجود، ٣١٩.

أولاً: دلت تحية النبي بالرفع على أنه حيّاهم بأحسن من تحيتهم؛ لدلالة الثبوت والاستقرار في الجملة الاسمية، وهذا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء: ٨٦].

ثانياً: "أن الملائكة سلمت على إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بما يناسب طبيعة الإنسان من التجدد والتغير، فهو سلام متجدّد، وأن إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ردّ عليهم التحية بما يناسب خلق الملائكة من الثبوت والاستمرار وعدم التغير".^(١)

ثالثاً: دلّت الجملة الفعلية على الندب والاستحباب، فابتداء السلام مندوب، وردّه واجب، فكان الرد من النبي إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، جملة اسمية، وهي ترد في سياق الوجوب والفرض، إذ يرجح الرفع فيما سبيله الفرض والواجب، والنصب فيما له دلالة على المندوب^(٢).

رابعاً: حكى التنزيل تحية الملائكة بالمعنى؛ وذلك لأن معرفة لفظها لا يتعلق به حكم أو اقتداء، في حين أنه حكى تحية النبي إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** بنصبه ولفظه؛ للاقتداء به في العمل، والعناية بتحيته والاهتمام.

ونخلص في هذا السياق إلى القول إن هاتين الحركتين الإعرابتين قد أدتا إلى انفتاح دلالي متعدد فيه المعاني ويتسع فيه التأويل.

(١) - منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، ٣٢٥.

(٢) - انظر في ذلك: المحرر الوجيز، ٦٤ / ٢، ٢٢٩ - ٢٣٠، والبحر المحيط، ١٣ / ٢ - ١٤، والدر المصون، ٤٥٢ / ١، والتوجيه البلاغي للقراءات، ٩٦.

يقول شيخنا الدكتور سمير استيتية^(١): "وهكذا تكون الحركتان الإعرابيتان في هذه الآية الكريمة قد أشارتا إلى هذه المعاني كلها، وربما غيرها مما لم نقف عليه، وهذا لا يعني أن إبراهيم قد رفع، وأن الملائكة قد نصبت، بل يعني حواراً فيه كل المعاني التي ذكرتها، ولخصتها الآية الكريمة بحركة نصب، وحركة رفع، أليست هذه هي قمة البلاغة، وأسمى دراجاتها، وأرقى منازلها؟"

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾

[التوبة: ٤٠].

ففي قوله تعالى: "وكلمة الله هي العليا برفع (كلمة) على الابتداء تحول إلى الجملة الاسمية عن نمط الجملة الفعلية السابقة عليها في السياق (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى).

وندرك سر هذا التحول القرآني من كون الجملة الاسمية دالة على ثبوت الوصف واستقراره، فعلو كلمة الله عزَّجَلَّ ثابت مستمر في كل زمان ومكان. وهذا الذي نفهمه من عدم عطف لفظة (وكلمة الله) على ما قبلها فتكون جملة فعلية، وإنما العطف هنا عطف جملة على جملة لا عطف مفرد على مفرد؛ للنكته البلاغية المذكورة. ولو عطف (كلمة الله) على (كلمة الذين كفروا) لدل السياق على أن علو كلمة الله مجعول حادث، أي: أنَّ علوها حادث متجدد، وذلك يفهم من دلالة الفعل على التجدد والحدوث، وأنه قد مر على كلمة الله أوقات لم تكن عليها.

(١) - منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، ٣٢٥-٣٢٦.

يقول ابن عاشور^(١): "وجملة" وكلمة الله هي العليا" مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام؛ لأنه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنها صارت سفلى، أفاد أن العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عليا، لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أن العلاء ثابت لها ومقصود عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى. ومعنى جعلها كذلك: أنه لما تصادمت الكلمتان وتناقضتا، بطلت كلمة الذين كفروا، واستقر ثبوت كلمة الله".

ويرد السؤال هنا لماذا لم يأت التعبير القرآني برفع (كلمة الذين كفروا) لتكون جملة اسمية تدل على ثبوت تسفل كلمة الكفر على الدوام، ويكون بذلك قد قابل بين ثبات تسفلها ودوام علو كلمة الله - **عَزَّجَلَّ** -؟

وقد أجاب عن ذلك أبو الفضل القرشي، فقال^(٢): "إن الآية لو جاءت على هذا النحو (أي: من غير جعل)، لأفادت أن كلمة الكفر في نفسها سافلة وليس هذا هو المراد، بل المراد أن تسفلها قد حصل ببركة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**".

ونلاحظ أيضاً في هذا السياق تقابلاً لطيفاً بين الجملتين:

فقوله تعالى: (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى)، تقابل (وكلمة الله هي العليا)، وداخل هذه المقابلة توجد الشائيات التالية:

(١) - التحرير والتنوير، ١٠ / ٢٠٥.

(٢) - حاشية أبي الفضل على هامش البيضاوي، ٩ / ٣.

فكلمة الله هي العليا: فيها ثبوت واستقرار بدلالة الجملة الاسمية، وإرادة مطلقة وحضور وبروز ضمير الفصل المؤكد، وكلمة الذين كفروا السفلى: فيها حدوث وتغير، من دلالة الجملة الفعلية، وإرادتها ضعيفة محدودة.

وجاء الرسم في كلمتي (السفلى ↔ العليا) في غاية الإعجاز والبيان، إذ [السفلى] الألف فيها مقصورة، إشارة إلى أن كلمة الكفر مقصورة في معناها ومعناها، و[العليا] بالألف الممدودة، إشارة إلى امتداد كلمة الله وعلوها وارتفاعها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فقد جاءت كلمة (أحياء) مرفوعة، وحققها النصب إذ هي معطوفة بـ (بل) على (أمواتاً)، لكنها جاءت مرفوعة على تقدير (بل هم أحياء) فـ (أحياء) خبر لمبتدأ محذوف، ولم يقل: (بل أحياء)، فتحول عن النصب إلى الرفع وذلك أن الرفع في تقدير جملة اسمية، وهي تفيد الثبوت والاستقرار، فحياة الشهداء عند ربهم ثابتة لا شك فيها، مستقرة لا تبدل لها، ومستمرة لا انقطاع فيها. في حين لو جاء التعبير بالنصب (بل أحياء) لكان التقدير على إعادة العامل، ويكون التقدير بجملة فعلية، أي: بل احسبهم أحياء^(١).

والمقام مقام يقين، فلا يُؤمَر فيه بمحسبة، ولا مجال فيه للحسبان والشك، وقد جاءت مادة "حسب" في القرآن الكريم في سياق الشك واعتقاد ما هو خلاف الحقيقة نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾

(١) - انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١/ ٤٨٨، والكشاف، ١/ ٤٣٩.

[النمل: ٨٨]. وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] في حين دل التحول إلى الرفع على الثبوت واليقين.

ب- التحول عن النصب على العطف للتشريك إلى الرفع على الاستئناف:

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ * أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٠-١٣].

إذ حصل تحول عن النصب بالعطف على المضارع المنصوب (يكذبون) الذي أصله (يكذبونني)، فيرد السياق (ويضيقُ صدري ولا ينطلقُ لساني...)، فحصل التحول عن النصب إلى الرفع (ويضيقُ صدري ولا ينطلقُ لساني).

وذلك على تقدير أنه معطوف على خبر (إنَّ)، أو على الاستئناف، فيكون المعنى إني خائف، وضيقُ الصدر، وغيرُ منطلق اللسان، فهذه الصفات موجودة فيه أصلاً قبل الرسالة، وهي أكثر ما تكون حين إرساله إلى قومه، فبيّن السياق ثقل الأمر على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول الزمخشري^(١): "و(يضيقُ) و(ينطلقُ) بالرفع؛ لأنها معطوفان على خبر (إنَّ) والنصب لعطفهما على صلة (أَنْ)، والفرق بينهما في المعنى، أن الرفع يفيد أنَّ فيه ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان. والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة".

(١)- الكشف، ١٠٦/٣، يقول الفراء في معاني القرآن، ٢/٢٧٨: "ويضيقُ صدري مرفوعة؛ لأنها مردودة على (أخافُ) ولو نُصِبَتْ بِالرَّدِّ عَلَى (يكذبون) لكانت نصباً جواباً، والوجه الرفع؛ لأنه أخبر أن صدره يضيق، وذكر العلة التي كانت بلسانه، فتلك ممّا لا تخافُ؛ لأنها قد كانت".

جـ التحول عن النصب على التعليل إلى الرفع على الإخبار:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِن لَّكُمْ وَنُقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

نلاحظ في هذا السياق مجيء الفعل (نقُرُّ) مرفوعاً، والقياس يقتضي نصبه لكونه معطوفاً على فعل منصوب قبله (لنبن) لكن التحول إلى الرفع كان بقصد الإخبار لا التعليل. يقول الزمخشري^(١): "فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره من ذلك إلى أجل مسمى ...، والقراءة بالنصب (نقُرُّ) تعليل معطوف على تعليل، ومعناه: خلقناكم مدرجين هذا التدرج لغرضين: أحدهما: أن نبين قدرتنا، والثاني: أن نقر في الأرحام من نقر، حتى يولدوا وينشؤا، ويبلغوا حدَّ التكليف فأكلفهم".

د. التحول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الرفع على سبيل عطف

الجمل :

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

في هذا السياق نجد التحول بارزاً في مجيء الفعل (نُرَدُّ) مرفوعاً، وحقه النصب لكونه معطوفاً على فعل منصوب (فيشفعوا) وقد عللوا سبب الرفع - تعليلاً

(١) - الكشف ٣/٦، وانظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢١٦.

نحوياً- بأنه تحول عن عطف المفردات على بعضها إلى عطف الجمل، فهو من قبيل عطف جملة على جملة.

يقول الفراء^(١): "وقوله (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ) ليس بمعطوف على (فيشفعوا)، إنما المعنى -والله أعلم- أو هل نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل، ولو نصبت (نُرَدُّ) على أن تجعل (أو) بمعنى حتى، كأنه قال: فيشفعوا لنا أبداً حتى نُرَدُّ فنعمل).

وإلى قول الفراء ذهب الزمخشري فقال^(٢): "(نُرَدُّ) جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نُرَدُّ، ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه، فلا يقدر: هل يشفع لنا شافع أو نرد".

ولا نكتفي بالتعليل النحوي في هذا السياق، وإنما نبني عليه التعليل الدلالي المرتبط بالإعراب. فيمكننا القول إن التحول إلى الرفع دل على أنهم "تمنوا الشفعاء والرّد، وقطعوا بالشفاعة وعمل ما لم يكونوا يعملونه، ولو نُصِبَ (أو نُرَدُّ) لكانوا قد تمنوا الشفعاء وحدهم، ولكنهم قطعوا بأحد الأمرين إما الشفاعة وإما الرّد"^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

(١)- معاني القرآن ١ / ٣٨٠.

(٢)- الكشف ٢ / ٨٢.

(٣)- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ١٣٢، وانظر: المحتسب لابن جني ١ / ٣٦٤.

فمقتضى السياق أن ترد كلمة (الصابئون) منصوبة، لأنها معطوفة على اسم (إن)، لكن السياق تحول إلى الرفع، وذهب سيبويه إلى أن كلمة (الصابئون) مرفوعة على الابتداء، وأن في الكلام تقديماً وتأخيراً، يقول^(١): "وأما قوله **عَزَّجَلَّ** "والصابئون" فعلى التقديم والتأخير، كأنه ابتداءً على قوله: "والصابئون" بعد ما مضى الخبر، وعلى هذا يكون الخبر محذوفاً، وتكون الجملة معطوفة -على نية التأخير- على موضع إنَّ واسمها وخبرها، أي: كأنه قيل: إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصابئون كذلك".

واستدل بقول بشر بن أبي خازم^(٢):

وَالْإِلَّا فَاَعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ

"أي: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك".

ويؤيد الزمخشري هذا الرأي لسببويه، ويستثمره ويعلله تعليلاً طريفاً مبيِّناً النكتة في التقديم وحقه التأخير بقوله^(٣): "فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصَّابئين يتاب عليهم، إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصَّابئين أئين هؤلاء المعدودين ظُلَّالًا وَأَشَدَّهُمْ غِيًّا، ما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها: أي خرجوا؛ كما أن الشاعر قدم قوله وأنتم؛ تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف

(١) - الكتاب سيبويه ٢/ ١٥٥-١٥٦، ٦٦١، وانظر: معاني القرآن، الفراء ١/ ٣١١.

(٢) - ديوان الشاعر، ت: صلاح الدين الهواري، ٢١٩، ووردت في الديوان (بغاة ما حيننا).

(٣) - الكشف ١/ ٦٣٢.

بالبغاة من قومه، حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو بغاة، لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً".

وما ذهب إليه الزمخشري في تعليل التقديم حسن، لكنه لا يعلل بلاغة الرفع على وجه الخصوص، إذ يمكن التقديم مع النصب كما ورد في سورة الحج^(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ولفهم -كما يقول ابن المنير- من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع، من أن هؤلاء الصابئين وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم، فما الظن بالنصارى، ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فلم تحول إلى الرفع وجعل الكلام جملتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادي^(٢)؟

ويجب ابن المنير عن ذلك^(٣) بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف؛ لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصنف من جملتها والخبر عنها واحد، وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي، وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف لمنفرد بمعزل، تقديره والصابئون كذلك، فيكون كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها".

(١)- انظر: سر تقديم الصابئين على النصارى في آيتي الحج والمائدة، وتقديم النصارى عليهم في آية البقرة كلاً من: درة التنزيل للخطيب الإسكافي ١ / ١١، والبرهان في متشابه القرآن، الكرمانى، ٣٧ / ٣٨.

(٢)- حاشية الكشف ١ / ٦٣٢.

(٣)- المصدر السابق الصفحة نفسها.

هـ. التحول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الجزم على سبيل عطف الجمل:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

ففي هذا السياق نجد الفعل المضارع (أَصَّدَّقَ) قد جاء منصوباً، وعطف عليه الفعل المضارع المجزوم (أَكُنْ) وحق هذا الأخير أن يرد منصوباً؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، ولكن السياق تحول عن النصب إلى الجزم.

وقد اختلفت آراء المفسرين والنحاة في تأويل ذلك، فذهب سيويه والخليل إلى أن هذا من قبيل العطف على التوهم. يقول سيويه ^(١): "وسألت الخليل عن قوله عَزَّوَجَلَّ: "فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ" فقال: هذا كقول زهير ^(٢):

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى وَلَا سَابِقِ شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيَا

فإنما جرُّوا هذا لأن الأول قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً لا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله فعلى هذا توهموا هذا".

وذهب بعضهم إلى أنه من قبيل العطف على المحل، يقول ابن هشام ^(٣): "وقال السيرافي والفارسي: هو عطف على محل فأصدق". وقال الزرخشري مثل السيرافي

(١) - الكتاب ٣/ ١٠٠-١٠١.

(٢) - الديوان، ١٣٨، ت: محمد حمود، ورواية الديوان (ولا سابقاً).

(٣) - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٦٢٠.

والفارسي وزاد فقال^(١): "وقريء (وأكن) عطفاً على محل (فأصدّق) كأنه قيل: إن أخرتني أصدّق وأكن".

وسائر النحاة ممن عنوا بهذا الموضوع داروا في فلك هذه التعليقات، وخلاصة ما ذكر أن مرد الجزم في (أكن) أنه معطوف على التوهم أو على المحل^(٢).

والمراد بالتوهم عند سيويه والخليل في هذا الموضوع ومن أخذ بقولهما، أن الفعل (أصدّق) في هذا الموضوع لو لم تذكر الفاء لكان مجزوماً^(٣) فجاء جزم (أكن) على توهم جزم الفعل أصدّق. يقول الفراء^(٤): كيف جزم (وأكن) وهي مردودة على فعل منصوب؟ فالجواب في ذلك أن (الفاء) لو لم تكن في فأصدّق كانت مجزومة، فلما رُدّت (وأكن) رُدّت على تأويل الفعل لو لم تكن فيه الفاء".

والذي يظهر أن القول بالعطف على التوهم لا ينبغي ذكره في حق القرآن، إذ العطف على التوهم يوهم بالخطأ، وهذا يقع في كلام البشر، أما في كلام المولى عزّوجلّ فلا يكون، فلا توهم في الكتاب العزيز.

ويرى الدكتور سمير استيتية، أن (الفاء) في هذا السياق عطفت جملة على جملة لا فعلاً على فعل، يقول^(٥): "والآية -فيما أرى- قسمان: أما أولهما فإنشائي طلبي، وهو: (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق) فالفاء سببيّة، والفعل منصوب بها مباشرة،

(١)- الكشف ٤/ ١١٢.

(٢)- انظر: كلام أبي حيان في التفريق بين عطف التوهم والعطف على المحل البحر المحيط ٨/ ٢١٧، ٢٧٥.

(٣)- انظر: المقتضب للمبرد ٢/ ٣٣٩، ٤/ ٣٧١.

(٤)- معاني القرآن ٣/ ١٦٠، وانظر: الحجة في القراءات لابن خالويه ٣٤٦.

(٥)- منازل الرؤية، منهج تكاملي في قراءة النص ٣٢٨-٣٢٩.

أو بأن مضمرة (على الخلاف أيضاً)، وهذا القسم قائم بذاته مستقل عما بعده، والقسم الثاني إخباري لا طلبى، وهو: (وأكن من الصّالحين) وفي اعتقادي أن مبدأ الخطأ في فهم هذه الآية، ناجم عن أن القوم تصوّروا أنها تعطف الفعل (أكن) على الفعل (أصدّق)، وهي في نظري تعطف الجملة الإخبارية على الإنشائية الطلبية: (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق). وهذا يقتضي أن تكون الجملة المعطوفة وهي (وأكن من الصّالحين) جملة شرطية كاملة، حذف منها أداة الشرط وفعل الشرط، وبقي جوابه "، ويكون التقدير في هذه الآية:

لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وإن أخرتني أكن من الصّالحين. فيكون من قبيل عطف الجمل لا عطف المفردات.

ولكون الصّلاح أهم من الصدقة، لأن الذي ينجي من العذاب كونه من الصّالحين، "فعبّر عن كونه من الصّالحين بأسلوب الشرط (وأكن من الصّالحين)؛ لأنه أقوى في الدلالة على التعهد والتوثيق، فأعطى الأهم والأولى أسلوب الشرط الدال على القوة في الأخذ على النفس والالتزام، وأعطى ما هو دونه في الأهمية والأولوية، أسلوب التعليل ولم يجعلها بمرتبة واحدة"^(١).

ثالثاً: تحولات الجر:

تتعدّد أشكال هذا النوع من التحول على النحو التالي:

- أ. التحول عن الجر على العطف إلى الرفع على الاستئناف.
- ب. التحول عن الجر على العطف إلى النصب على المفعول به.

(١) - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل فاضل السامرائي ١٩١.

جـ. التحول عن الجر بالعطف على القريب إلى النصب بالعطف على البعيد.
وستتناول شواهد قرآنية من البيان الإلهي المعجز في ذلك متدبرين دقائق بلاغته وإحكامه:

التحول عن الجر على العطف إلى الرفع على الاستئناف :

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ١٧-٢٢].

نلاحظ في هذا السياق القرآني مجيء لفظة (وَحُورٌ) مرفوعة، مع أنها معطوفة على ما قبلها من الألفاظ المجرورة (بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ... وفاكهةٍ... ولحم).
فكان القياس أن ترد مجرورة على ما قبلها بالعطف فتكون "وَحُورٌ عِينٌ"^(١)، لكن السياق تحول عن الجر إلى الرفع. وقد علل سيبويه الرفع فقال^(٢): "لما كان المعنى في الحديث على قولهم: لهم فيها، حمله على شيء لا ينقض الأول في المعنى".
"ويفهم من كلام سيبويه أن الرفع في الآية محمول على إضمار خبر يدل عليه قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) فلا يحمل على معنى يطوف، وإنما على تقدير خبر، كقولنا (لديهم) أو (عندهم)، وبهذا التقدير يستقيم المعنى"^(١).

(١)- قرأ من السبعة بالجر و "حورٍ عِين"، حمزة والكسائي، وقرأ الباقر، بالرفع انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٨٣/٢ ونحن معنيون هنا بقراءة حفص عن عاصم وقد قرأ بالرفع.

(٢)- الكتاب ١/ ٢٢٨، وانظر: معاني القرآن، للفراء، ٣/ ١٢٣-١٢٤.

وما ذهب إليه سيبويه من تقدير خبر محذوف يستقيم مع دلالة السياق، فإنه يطاف بالأكواب والأباريق والفاكهة، ولكنه لا يطاف بالخور العين، فكان التقدير بالرفع (وعندهم حور عين) أو (لهم حور عين) وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ﴾ [الصفات: ٤٥-٤٨].

وكأن السياق القرآني يوحي بالمفارقة في النعيم والتدرج فيه، فكل ما سبق ذكره من النعيم من ذكر الأكواب والأباريق والفاكهة واللحم كل ذلك يمثل نوعاً من النعيم؛ لذا شرك بينه في العطف، وجعل النعيم بالخور العين نعيماً قائماً بذاته، مستقلاً عن العطف على سابقه، فكان الاستئناف.

ب. التحول عن الجر على العطف إلى النصب على المفعول به:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يُحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤَا﴾ [الحج: ٢٣]. نجد في هذا السياق أن لفظة (لؤلؤا) قد جاءت منصوبة وحقها الجر^(٢) لكونها معطوفة على لفظة (أساور) المجرورة، وأما الفتحة التي في (أساور) فهي نيابة عن الكسرة؛ لأنها جمع تكسير على زنة (أفاعل) الممنوع من الصرف.

(١)- الحمل على المعنى وأثره الدلالي في القرآن، حسن عثمان ص ٧٤، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، مخطوطة ٢٠٠٣.

(٢)- قرأ بالنصب (ولؤلؤا) نافع وعاصم، وقرأ بقية السبعة بالجر. انظر: الكشف عن الوجوه القراءات السبع، ١١٧/٢-١١٨.

وقد ذهب بعضهم إلى أن (لؤلؤا) منصوبة بالعطف على محل (من أساور) فهو من قبيل العطف على المحل، وهذا كقولهم: (مررتُ بزيدٍ وعمرا) ^(١). ويرى آخرون أنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: "يعطون لؤلؤا" ^(٢).

"وهذا الرأي أوفق لسياق الآية الكريمة، وبه يحصل التحول في التركيب، كي يكون العطاء من الله - سبحانه - لأهل الجنة وافرا، فاللؤلؤ حلية بمفرده من غير الذهب، لأنه للزينة أصلا ^(٣)".

فيكون السياق قد أخبر عن تحليتهم بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ، على قراءة الجر (من أساور من ذهب ولؤلؤ)، وأخبر أنهم يعطون أيضاً اللؤلؤ نفسه لكمال الزينة والعطاء، (والله أعلم).

جـ. التحول عن الجر بالعطف على القريب إلى النصب بالعطف على البعيد:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

ظاهر الأمر يقتضي جر (وأرجلكم) لمجيئها بعد اسم مجرور و (رؤوسكم) والواو عاطفة، وهو ما وردت به القراءة الأخرى ^(١)، فدل النصب (وأرجلكم) على أنها معطوفة على ما قبلها لا على الرؤوس، وهو قوله (وجوهكم وأيديكم).

(١)- انظر: البيان في غريب إعراب القرآن ١٧٢/٢.

(٢)- انظر: الكشف ١٠/٣، والبيان في إعراب القرآن ٩٣٨/٢، والبيان في غريب إعراب القرآن، ١٧٢/٢.

(٣)- التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب في القراءات السبع عبد العباس أحمد ١٨٤.

فيفهم من ذلك أن التحول عن الجر إلى النصب في هذه القراءة بيّن أن حكم الأرجل هو الغسل، ولو جاء العطف بالجر فقط؛ لكان المراد أن فرض الأرجل في الوضوء هو المسح فقط، عطفاً على الرؤوس في الحكم إذ حكمها المسح (وامسحوا برؤوسكم)، وأما قراءة الجر (وأرجلكم) فقد وقف عندها علماء التفسير واللغة وقوفاً مطوّلاً، وذهبوا في تخريجها كل مذهب^(٢).

وأحسن ما وقفت عليه من توجيهات هي:

أولاً: توجيه بلاغي ذهب إليه الزمخشري في كشفه فقال^(٣): "وقرأ جماعة وأرجلكم بالنصب فدلّ على أن الأرجل مغسولة، فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح؟ قلت: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجب الاقتصاد في صبّ الماء عليها".

ثانياً: ذهب بعضهم إلى أن كل قراءة أفادت حكماً مستقلاً، وأن هذا يشير إلى أن للرجلين حالتين، فإذا كانتا مكشوفتين ففرضهما الغسل، وإذا كانتا مستورتين جاز المسح عليهما، ويكون هذا دليلاً من القرآن على جواز المسح على الخفين إضافة إلى ما

(١) - قرأها بالنصب نافع وابن عامر وحفص والكسائي، وقرأها بالجر ابن كثير وحمة وأبو عمرو. وانظر: النشر ٢/ ٢٥٤.

(٢) - للاستزادة في معرفة مذاهب العلماء وتخرجاتهم المختلفة لهذه القراءة، انظر: تفسير الطبري ٦/ ٨٣، وتفسير القرطبي، ٦/ ٩٣، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه محمود سعد ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٣) - الكشف ١/ ٥٩٧.

ورد من أدلة السنة على جواز ذلك. يقول ابن عربي (ت ٥٤٣هـ) (١): "وجاءت السنة قاضية بأن النصب يوجب العطف على الوجه واليدين، ودخل بينهما مسح الرأس، وإن لم تكن وظيفته كوظيفتهما؛ لأنه مفعول قبل الرجلين لا بعدهما، فذكر لبيان الترتيب لا ليشتركا في صفة التطهير، وجاء خفض لبيان أن الرجلين يمسحان على الاختيار على حائل، وهما الخفان بخلاف سائر الأعضاء، فعطف بالنصب مغسولاً على مغسول، وعطف بالخفض ممسوحاً على ممسوح، وصح المعنى فيه".

ثالثاً: العمل بالقراءتين معاً، والجمع بين حكميهما، وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري

(ت ٣١٠هـ) بقوله (٢): "والصواب من القول في ذلك أن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقاً اسم ماسح غاسل؛ لأن غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل، فهو غاسل ماسح".

رابعاً: تحولات الجزم:

وهذا النوع من التحول يكون في الأفعال ويرد على نوعين هما:

أ. التحول عن جزم جواب الشرط إلى رفعه على الإخبار.

ب. التحول عن الجزم على العطف إلى الرفع على الإخبار.

(١) - أحكام القرآن، ٢/ ٥٧٨.

(٢) - تفسير الطبري، ٦/ ٨٣.

ويمكننا تناول ذلك على النحو وفق الآتي:

أ. التحول عن جزم جواب الشرط إلى رفعه على الإخبار

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

فقد تحول عن جزم فعل جواب الشرط إلى رفعه فقال (فلا يخاف) ولم يقل (لا يخف)، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]. إذ جاء جواب الشرط مجزوماً في قوله (لا يَلِتْكُمْ).

وسر هذا التحول عن جزم جواب الشرط إلى رفعه بعد (فاء) الجواب، وذلك لتصبح الجملة اسمية فتكون أدلّ على ثبوت الوصف واستقراره.

يقول الزمخشري^(١): "فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له، ووجوب إدخال (الفاء) وكان ذلك كله مستغنى عنه بأنه يقال: لا يَخَفُ؟ قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: (فهو لا يخاف)، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره".

التحول عن الجزم على العطف إلى الرفع على الإخبار

(١) - الكشف ٤/ ١٦٩.

من ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

نجد الفعل المضارع (يغفر) قد جاء مرفوعاً، وفي ذلك تحول عن الجزم عطفاً على جواب الشرط (يحاسبكم) إلى الرفع استثناءً، والتقدير (فهو يغفر لمن يشاء)، ولو جرى السياق على نسق واحد من الإعراب لكان (فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء) بالجزم^(١).

وقد علل الدكتور سمير استيتية دلالة هذا التحول إلى الرفع فقال^(٢): "فالقراءة على الاستئناف المرفوع (فيغفر) تشير إلى إسناد المغفرة إليه، دون غيره -تعالى- بعد تمام الحساب، ولذلك كان التقدير: فهو -لا غير- يغفر لمن يشاء، ويعذب ما يشاء"؛ أي: دل التحول إلى الرفع على الاختصاص، فالله عزَّ وجلَّ هو المختص بالمغفرة وحده. ويرى أن قراءة الجزم، وهذه القراءة تمثل إطاراً في النسق الإعرابي، وتضفي دلالة أخرى، فيقول^(٣): "والقراءة بالجزم عطفاً على المجزوم (يحاسبكم) تهدف إلى إبراز ما تشير إليه (الفاء) من مباشرة وتعقيب من غير تراخ، وذلك من أجل إدخال الطمأنينة في نفوس المؤمنين، فكأن الآية تخبرهم بأن الله سيغفر لمن يشاء عقب الحساب مباشرة، دون أن يطول الزمن بين الحساب والمغفرة".

(١)- قرأها بالرفع ابن عامر وعاصم، وقرأ الباكون بالجزم فيها، انظر: إملاء ما من به الرحمن. العكبري

١ / ١٢١، والبحر المحيط ٢ / ٣٦٠.

(٢)- منازل الرؤية، منهج تكاملي في قراءة النص ٣٢٦.

(٣)- المصدر السابق ٣٢٧.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

فقد تحول عن جزم الفعل (ينصرون) عطفاً على جواب الشرط (يولوكم) إلى رفعه على تقدير: ثم (هم لا ينصرون). فأفاد ذلك دلالة الإطلاق، وهي أن عدو المسلمين مخذول دائماً، وغير منصور مطلقاً- وإن تحقق له نصر مؤقت؛ فهو لا يدوم والعاقبة للمؤمنين- ولو جاء الفعل مجزوماً على العطف، لدخلت جملة (لا ينصرون) في حيز الشرط، ولأصبح المعنى حينئذ، أن عدوهم غير منصور حالة مقاتلته المسلمين وتوليته الأدبار فقط.

وآثرت الصياغة في التركيب مجيء حرف العطف (ثم)^(١) للدلالة على التراخي في الرتبة لا في الوجود؛ "لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار"^(٢).

فصاحب التحول- هنا في التركيب عن الشرط إلى الإخبار تحول في المعنى عن التقييد إلى الإطلاق.



(١)- انظر: الكشف ٤٥٥ / ١.

(٢)- المصدر السابق الصفحة نفسها، وانظر: حاشية الكشف لابن المنير ٤٥٥ / ١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

- الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.
- أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد عبد الله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- أساليب النفي في القرآن، د. أحمد ماهر البقري، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٨٤م.
- أسرار البلاغة، أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، (ت ٤٧٤هـ)، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م.
- أسرار الكون في القرآن، داود سليمان السعدي، دار الحرف العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، (د.ن)، ١٩٩٠.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن، محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين، خلف جامع الأزهر، ١٩٩٣م.
- الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٤.

- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ت (٤٠٣هـ)، ت: أحمد صقر، ط ٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- الإغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: إبراهيم العزباوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتاب العربي، ومؤسسة جمال، بيروت، (د.ت).
- أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
- إملاء ما من به الرحمن، أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، ت: إبراهيم عطوه عوض، مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٩م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، ت: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، ت: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، ت: محمد عبد المنعم الحفاجي، ط ٣، المكتبة الأزهرية، ١٩٩٣م.

- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، (ت ٥٢١هـ)، ت: مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (ت ٧٥٤هـ)، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، (ت ٧٥١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.
- البرهان في إعراب القرآن، أحمد ميقري، ت: د. حسن الأهدل، المكتبة العصرية، ٢٠٠١م.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن، تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (ت ٥٠٥هـ)، ت: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٧٢م.
- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م.
- البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط ١، ١٩٩٩ م.
- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، د. فضل حسن عباس، عمان، دار الفرقان، ط ٧، ٢٠٠٠ م.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبدالمطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ م.
- بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، (ت ٣٨٨ هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٦٨ م.
- البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، ت: عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م.
- بين الطب والإسلام، د. حامد الغوايي، دار الكتب للطباعة، القاهرة، ١٩٦٧ م.
- التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية، د. وليد العناتي، وزارة الثقافة، الأردن، ٢٠٠١ م.
- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، (ت ٦١٦ هـ)، ت: علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧ م.
- التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب في القراءات السبع، عبد العباس عبد الجاسم أحمد، أبو ظبي، ١٩٩٧ م.
- تحول ات البنية في البلاغة العربية، د. أسامة البحيري، دار الحضارة، مصر، ط ١، ٢٠٠٠ م.

- التطور النحوي، المستشرق براجشتراسر، ت: د. رمضان عبدالتواب، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤ م.
- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط ٢، ٢٠٠٢ م.
- تفسير أبي السعود، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، (ت ٩٥١ هـ)، دار المصحف، القاهرة، د.ت.
- تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م.
- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢ م.
- تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٤ هـ)، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨١ م.
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، ت: محمد إبراهيم البناء، مؤسسة علوان والمنار، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- التفسير القيم، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، جمعه محمد أويس الندوي، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠ هـ)، ت: يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٨ م.

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي، (ت ٧٢٨هـ)، ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- تفسير في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٢٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البرسوي، (ت ١١٣٧هـ)، ت: محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ١٩٨٨م.
- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، (ت ٦٧١هـ)، ت: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.
- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبدالمطلب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- الجملة العربية والمعنى، د. فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، ت: د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- حاشية أبي الفضل القرشي على هامش البيضاوي، مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت.
- حاشية الانتصاف، أحمد بن المنير الإسكندري، (ت ٦٨٣هـ)، بهامش الكشف، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.

- حاشية الدسوقي على شرح السعد، مصطفى محمد عرفة الدسوقي، ضمن شروح التلخيص، مؤسسة دار البيان العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٩٢ م.
- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، القاضي شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ)، ت: عبدالرزاق المهدي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- الحجة في القراءات السبع، أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، (ت ٣٧٠ هـ)، ت: عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، ط ٣، بيروت، ١٩٧٩ م.
- الحذف البلاغي في القرآن، مصطفى عبدالسلام أبو شادي، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، (ت ١٠٩٣ هـ)، ت: محمد نبيل طريفي، وأميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨ م.
- خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠ م.
- خصائص التعبير القرآني، وسامته البلاغية، د. عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- الخصائص، أبو الفتح، عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، ت. محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٢ م.

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، (ت ٧٥٦هـ)، ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧م.
- دراسات في البلاغة، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٤م.
- دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، دار الأرقم، القاهرة، ١٩٩٣م.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ)، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٢م.
- ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان، أخت طرفة بن العبد، رواية أبي عمرو بن العلاء وغيره، ت: واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ديوان بشر بن أبي خازم، شرحه صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٧م.
- ديوان ذي الرمة، ت: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح د. محمد حمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥م.

- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ)، ت: أحمد محمد الخراط، دمشق، ١٩٧٥م.
- روح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- الزمن واللغة، مالك المطلبي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٨٦م.
- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد من القرآن، د. عودة الله منيع القيسي، دار البشير عمان، ١٩٩٦م.
- شرح أشعار الهذليين، الحسن بن الحسين السكري، ت: عبدالستار أحمد فراج، ومراجعة محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.
- شرح السعد على التلخيص، ضمن شروح التلخيص، مؤسسة دار البيان العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٩٢م.
- شرح الكافية في النحو، رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (ت ٦٨٦هـ)، ت: د. عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م.
- شرح شذور الذهب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، د.ت.
- شروح التلخيص، مؤسسة دار البيان العربي، ط ٤، بيروت، ١٩٩٢م.
- صحيح الإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـ)، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٩٨٧م.
- الضمائر في اللغة العربية، د. محمد عبدالله جبر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، (ت ٧٤٥هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤م.
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م.
- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، د. بسيوني فيود، مؤسسة المختار، القاهرة، ١٩٩٨م.
- عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي (ت ٧٢١هـ)، ت: هند شلبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.
- الفاصلة القرآنية، د. عبدالفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت ٤٠٠هـ)، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- في الأدب والبيان، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٤م.
- في النحو العربي، قواعد وتطبيق، د. مهدي المخزومي، مصطفى الحلبي، مصر، ١٩٦٦م.

- قبس من الإعجاز، هشام الحمصي، دار الثقافة للجميع، ط ٢، دمشق، ١٩٨٩ م.
- القرآن الكريم وتفاعل المعاني، دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل، وأثره في المعنى في القرآن الكريم، د. محمد محمد داود، دار غريب، مصر، ٢٠٠٢ م.
- قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلاوي، صفاقس، دار محمد علي الحامي، ١٩٩٨ م.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله **عَزَّجَلَّ**، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٩٨٩ م.
- الكتاب، لسيويه، أبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت ١٨٠ هـ)، ت: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨ م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت ٥٣٨ هـ)، دار الفكر، ١٩٧٧ م.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ)، ت: د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ١٩٩٧ م.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (ت ١٠٩٤ هـ)، ت: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢ م.

- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١ م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، د. فضل حسن عباس، بيروت، دار النور، ١٩٨٩ م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤ م.
- اللغة: ج. فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠ م.
- لفتات ومواقف حول الصلة بين النحو والصرف، د. محمد بركات أبو علي، مكتبة الرسالة، الأردن، ١٩٧٨ م.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ١٩٩٩ م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٦ هـ)، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢هـ)، ت: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن عطية، (ت ٥٤٦هـ)، ت: المجلس العلمي بفاس، المغرب، ١٩٧٥م.
- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، د. محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٩٣م.
- مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٩٩٦م.
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة الكويت، ١٩٨١م.
- معاني التراكيب، د. عبدالفتاح لاشين، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، د.ت.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، (ت ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، الأردن، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- معاهد التنصيص، على شواهد التلخيص، عبدالرحيم بن أحمد بن العباسي، (ت ٩٦٣هـ)، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت.
- معترك الأقران، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، ت: علي البجاوي، دار الفكر العربي، د.ت.
- معجم الشواهد النحوية، د. حنا حداد، ط ١، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.
- المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م.
- معجم مقاييس اللغة، ابن الحسين أحمد بن فارس، (ت ٣٩٥هـ)، ت: عبدالسلام محمد هارون، الدار الإسلامية، لبنان، ١٩٩٠.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، ت: مازن المبارك وسعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، (ت ٦٢٦هـ)، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، ت: محمد سيد كيلاني، مصطفى الحلبي، مصر، ١٩٦١م.
- المفصل في علم العربية، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط ٢، دار الجيل، بيروت.

- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، (ت ٢٨٥هـ)، ت: محمد عبدالحالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، د. طالب محمد إسماعيل الزوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٦م.
- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٦، ١٩٧٨م.
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩م.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣م.
- منازل الرؤية، منهج تكاملي في قراءة النص، د. سمير شريف استيتية، دار وائل، الأردن، ٢٠٠٣م.
- مناهج النقد المعاصر، د. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصرة، دار الآفاق، القاهرة، ١٩٩٧م.
- المنظار الهندسي في القرآن الكريم، د. خالد العبيدي، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠١م.
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن عاشور بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، (ت ٧٩٠هـ)، ت: مشهور بن آل سلمان، دار عفان، السعودية، ط ١، ١٩٩٧م.

- مواهب الفتح، ابن يعقوب المغربي، (ت ١١١٠هـ)، ضمن شروح التلخيص، مؤسسة البيان العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٩٢م.
- موسوعة الإشارات العلمية في القرآن والسنة، د. عبدالباسط الجمل، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله درّاز، ت: محمد عبدالحמיד الدخاخي، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٧م.
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، (ت ٥٨١هـ)، ت: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، د. محمد حماسة عبداللطيف، دار الشروق، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن القيم الجزري، (ت ٨٣٣هـ)، ت: علي محمد الضبّاع، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- نظرية اللغة في النقد العربي، د. عبدالحكيم راضي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠م.
- نظم الدر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٢م.
- النظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر الحنن، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٦م.

• النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ)، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ت: محمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٦٨.

• نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، ت: د. محمد بركات حمدي أبو علي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٥ م.
• النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩ م.

• همع الهوامع، الإمام جلال الدين السيوطي، (ت ٩١١ هـ)، ت: د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨٧ م.
• الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، ت: محمد الزفيتي، القاهرة، ١٤٠٦ هـ.

•

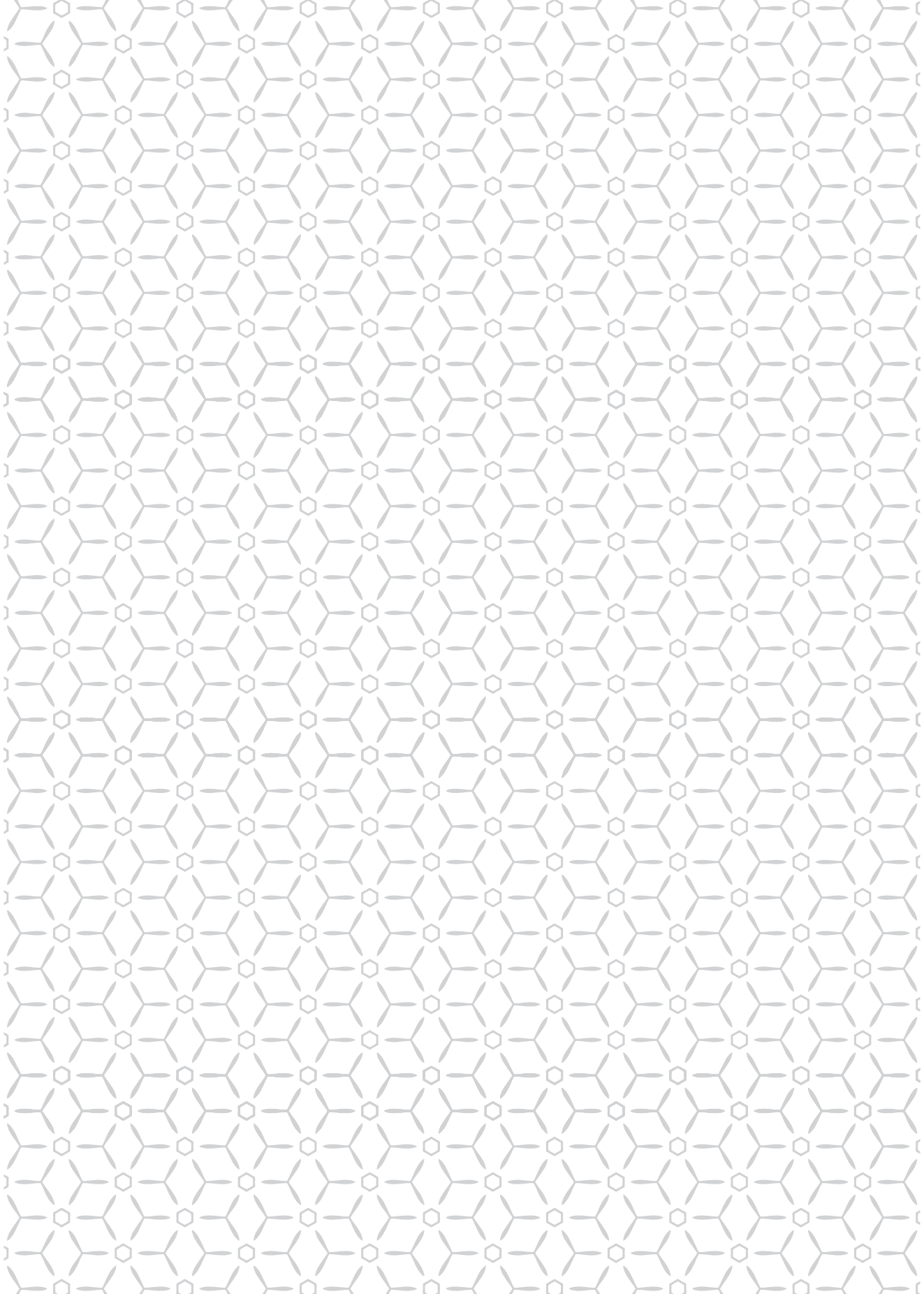
الرسائل والدوريات

• أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية، د. يحيى القاسم، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ١٩٩٣ م.

• الإنزياح بين النظريات الأسلوبية والنقد العربي القديم، أحمد محمد ويس، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة حلب، ١٩٩٥ م.

- الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثاني والثلاثون، تونس، ١٩٩١م.
- الانحراف مصطلحاً نقدياً، د. موسى ربابعة، مؤته للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد العاشر، العدد الرابع، ١٩٩٥م.
- التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبدالله الجيوسي، (رسالة دكتوراه، مخطوطة) الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠١م.
- جماليات الالتفات، د. عز الدين إسماعيل، ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، أبحاث ندوة نادي جدة الأدبي، ١٩٨٨م.
- الحمل على المعنى، وأثره الدلالي في القرآن الكريم، دراسة لغوية ونحوية، حسن عثمان، (رسالة ماجستير مخطوطة)، جامعة اليرموك، ٢٠٠٣م.
- روافد البلاغة، بحث في أصول التفكير البلاغي، د. سمير شريف استيتية، ضمن "دراسات إسلامية وعربية"، مهداة إلى العلامة فضل حسن عباس بمناسبة بلوغه السبعين، أشرف على إعدادها د. جمال محمود أبو حسان، دار الرازي، الأردن، ٢٠٠٣م.
- الشرط بـ (إن) و(إذا) في القرآن الكريم، د. علي فودة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الرابع، السنة الرابعة، ١٩٧٦م.
- القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، د. فضل حسن عباس، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، العلوم الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد السابع، ١٩٨٧م.

- المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، د. فضل حسن عباس، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية)، الجامعة الأردنية، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع، ١٩٨٤م.
- مفهوم التحول في الدراسات الأسلوبية المعاصرة، د. عبدالله صولة، المجلة العربية للثقافة، السنة السادسة عشرة، العدد الثاني والثلاثون، ١٩٩٧م.
- من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد التاسع، العدد السادس والثلاثون، ١٩٨٩م.
- منهج في التحليل النصي للقصيدة، د. محمد حماسة عبداللطيف، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، صيف ١٩٩٦م.
- النحو والشعر، قراءة في دلائل الإعجاز، د. مصطفى ناصف، مجلة فصول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨٨م.
- النص الأدبي بين القارئ والمبدع، غسان السيد، مجلة المعرفة، العدد ٤٠٧، آب ١٩٩٧م.
- النص الأدبي والمتلقي، سعود محمود عبدالجابر، الفكر العربي، ع ٣٩، صيف ١٩٩٩م.



فهرس الموضوعات

٦.....	المقدمة: أهمية الموضوع ودواعي دراسته:
١٢.....	التمهيد: القيمة البلاغية للتحوّل السياقي:
١٥.....	الفصل الأول: التحوّل في الأفعال والأسماء
١٧.....	تمهيد
١٨.....	المبحث الأول: التحوّل في الأفعال
٢١.....	الصورة الأولى: التحوّل عن الفعل الماضي إلى المضارع:
٣٨.....	الصورة الثانية: التحوّل عن الفعل المضارع إلى الماضي:
٤٧.....	الصورة الثالثة: التحوّل عن الماضي إلى الأمر:
٥٢.....	الصورة الرابعة: التحوّل عن المضارع إلى الأمر:
٥٥.....	الصورة الخامسة: التحوّل عن الأمر إلى الماضي:
٥٧.....	الصورة السادسة: التحوّل عن فعل الأمر إلى المضارع:
٥٩.....	المبحث الثاني: التحوّل في الأسماء
٥٩.....	أولاً: التحوّل في الضمائر
٦٢.....	الصورة الأولى: التحوّل من التكلم إلى الخطاب:
٦٣.....	الصورة الثانية: التحوّل من التكلم إلى الغيبة:

- ٦٦..... الصورة الثالثة: التحول من الخطاب إلى التكلم:
- ٦٧..... الصورة الرابعة: التحول من الخطاب إلى الغيبة:
- ٧٣..... الصورة الخامسة: التحول من الغيبة إلى التكلم:
- ٧٩..... الصورة السادسة: التحول من الغيبة إلى الخطاب:
- ٨٣..... ثانياً: التحول من الضمير إلى الاسم الظاهر:
- ٨٤..... أ- إنزال الأمر المعنوي منزلة المحسوس في ظهوره وبروزه:
- ٨٦..... ب. الدلالة على العموم:
- ٨٧..... ج. إبراز الوصف الذي يفصح عنه الاسم ولا يظهره الضمير:
- ٨٨..... د. رفع الحرج النفسي عن المخاطب بتغييبه بدلاً من مخاطبته:
- ٨٩..... هـ- الدلالة على التفخيم والتعظيم:
- ٩٠..... و- الحث على فعل المأمور:
- ٩٠..... ز- الدلالة على القوة والمهابة:
- ٩٢..... ثالثاً: التحول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة:
- ٩٨..... المبحث الثالث: التحول من الاسم إلى الفعل وبالعكس:
- ١٠٢..... أولاً: التحول من اسم الفاعل إلى الفعل والعكس:
- ١٠٩..... ثانياً: التحول من الفعل إلى اسم المفعول:
- ١١١..... ثالثاً: التحول من المصدر إلى الفعل:

- الفصل الثاني: التحول في حروف المعاني ١١٥
- تمهيد ١١٧
- المبحث الأول: التحول عن حرف إلى آخر ١٢١
- أولاً: التحول في حروف الجر: ١٢١
١. التحول عن (على) إلى (في): ١٢٢
٢. التحول عن (في) إلى (على): ١٢٣
٣. التحول عن (في) إلى (الباء): ١٢٥
٤. التحول عن (في) إلى (من): ١٢٦
٥. التحول عن (من) إلى (في): ١٢٧
٦. التحول عن (من) إلى (عن): ١٢٩
٧. التحول عن (من) إلى (الباء): ١٣٣
٨. التحول عن (اللام) إلى (في): ١٣٧
٩. التحول عن (اللام) إلى (على): ١٣٩
١٠. التحول عن (إلى) إلى (على): ١٤٠
١١. التحول عن (إلى) إلى (اللام): ١٤١
١٢. التحول عن (الباء) إلى (اللام): ١٤٥
- ثانياً: التحول في حروف العطف: ١٤٨

- ١ - التحول عن (الواو) إلى (الفاء) والعكس: ١٥١
- ٢ - التحول عن (الواو) إلى (ثم) والعكس ١٥٣
- ٣ - التحول عن (الفاء) إلى (ثم) والعكس: ١٥٥
- ثالثاً: التحول في حروف النفي ١٦٣
- رابعاً: التحول في حروف الشرط: ١٧٢
- المبحث الثاني: التحول في حذف الحرف وذكره ١٧٧
- النمط الأول: التحول عن ذكر الحرف إلى حذفه: ١٧٧
١. التحول عن ذكر (اللام) الواقعة في جواب الشرط إلى حذفها. .. ١٧٧
٢. التحول عن ذكر (لام) التعليل إلى حذفها: ١٨٠
٣. التحول عن ذكر اللام الموطئة للقسم إلى حذفها: ١٨٢
- ٤ - التحول عن ذكر لام التعريف إلى حذفها: ١٨٣
٥. التحول عن ذكر (الفاء) الواقعة في الجواب إلى حذفها: ١٨٧
٦. التحول عن ذكر حرف الجر إلى حذفه: ١٨٩
٧. التحول عن ذكر حرف العطف إلى حذفه: ١٩٠
- النمط الثاني: التحول عن حذف الحرف إلى ذكره: ١٩١
١. التحول عن حذف حرف العطف إلى ذكره: ١٩١
٢. التحول عن حذف (فاء) الجزاء إلى ذكرها: ٢٠٠

٣. التحول عن حذف حرف النفي إلى ذكره: ٢٠٣
٤. التحول عن حذف لام التعريف إلى ذكرها: ٢٠٥
- الفصل الثالث: التحول في التركيب ٢٠٩
- تمهيد ٢١١
- المبحث الأول: التحول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف ٢١٣
- أولاً: التحول عن تعدي الفعل بنفسه إلى تعديه بحرف: ٢١٣
- ثانياً: التحول عن فعل متعدي بنفسه إلى آخر متعدي بحرف والعكس: ٢١٧
- المبحث الثاني: التحول في إسناد الفعل ٢٢٣
- أولاً: التحول في الإسناد: ٢٢٣
- ثانياً: التحول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول والعكس: ٢٢٦
- المبحث الثالث: التحول عن ذكر المفعول به إلى حذفه والعكس ٢٣٣
- المبحث الرابع: التحول في العدد ٢٤٠
- الصورة الأولى: التحول عن الإفراد إلى التثنية: ٢٤٢
- الصورة الثانية: التحول عن الإفراد إلى الجمع: ٢٤٢
- الصورة الثالثة: التحول عن التثنية إلى الإفراد: ٢٤٤
- الصورة الرابعة: التحول عن التثنية إلى الجمع: ٢٤٧
- الصورة الخامسة: التحول عن الجمع إلى الإفراد: ٢٥٠

٢٥٢.....	الصورة السادسة: التحول عن الجمع إلى التثنية:
٢٥٥.....	المبحث الخامس: التحول في التقديم والتأخير
٢٦١.....	المبحث السادس: التحول عن مطابقة الجواب للسؤال
٢٦٦.....	المبحث السابع: التحول في الجمل
٢٦٩.....	النمط الأول: التحول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية :
٢٨١.....	النمط الثاني: التحول عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية:
٢٨٣.....	المبحث الثامن: التحول في النسق الإعرابي
٢٨٥.....	أولاً: تحولات الرفع:
٢٩٤.....	ثانياً: تحولات النصب:
٣٠٨.....	ثالثاً: تحولات الجر:
٣١٧.....	قائمة المصادر والمراجع
٣٣٣.....	الرسائل والدوريات
٣٣٧.....	فهرس الموضوعات